الجزء الثالث　　　　　　　　المجلد الحادي والأربعون

مجلة
مجمع اللغة العربية بدمشق
« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

تموز (يوليو) سنة ١٩٦٦ م　　　　　　　　ربيع الأول سنة ١٣٨٦ هـ

دعوى الصعوبة في تعلم العربية

في الثلث الأخير من الشهر الثالث من هذا العام ألّف التّلفاز (١) اللبنانيّ العربي ندوةً أدبيةً من ثلاثة أعضاء ، ودار البحث فيها عن صعوبة تعلم العربية ، وأن الطالب الأجنبيّ والمستشرقين يجدون في تعلمها من المشاق ما لا يجدون مثله في تعلّم لغة أجنبية ، وكان من الأعضاء اثنان ذهبا إلى أن تلك الصعوبة من طبيعة اللغة العربية ، وأكّد الثالث لرفيقيه أن مردّ تلك الصعوبة إلى سوء أساليب التأليف والتعليم ، ولو أن العربية كانت تُعلَّم للمبتدئين كما تعلم اللغة الأجنبية بالأساليب المنطقية الحديثة لما صعبت حين خفيت عليهم مطالبها ، واستعجمت مذاهبها ، وذكرت في هذه الندوة كثرة الأسماء في العربية للمسمى الواحد ، وأنها مما يتحيّر له البادئ فلا يدري بأيّها يأخذ ، ولا أيّها هو بالاستعمال أجدر وأولى .

(١) التلفاز استعملها مجمع اللغة العربية بدمشق للتلفزيون وهي على وزن تبيان وتجواز ، وتشتق منها التلفزة مصدراً .

ونحن رأينا بعض تلك المصاعب أيام الطلب ، ومنها كثرة الوجوه في الإعراب ، والتعليل النحوي والصرفي ، ثم عرفنا بعد ذلك أن أمثال تلك الصعاب إنما نشأت من سوء تأليف تلك الكتب للأحداث والمبتدئين ، ومن فقد حكماء المعلمين المحكمين لصناعة التعليم والتفهيم ، فمن سوء تأليف تلك الكتب المدرسية أنها مؤلفة على الطريقة التقريرية بقواعد يكثر فيها التجريد وتقل عليها الأمثلة والشواهد ، فهي بذلك فوق مستوى عقول المبتدئين الذين يجب أن يتدرّجوا في دروس القواعد ، من المحسوس الواضح إلى المجرّد الغامض ، ومن السهل إلى الصعب ، والمعلم البارع يبدأ بتعليم المفردات الفصيحة التي يحتاج إليها في الكلام ، ثم بتعليم تركيبها مع الأفعال تركيباً صحيحاً ، ثم يطالب تلاميذه باستعمال هذه التراكيب في محاوراتهم ومحادثاتهم ، ويعلمهم تصريف الأفعال الضرورية للمحادثة مجنّباً إياهم إعراب الجمل الصعبة وحفظ عباراته الطويلة التي يلوكونها ولا يدركون لها معنى ،

الشواذ والغوامض في اللغات الأجنبية . — وقلّما خلت لغة أجنبية من الشواذ ، وفي اللغة الفرنسية كثير من تلك الشواذ في النحو والصرف معاً ، وهي من طبيعة هذه اللغة التي اعتوروها بالإصلاح كثيراً ، ولم تتعرض لها كتب النحو عندهم ، ولا يذكر المعلم الفرنسي علل التحول في تصريف فعل الكون مثلاً verbe être لكيلا يتحير عقل التلميذ في إدراك السر من تحول الفعل je suis في الحاضر إلى je serai في المستقبل ، أو في تحول فعل الذهاب aller ، لم يقول المتكلم je vais والمتكلمون nous allons وفي المستقبل j'irai ؟ وفي جموعهم كثير من الشواذ ، وليست المفردات تنتهي بحرف s في جموعها كلها ، فان الطالب لا يدري لِمَ كان اسم الشغل le travail يجمع les travaux ، ولِمَ mal يجمع على maux و chacal ابن آوى لا يجمع مثلها

ويجمع على des chacals بحرف s لا بـ aux ؟ ولو سأل الطالب معلمه عن سر هذه الشواذ لقال له : هكذا يتكلم الفرنسيون جواباً على السؤال ، وكفى الله المتعلمين شرور العلل والجدال .

ومن صعوبة الرسم في الفرنسية أن من الأحرف ما يكتب ولا يُلفظ كعلامة الجمع ent في جميع التصاريف ، ولا يدري الطالب لم يكتب اسم البنت la fille بلامين يلفظها ياءً ، ولا يكتب كذلك اسم الحياة la vie ؟

ولو أردنا استقراء هذه الشواذ والمشاكل في اللغة الفرنسية ، ولا يعرف الطالب العربي لتفسيرها وتعليلها وجهاً منيراً ، لخرجنا من موضوعنا إلى غيره .

طريقة التهجئة القديمة . — لقد كان تعلم القراءة قديماً آلياً بصيغ يلوكها المبتدئ في التهجئة ، ولا يفقه لها معنى ، أيام كان شيوخ الكتاتيب لا يفكرون في تيسير القراءة على الصبيان ، فكانوا يرقصون أمام شيخهم وهم يقرؤون ألواحهم ، وأنا ممن تعلم على هذه الطريقة المنهكة المضحكة ، ثم أخذ رجال التربية والتعليم إبّان النهضة الفيصلية ، وعلى رأسهم المربّي العربي الكبير الأستاذ ساطع الحصري الذي عالج على عهد الملك فيصل الأول مشكلة القراءة العربية فوضع (مبادئ القراءة الخلدونية) وهي أول رسالة عربية في القراءة الصوتية ، ثم جرى المعلمون بدمشق وغيرها على طريقته هذه المثلى .

وبذلك عولجت القراءة العربية وأصبحت بفضل الطريقة الصوتية سهلة على المبتدئ العربي سهولة الفرنسية على المبتدئ الفرنسيّ ، وبقيت قضية الكتابة العربية والإملاء ، وبالطريقة الصوتية أيضاً ذُللت صعابها برسم مقاطع الكلمات بحسب أصواتها المسموعة فيكتب التلميذ كما يسمع « والضحا ، والليل إذا سجا » (١) بالألف مطلقاً فلا يشغل صدره الضيّق وعقله المحدود بالحالة التي

(١) هذا رأي في التيسير للصبيان . —

يكتب فيها الاسم أو الفعل بالألف في آخرها ، ولا بالحالة التي يكتب آخرها بالألف المقصورة كالفتى والعصا ؛ وقد أجاز الإمام الفرّاء مثل هذه الكتابة تيسيراً لها ، كما أجاز الإمام مالك كتابة المصاحف بغير الرسم العثماني تيسيراً على الصبيان الذين يقرؤون القرآن .

تيسير الكتابة بالطريقة الصوتية . — وكنت قد وضعت لوزارة المعارف السورية رسالة في الكتابة الصوتية نشرتها في مجلتها التربوية وطبعتها رسالة على حدة ، ويذهب اليوم كثير من المعلمين هذا المذهب في تعليم الكتابة ؛ على أن في الفرنسية كما بيّناه وفي الانكليزية والألمانية كثيراً من هذه المشكلات الكتابية والحروف التي تكتب ولا تقرأ ، ولم يقل المشرفون على تعليم هذه اللغات غيرةً عليها وحرمةً لسلفهم بوجوب حذف زوائدها وتبديل قواعدها .

هذا وقد تحسّنت أصول تعليم القراءة والكتابة في أيامنا هذه كثيراً ، كما صلحت كتب النحو والصرف المدرسية التي حذا مؤلفوها حذو كتب المتعلمين للغات الأجنبية ، فلا نرى فيها تلك الفلسفة الإعرابية ولا التحاويل الصرفية التي لا يرجع الطالب منها إلى محصول ، ولا تسفر له عن معنى معقول ، وليس في هذه الكتب ما يتعب المبتدئ حفظه من المفردات الفصيحة المختارة ، ولا من كثرة الأسماء للمسمّى الواحد كما زعمت الندوة التلفازيّة ، فهو لا يتعلم إلا اسم السيف ويركب عليه جمله الكلامية ؛ وأما بقية أسمائه ، وهي في الواقع من صفاته ، فموضعها بطون المعاجم اللغوية ، والأدباء من الدارسين للأدب العربيّ في حاجة ماسة إلى البحث عنها لفهم هذا الأدب ، شعراً ونثراً ، وبما ذكرناه يتضح لنا أن تلك الصعوبة التي يعيبون بها اللغة العربية ترجع إلى سوء التأليف وضعف صناعة التعليم .

لجنة تيسير القواعد العربية . ــ وهذه لجنة تيسير قواعد اللغة العربية التي ألّفتها وزارة المعارف المصرية [١] ، ترى من تيسير تعليم العربية حذف ذلك الإعراب الفلسفي التقديري والمحلّي معاً ، بل ذهبت إلى حذف كل إعراب غامض كإعراب صيغ التعجب والتحذير والإغراء والندبة والاستغاثة والمدح والذم ، بل ترى أن تحذف من علم الصرف ما هو من أبحاث فقه اللغة ، وأن لا تبقي منه إلاّ ما يحتاج المبتدئ إليه من تصريف الأفعال ، وما لا يستغني عنه في البيان .

ونحن من الإصلاح اللغويّ لا نريد إصلاح اللغة بل إصلاح أساليب تعليمها وطرق تأليف كتبها ، فيبقى جوهر اللغة سليماً . وأذكر أني ــ أيام كنت مفتشاً للغة العربية ــ شاهدت معلماً في حلب كتب على اللوح الأسود صيغتي التعجب : « ما أسهله وأسْهِلْ به » وعجز عن إفهام تلاميذه إعراب الصيغتين كما عجز طلابه عن فهم كلامه ، وكان أحد الأذكياء منهم يقول لأستاذه : أنا لا أفهم كيف يكون فعل الأمر فعلاً ماضياً في إعراب (أسهِلْ به) حين تقول (أسهِلْ) فعل ماض جاء على صورة الأمر ، ولم يدرك في إعراب (بهِ) من هذه الصيغة كيف تكون الهاء المكسورة فاعلاً ، والفاعل لا يكون إلاّ مرفوعاً !

ولذلك أحسنت لجنة تيسير القواعد المصرية باقتراحها أن يقال في إعراب جملة التعجب (ما أسهلَ النحو) : إنها صيغة تعجب والاسم المتعجَّب منه بعدها منصوب ، وكذلك في إعراب (أسْهِلْ به) يقال (أسهِلْ) صيغة

---

(١) عيناها وزيرها النبيل نجيب الدين بركات ، ومن أعضائها طه حسين وأحمد أمين وابراهيم مصطفى وعلي الجارم .

تعجب والاسم بعدها مكسور مع حرف الجر ؛ واقترحت في إعراب عبارات التحذير والإغراء مثل إياكَ والنارَ ، أو (النارَ النارَ) أن يقال في كل من هاتين الجملتين أنها صيغة تحذير والاسمان بعدها منصوبان ليس غير ، ولا حاجة إلى تقدير العامل .

من أسباب الصعوبة كثرة وجوه الإعراب . — وحسبنا منها أن نذكر كثرة تلك الوجوه في إعراب مثل (ان هذان لساحران) فقد ذكر النحاة قديماً أن لإعرابها وجوهاً ستة ، كما ذكروا في إعراب البسملة تسعة أوجه سبعة منها جائزة الإعراب ، ووجهان لا يجوزان وهما :

إن ينصب الرحمن أو يرتفعا فالجرّ في الرحيم قطعاً منعـا

ومثل هذا الإعراب الكثير الوجوه والإعنات ، ممّا يقصد بمعضه الامتحان والمعاياة ، وكان كثير من الطلاب يكرهون لأجله درس النحو بالأزهر ، وفرّ بعض الأئمة من الأزهر كله راجعاً إلى قريته ، ولولا أن تداركه بعض أقربائه للذى أدرك سر فراره ، وأخذ يلقنه مبادئ النحو متدرجاً به المحسوس إلى المعقول . ومن السهل إلى الصعب ، ففهم بذلك من معلمه القريب اللبيب ما لم يستطع فهمه في الأزهر ، والتذّ بالنحو ودروسه فرجع إلى الأزهر ، وهو أفهم وأعلم من رفقائه الذين لم يظفروا بمثل معلمه البارع في أصول التعليم ، ولولاه لما أصبح من علماء الأزهر وأئمة المسلمين المصلحين ، وذلك مما يثبت أن صعوبة اللغة العربية هي من سوء التعليم وفساد طريقة التلقين والتفهيم ، وإن هنالك من اللغات ما هي أصعب من العربيه ويتعلمها الطالب لحسن أساليب التعليم بأسرع وقت وأيسر سبيل ، والمبتدي العربيّ والأجنبيّ في ذلك سواء .

كثرة التجريد في قواعد النحو. — وقد انتبه لما في قواعد النحو من التجريد الذي لا يلائم مدارك الصبيان الأستاذ ساطع الحصري في كتابه (دروس في أصول التدريس)(١) كتعريف الفعل الماضي في بعض الكتب على الوجه التالي : «الفعل الماضي ما يدل على معنى مستقل بالفهم والزمن جزء منه» ، فيقول الأستاذ : لا شك ان هذا التعريف مجرّد جداً فلا يلائم مدارك الأطفال ، وزد على ذلك انه غير جامع ولا مانع ، لأن هنالك كثيراً من الكلمات التي لها معنى مستقل بالفهم والزمن جزء منه ، كما جاء في التعريف مع أنها لم تعتبر من الأفعال باتفاق جميع علماء اللغة مثل قديم ، سريع ، ماضٍ ، آتٍ ، متأخر ومستمر وهلم جراً ، فيجب علينا أن لا نعتمد على هذا التعريف ، وأن نرجح عليه التعريف الذي يستند إلى مفهوم الحديث : «الفعل ما يدل على حدث مقترن بزمن» .

كذلك التعريفات المبنية على الإعراب لا على المعنى مثل تعريف الفعل اللازم على الصورة التالية : «الفعل اللازم ما لا ينصب المفعول به ، والفعل المتعدي ما ينصب المفعول به» فلا حاجة بنا إلى ذكر أن هذا التعريف بمثابة تعريف الشيء بما هو أغمض منه ، وبما يحتاج إلى تعريف أكثر منه ، إذ ليس من الممكن أن يعرف التلميذ ما إذا كان للفعل مفعول به أم لا ، فلا يجوز أن يقال ذلك بل يجب أن يقال : «ان المفعول به يلفظ منصوباً ، وإن الأفعال اللازمة لا يكون لها مفعول به» .

ثم نرى هذا المؤلف الحاذق ينتقل إلى بحث علامات الكلمات وإلى تعريفها وتوضيحها فيقول ما نصه : واعتادت الكتب المدرسية أيضاً أن تذكر ثلاث

(١) ١٠٣/٢ .

الملامات فتقول : علامة الماضي أن يقبل تاء الفاعل أو تاء التأنيث الساكنة ، وعلامة المضارع أن يصح وقوعه بعد (لم) وأن يبتدئ بحرف من حروف أنيت ، وعلامة الأمر أن يقبل نون التوكيد (١) .

لذلك نرى معظم المعلمين (قديماً وحديثاً) يهتمون بتعليم هذه العلامات وباستجواب الطلاب فيها ، وكثيراً ما يسألونهم عندما يجيبهم أحد التلاميذ بأنه ماض أو مضارع : كيف عرفت ذلك ؟ هل يقبل تاء الفاعل ، هل يصح وقوعه بعد لم ؟ هل يبتدئ بأحد حروف أنيت ؟ وهلم جرا ...

ومن المعلوم أن علامة الشيء منطقياً يجب أن تكون أوضح وأظهر من الشيء نفسه ، فتعليم علامةٍ ما لا يكون مفيداً إلا إذا كان فهمها وتمييزها من غيرها أسهل بكثير من فهم الشيء نفسه وتمييزه من غيره ، أما العلامات المذكورة فلم تكن من هذا القبيل .

ومن البديهيات أن تمييز فعل الأمر بحسب معناه أسهل بكثير من معرفة ما إذا كان يقبل نون التوكيد أو لا ، بل أسهل من معرفة نون التوكيد نفسها إذا كانت متصلة بالكلمة ولاحقة بها حقيقة ، وكذلك تعريف الفعل الماضي بالنظر إلى معناه أسهل من معرفة ما إذا كان يقبل تاء الفاعل أو تاء التأنيث الساكنة .

(١) ويقول ابن هشام في كتابه (شذور الذهب في كلام العرب) ما نصه : « والفعل إما ماض وهو ما يقبل تاء التأنيث الساكنة كقامت وقعدت ؛ أو مضارع وهو ما يقبل (لم) كلم يقم . وافتتاحه بحرف من نأيت مضموم إن كان الماضي رباعياً كأُدحرجُ وأُجيب ، ومفتوح في غيره كأَضربُ وأَستخرج ؛ أو أمر وهو ما دل على الطلب مع قبول ياء المخاطبة كقومي . أقول : ونرى ابن هشام يميّز فعل الأمر بحسب معناه قبل العلامات كما يريد الأستاذ الحصري .

ذلك لأن هنالك كثيراً من الكلمات التي تبتدئ بالتاء أو تنتهي بها ، وليست مضارعاً ولا ماضياً ولا فعلاً ، فكلمات (تابوت ، حانوت ، بنات ، نبات) هي من هذا القبيل ؛ أما القول بأن التاء في هذه الكلمات هي من المادة الأصلية فانها لا تبطل الملاحظات الآنفة ، لأن معرفة المادة الأصلية وتمييزها من مزيداتها أصعب من معرفة الأفعال ومن تمييز بعضها من بعض ، زد على ذلك أن كثيراً من الكلمات تبتدئ بتاء مزيدة على المادة الأصلية وهي ليست فعلاً مضارعاً مثل تَورُّطَ ، تبارُكَ ، تَكرُّرَ وهلم جرا .

كذلك نرى الأستاذ يذلّل كثيراً من صعاب تعليم القواعد بطرق صحيحة معقولة ، وهو مما يدلّ على أن مردّ أكثر تلك الصعوبة إلى سوء التأليف والتعليم لا إلى طبيعة اللغة العربية ، فإن في اللغات الإغريقية واللاتينية والألمانية من من المشاكل ما هو أعضل من مشاكل العربية التي يقول في منطقيتها رئيس القسم العربي لطلابه في مدرسة الدراسات الشرقية بلندن (١) :

« إن اللغة العربية إنما يسلس لكم قيادها إذا استعنتم عليها بالمنطق السليم » .

طريقة التعليم بالنصوص . — وذلك باختيار كتب للقراءة مؤلفة من نصوص عربية مختلفة ، يتمرن الطالب الإعدادي حين القراءة في الدرس على أن ينطق المفردات والمركبات نطقاً صحيحاً ، ويستعين بفهم النص على معرفة مواقع الكلمات وحركات حروفها الأخيرة ، فاذا لفظ كلمة مرفوعة سأله المعلم عن سبب الرفع ، وعن سبب نصبها أو جرها إن نطق بالكلمة منصوبةً أو مجرورة ، كما يسأله عن العوامل وعمل كل منها ، وبذلك

(١) ورئيس القسم العربي هذا هو السير طوملس آرنولد كما جاء في رسالة الأستاذ اسحق موسى الحسيني : (رأي في تدريس اللغة العربية) .

ترسخ القواعد التي درسها في ذهنه ، وتقوى فيه ملكة القراءة الصحيحة ، وبذلك تتوحّد لهجات أبناء الصف إن كانوا من مناطق مختلفة ، ويتعلمون كثيراً من الألفاظ والجمل القويمة التركيب ، ويحسن بالمعلم البارع اتخاذ هذه الطريقة في الصفوف الإعدادية والثانوية ولا يكلمهم فيها إلا بجمل صحيحة وألفاظ فصيحة ، وأفضل طريقة لتعليم العربية للمبتدئين هي طريقة المحادثة التي سنبين مزاياها ، وبما ذكرناه يتضح لنا جلياً أن تلك الصعوبة البالغ فيها مردّها إلى جهل المعلم بأساليب التدريس ، وإلى سوء تأليف كتب المبادئ التي يتعاور قواعدها النحوية كثير من التجريد والتعقيد ، فليست تلك الصعوبة إذن من طبيعة اللسان العربي المبين .

أسباب سهولة الإعراب . — فمن أسباب صعوبة الإعراب في لغتنا أن لا يوجب المعلم على طلابه حينما يتعرّضون لإعراب آية من الكتاب أو بيت من الشعر أو قول من النثر ، أن يهتموا بادئ الرأي بفهم معنى ما يعربونه فهماً صحيحاً ، ولا يسرعوا في الإعراب قبل ذلك بالعبارات التي اعتادوا أن يمضغوها ولا يفهموها ، فكثيراً ما زلّ قدم المعرب بهذا الاسراع ، وقد نبّه لذلك الامام ابن هشام في مغنيه حين ذكر الجهات التي يدخل الاعتراض بها على المعرب ، فأكد أن الجهة الأولى أن يراعي المعرب ما يقتضيه ظاهر صناعة الإعراب ، ولا يراعي المعنى ، قال : وكثيراً ما تزل الأقدام بسبب ذلك ، وذكر لذلك أمثلة جمة منها ما حكاه بعضهم أنه سمع شيخاً يعرب لتلميذه (قيّماً) من قوله تعالى : ﴿ ولم يجعل له عوجاً ، قيّماً ﴾ (١)

(١) من الآية الأولى والثانية من سورة الكهف وهما : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجاً ، قيّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا » .

فجعل (قيماً) صفةً لـ (عوجاً) ، قال ابن هشام فقلت له : يا هذا ، كيف يكون العوج قيما ! وترّحمت على من وقف من القراء على ألف التنوين في (عوجا) وقفة لطيفة . دفعاً لهذا التوهم ، وإنما (قيما) حال من اسم محذوف هو وعامله أي : أنزله قيماً .

إعجاب المستشرقين بالإعراب . — ومن شيوخ المستشرقين مَن جعل الإعرابَ من مزايا اللغة العربية ، وهو الأستاذ ماسينيون الذي قال في بحث له بمجلة مجمع مصر اللغوي [١] ما نصه : « إن اختراع الإعراب ليس كما يزعم أكثر المستشرقين اختراعاً باطلاً ، وإنما هو توحد صحيح وربط بين الأسماء والأفعال المضارعة والجمل التي لها محل من الإعراب ، وهذا للغة العربية فضل عظيم لا يمكن إبقاؤه إلا بالاستمساك بالكتابة العربية ، إلى أن يقول : وقد ذكرت كيف آمنت بعبقرية النحو ، ورفضت مذهب تغيير الكتابة العربية بحروف لاتينية . »

اختلاف لغة الخطاب عن لغة الكتاب . — على أن من الأسباب الأساسية لصعوبة تعليم العربية اختلاف اللغة العامية عن اللغة الفصحى ، والمعلمون البارعون يبذلون جهادهم للتغلب على هذه العقبة بتمرين التلاميذ على التكلم بجمل صحيحة وألفاظ فصيحة بطريقة المحادثة والاستجواب ، ولا يكلمهم المعلم ولا يلقي عليهم الدرس إلا باللغة الفصحى ، لأن التلميذ الذي لا يسمع من معلمه إلا التراكيب الصحيحة والمفردات العربية يسهل عليه التخاطبُ بمثل ما اعتاد سماعه ، كما كان الصبيّ العربي في صدر الإسلام

(١) المجلد التاسع ص ٥٧ .

لا يتكلم إلا بالفصحى التي يسمعها في منزله من والديه ، ومن أقربائه وأترابه في بيئته ومرباه ، فهو يعرب بالسليقة العربية فيرفع بطبعه الفاعل الذي يفعل الفعل ، وينصب المفعول ويجر الأسماء بعد حروف الجر وعند الإضافة ، ذلك أن الصبيان يتعلمون بآذانهم قبل ألسنتهم ، وانطباعهم على لغة الأسماع يسهل عليهم تركيب الجمل العربية القويمة ، وييسّر عليهم فهم قواعد اللغة المستنبطة من الكلام العربي القويم ، وهو ما يسرعون معه في فهم القواعد لمشابهتها لأصول كلامهم الذي به يتخاطبون .

وذلك مما يوجب علينا أن نعوّد أبناءنا التكلم بالفصحى ، وأن لا نكلمهم في منازلنا ، إن استطعنا ، إلاّ بالفصحى ، ويكثر المعلم من استجوابهم بالفصحى ، وهو مما يوجب علينا أن لا نشرع في تعليمهم لقواعد لغتهم إلا بعد بضع سنين من التمرين الشفهي والمحادثة بلغة صحيحة ، والطالب الأجنبي والمستشرق يجب أن يتعلم في كتب مؤلّفة على نمط الكتب التي تعلّم بها لغته ، وأن لا يشرع في تعلم قواعد النحو والصرف إلا بعد أن تقوى لغته العربية بطريقة المحادثة ويستطيع الإجابة بالجمل العربية الصحيحة ، وطريقة المحادثة هذه هي لتعلم اللغات الطريقة الطبيعية والسليقيّة المثلى .

وبهـذه الطريقة نرى أن الصبيّ العربيّ الذي اكتسب ملكة الإفصاح عما في قلبه ، يستطيع الانتباه إلى الجمل غير القويمة ، شأن ذلك الأعرابيّ الذي كان إذا كلّموه في القرى بلغة غير صحيحة مجّها فوه ، وردّها بسليقته العربية ، ولسان حاله يقول للنحويّ الذي لا يُبين :

ولستُ بنحويٍّ يَلوكُ لسانَه ولكن سَليقيٌّ أقولُ فأُعربُ

التنوخي



الأسلوب هو الرجل

من الأقوال التي انتقلت إلينا من الأدب الفرنسي قول « بوفون » : الأسلوب هو الرجل ، وقد فُسّر هذا القول على غير وجهه ، سواء أكان هذا التفسير صادراً عن بعض أدباء فرنسة أم كان صادراً عن بعض أدباء العرب في هذا العصر ، ولا بأس بتوضيح فكرة « بوفون » بعد يسيرٍ من المقدمة .

ظهر « بوفون » في القرن الثامن عشر ، واشتهر بكتابه « التاريخ الطبيعي » وبخطابه في المجمع العلمي الفرنسي وموضوعه « الأسلوب » ، أمّا تاريخه الطبيعي فلا أتعرض له في هذا المقام ، فهو يدخل في باب العلم ، وحسبي الإشارة إلى أن السبيل القويم إلى تقدّم العلم في نظر « بوفون » إنما هو الوصف ، فالعالم يلزمه أن يرى كثيراً وأن يصف بعد الرؤية ما ظهر من الخصائص وما بطن ، وأن يعمل على هذا النحو تاريخ النوع .

غرضي في هذا المقال الإلماع إلى خطاب « بوفون » : الأسلوب ، وعلى وجهٍ أصح إلى جملةٍ من هذا الخطاب ، وأرى أن نعلم تعريف « بوفون » للأسلوب ، فقد عرّفه على هذا الشكل : الأسلوب إنما هو الترتيب الذي يدخله المرء على أفكاره ، والحركة التي يجعلها في هذه الأفكار ، وهو يعني بالحركة السرعة الناشئة عن تسلسل الأفكار المنظّم .

ولكن ما هي جملة « بوفون » التي يدور عليها هذا المقال ؟ قال « بوفون » : الأسلوب هو الرجل ، وقد ظنّ بعض الأدباء أن « بوفون أراد بهذا القول

أن الأسلوب هو الذي يرسم خصال المرء وسجاياه ، فهو المرآة التي ترينا باطن الإنسان ، فلا نمرّ بأسلوب كاتب من الكتّاب إلاّ مررنا خلال هذا الأسلوب بكل دقيق وجليل من طبائع الكاتب وشيمه وما شاكل ذلك .

قد يكون في هذا التفسير وجه من الصواب في بعض الحالات ، فمن أقوال « موروا » في هذا المعنى : كل أثر من آثار الفن يكشف الغطاء في وجه من الوجوه عن بواطن روح صاحبه ... أجل ، قد يكون الأسلوب مرآة الرجل ، فالكاتب الرقيق القلب قد تظهر رقته على بعض كتابته ، والشاعر الغليظ الروح قد تبين غلظته في شعره ، إلاّ أن « بوفون » لمّا قذف بعبارته المشهورة لم تكن غايته أن يقول إن الأسلوب هو الذي يرسم خصال المرء وسجاياه ، وإنما الذي أراد أن يوضّحه إنما هو هذا الأمر : في كل أثر من الآثار الفنية ، الصيغة والتأليف هما وحدهما من صنع الرجل ، من داخله ، أمّا الأفكار فقد تأتيه من الخارج ، وقد عبَّر عن الأفكار بلفظة الأشياء فقال : هذه الأشياء إنما هي من خارج الإنسان ، الأسلوب هو الرجل ذاته ، معنى هذا أن المؤلف تأتيه أفكاره من خارج نفسه ، ولكنه هو الذي يصوغها ويؤلفها ، فالصيغة والتأليف من عنده ، ودفعاً لهذا اللبس المستفيض اقترح بعض نقّاد فرنسة أن تُقرأ عبارة « بوفون » على هذا الوجه : الأسلوب إنما هو من الرجل نفسه ، بدلاً من القول : الأسلوب هو الرجل ، وأي بأسٍ بعد هذا كله بأن نقول : الرجل هو الأسلوب ؟

وقبل النظر في قول « بوفون » لا أرى محذوراً في إمضاء القول في الأسلوب ، فاذا قلنا : الأسلوب ، فانّا نعني بذلك المذهب الذي يذهبه كل واحدٍ منّا في التأليف بين ألفاظه ، فالأسلوب لا يراد به اللفظ وحده ،

وإنما يراد به التأليف بين الألفاظ ، يراد به تنسيق هذه الألفاظ وترتيبها ، إذ أن الأسلوب يختلف عن الألفاظ ، فقد يجوز أن يستعمل مؤلف من المؤلفين ألفاظاً صحيحة وأن يدخل الضيم على أسلوبه ، فيكون هذا الأسلوب جافاً ، غير مطبوع ، وعلى هذا فان الذين يجعلون للأسلوب المقام الأول يفرّقون بين الأسلوب واللفظ ، فالأسلوب شيء واللفظ شيء آخر .

وكما أن الأسلوب يختلف عن الألفاظ فقد يختلف عن العلم ، فقد نجد علماء ملأ العلم أذهانهم ولكنهم في ميدان الكتابة نجدهم كتّاباً غير مجوّدين ، فقد نمت فيهم ملكات العقل وصحّة التمييز والذاكرة ، ولم ينمُ فيهم الحسّ والخيال ، فنشأ عن ذلك أن أسلوبهم غير جذّاب ، لا لطف فيه ولا حرارة .

وقد تختلف الأساليب على اختلاف الرجال والأمم ، فالرجل صاحب الفهم الثاقب أسلوبه سريع ، وجيز ، ملم ، والرجل الذي يغلب عليه الخيال له تعابير برّاقة ، مصوّرة ، والرجل الذي يعوزه التمييز لا تربط جمله وأجزاء تآليفه صلة من الصلات .

وهذا الاختلاف نشهده في الأمم نفسها ، فأهل الشرق ، وهم أصحاب خيال ، قد حمّلوا أساليبهم في كل زمنٍ من الأزمان صوراً قويّة تظهر عليها آثار التلوّ ، وأهل أثينة ، وهم شعب مصقول ، ليّن ، قد جعلوا لأنفسهم أسلوباً واضحاً ، صافياً ، أمّا اليونانيون في آسية ، وهم أصحاب نفخة وبهرجة ، فقد كان لهم أسلوب فيه ثرثرة وانتفاخ .

فلندخل الآن في موضوعنا ، ولننظر في الذي ذهب إليه « بوفون » من أن المعاني تأتي من خارج الإنسان ، وأن الصيغة والتأليف إنما هما وحدهما من صنعه .

إننا نجد في الأدب الفرنسي أن « ڤولتير » لم يكن مبدعاً من المبدعين ، أي لم يأت بشيء جديد من الأفكار والمعاني ، فقد كان لا يستطيع أن يسلك مسلكاً إلاّ إذا كان هذا المسلك مُمهّداً له ، فقد اغتصب أفكار غيره وجعلها أفكاره الخاصّة ، جعلها ملكه الخاص ، فقد قالوا إنه لم يكتب بالفرنسية كاتب أحسن من « ڤولتير » ، إن جمله قصيرة ، سريعة ، وعبارته واضحة ، وأوضح صفات أسلوبه البساطة ، إنه يستخدم لغة كل الناس في أسلوب لا يفوقه أسلوب من حيث الطبع والسهولة .

إننا نجد في هذا الوصف الذي تشتمل عليه بعض كتب الأدب الفرنسي ما يؤيد قول « بوفون » من أن الأفكار تأتي من الخارج ، أمّا صيغتها وتأليفها فانها من صنع الرجل نفسه ، فقد نهب « ڤولتير » أفكار غيره ، ولكنه استطاع أن يجعلها ملكه الخاص بفضل أسلوبه وبفضل مزايا هذا الأسلوب التي تقدّمت الإشارة إليها .

ولقد قال بعض نقّاد الانكليز في كاتبهم العظيم « برنارد شو » ما يقرب من قول الفرنسيين في كاتبهم « ڤولتير » ، فقد كان « شو » يعرض أفكاره على شكل بديع ، وإن لم يكن مبدعاً لهذه الأفكار على الرغم من عبقريته وقوة حجته .

يُستنبط من كل ما تقدم أن الشأن كل الشأن إنما هو للأسلوب ، أي لصيغة الأفكار وتأليف المعاني ؛ وقد ذهب هذا المذهب كبار الكتّاب في فرنسة ، أمثال ڤولتير » و « فرانس » و « فاكه » و « موروا » وغيرهم ، فمن كلام « ڤولتير » أن الأشياء تؤثر فينا في الأغلب من نواحي أساليبها ، أي من نواحي القوالب التي تصبّ فيها ؛ لأن للناس أفكاراً واحدة بوجه التقريب ، ولكن الأسلوب هو الذي يفرّق بين كاتب وكاتب .

ومن كلام « فرانس » : ليس الفكر ملكاً لمن يبدعه ، وإنما هو ملك الذي يثبّته في الأذهان .

ومن كلام « فاكه » أن الذي يخلّد الكاتب إنما هو حسن الأسلوب .

وقريب من هذا الرأي قول « موروا » : الصيغة في أي أثرٍ من آثار الفن إنما هي سرٌّ من أسرار البقاء .

أمّا كتّاب العرب الذين هم على هذا الرأي فيأتي على رأسهم إمام البلاغة ، وأعني به الجاحظ الذي قال :

« المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولته وسهولة المخرج وفي صحة الطبع ، وجودة السبك » .

وقد تصدّى أستاذ فاضل من أساتذة جامعة القاهرة لقول الجاحظ ، وآخذه بهذا القول ، ولامه على استخفافه بمقادير المعاني وتفضيل الألفاظ عليها ، ورأى أن الذي حمل الجاحظ على أن ينزع هذه النزعة إنما هو أمر ديني ، فقد كان يرى أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه ، وهذا ما حمله على تعظيم الألفاظ والتهاون بالمعاني . إني لا أريد أن يتشعّب الموضوع حتى لا يتعقّد ، فلا أرى مناظرة الأستاذ الفاضل في هذا المنى ، فاني أعتقد أنهم خرجوا بكلام الجاحظ عن طبيعته ، إنه لما قال : المعاني مطروحة في الطريق ، لم يختلف في قوله عن قول « بوفون » : الأفكار تأتي من الخارج ، فالجاحظ لم يستخف بالمعاني وإنما عبّر عن سهولة الحصول عليها ، فكأنها ماثلة لكل عين ، فاذا مرّ أحدنا في الطريق بفقير رث الثياب ، يكاد ينسلخ لحمه عن عظمه من الجوع ، أفلا نجد في هذا المشهد معنى من المعاني الدالّة على البؤس ؟ إلاّ أن تمثيل هذا المعنى للأذهان إنما هو من عمل

الأسلوب ، أي من عمل الصيغة والتأليف ، من عمل السبك وحسن النظم ؛ وكتب الجاحظ تدلّ على محاسن هذه الصيغة والسبك والنظم وما ماثلها ، إنها تدلُّ على براعة الأسلوب ، ومعاذ الله أن تتهمه بالإقلال من مقادير المعاني والأفكار وتآليفه كلّها قد غصّت بالمعاني والأفكار على اختلاف وجوهها ، في كل باب من أبواب الفلسفة والأخلاق والتربية والاجتماع والعلم وما شابه ذلك ؛ فاذا كان الجاحظ لم يتهاون بالأسلوب فهو لم يتهاون بالمعاني ، إلاّ أنه كان ماهراً كلّ الماهر ، يعرف كيف يناسب بين ألفاظه ومعانيه ، فهو كالخيّاط الحاذق الذي يفصّل الأثواب على مقادير الأجسام ، ولست في حاجة إلى المجيء بالبرهانات الصادقة على اهتمامه بالمعاني والألفاظ معاً ، وفي كتابه : البيان والتبيين كثير من الشواهد على هذا الأمر ، إلاّ أن المقام لا يتسع للإفاضة في هذا الموضوع ، فلماذا نأخذ كلام الجاحظ على ظواهره ولا نتعمق قليلاً في بواطنه ؟

لقد تباينت نظرات نقّاد العرب في شأن المعاني وصيغتها أمثال ابن قتيبة والعسكري وابن رشيق وابن الأثير ، إلاّ أن لهذا الموضوع مقاماً يختلف عن موضوعنا ، أصل الموضوع توضيح فكرة « بوفون » : المعاني تأتي من الخارج ، أمّا نحن فنملك صيغتها وتأليفها ؛ فالأسلوب هو من عندنا ، والمعاني من خارجنا ، فليس موضوعنا تفضيل المعنى على اللفظ أو تفضيل اللفظ على المعنى حتى ندخل في هذه التفاصيل .

لقد دفعت إغارة الشاعر أو الكاتب على أفكار غيره بعض نقّادنا في القديم إلى نسبة السرقة إلى هذا الشاعر أو هذا الكاتب ، على أن العرب قد تشترك في طائفة من الألفاظ والمعاني ؛ وقد عمل الآمدي كتاباً في هذا الموضوع ، فقد جاء في معجم الأدباء أن له كتاب الخاص والمشترك ، تكلم فيه على الفرق بين الألفاظ والمعاني التي تشترك فيها العرب ولا ينسب

مستعملا إلى السرقة وإن كان قد سبق إليها ، وبين الخاص الذي ابتدعه الشعراء وتفرّدوا به ، وما قصَّر الآمدي في إيضاح ذلك وتحقيقه ؛ وقد فطن ياقوت إلى هذه المسألة فقال : أكثر ما ينسب إلى الشعراء من السرقات إنما هو من باب توارد الخواطر .

ولا ريب في أن الذي لا يدخل في باب توارد الخواطر إنما هو أن يغير المؤلف على أفكار غيره ، فينهبها بألفاظها نفسها ، فهذا يدخل في باب السرقات ، أمّا إذا أغار المؤلف على أفكار غيره ، كما فعل « فولتير » فأفصح عنها بأسلوبه الخاص ، بأسلوب يجمع خصائص البلاغة ، فهذه الإغارة تأتي مؤيدة لقول « بوفون » الأسلوب هو الرجل ، أو بعبارة أوضح إذا جاز لي هذا التصرف : الرجل هو الأسلوب .

شفيق جبري



الاصطلاحات الفلسفية

-٢٦-

الرواقية

في الفرنسية	Stoïcisme

في الانكليزية	Stoicism

مذهب زينون (Zénon) وكليانت (Cléanthe) وكريزيب (Chrysippe) وسنكا ، وابكتاتوس ، ومرقص أورليوس ، وغيرهم من فلاسفة اليونان والرومان ، وقد سموا بالرواقيين لأن (زينون) الفيلسوف صاحب هذا المذهب كان يعلم تلاميذه في رواق .

والرواقي (Stoïcien) يرى أن السعادة في الفضيلة ، وان الحكيم لا يبالي بما تنفعل به نفسه من لذة وألم ، حتى ان عدم مبالاته بالألم قد يبلغ درجة النفي والإنكار . وكل من كان رواقياً كان مطمئن النفس ، رابط الجأش ، صابراً لا يفرح بشيء ، ولا يحزن على فقد شيء ، ولا يبالي بما يصيبه من بؤس وشقاء . وإذا كان الرواقي يعيش عيشة راضية مرضية فمرد ذلك إلى اعتقاده أن الإنسان جزء من الكون ، وان غايته أن يجعل سلوكه مطابقاً لما تمليه عليه الطبيعة ، منصرفاً عن العواطف والأفكار التي تحيد عن جادة القانون الطبيعي .

ومعظم الرواقيين يرون أن المادة تتجزأ إلى غير نهاية ، وأن النار أصل الوجود ، وأنها توحّد أجزاء الجسم ، وتربط أجزاء العالم بعضها ببعض ، وان العالم لا ينفصل عن الله .

زبدة الشيء

في الفرنسية	Quintessence
في الانكليزية	Quintessence

زبدة الشيء خياره وخلاصته . وأصله في اللاتينية (Quinta essentia) أي العنصر الخامس ، أو الجوهر الخامس ، لأن العناصر عند فلاسفة اليونان آمبدقلوس ، وآرسطو وغيرهما) أربعة ، وهي التراب والماء والهواء والنار . أما السماء فهي مكونة من عنصر آخر ، وهو أعلى من العناصر الأربعة ومتقدم عليها ، ويسمّى هذا العنصر السماوي بالعنصر الخامس .

ويطلق لفظ (Quintessence) في أيامنا هذه على زبدة الشيء أي على أعمق ما فيه . فزبدة الشيء تمثل إذن خواصه الذاتية ، وتطلق على ما فيه من عيوب ومزايا خالصة مقومة له ، تقول زبدة الكتاب خلاصته ، وزبدة الأخلاق خيارها .

الزمان

في الفرنسية	Temps
في الانكليزية	Time
في اللاتينية	Tempus , Temporis
في اليونانية	Chronos

١ — الزمان الوقت كثيره وقليله . وهو المدة الواقعة بين حادثتين أولاهما سابقة وثانيتها لاحقة ، ومنه زمان الحصاد ، وزمان الشباب ، وزمان الجاهلية . وجمع الزمان أزمنة ، تقول : السنة أربعة أزمنة ، أي أقسام وفصول ، وتقول أيضاً : الأزمنة القديمة ، والأزمنة الحديثة .

٢ — والزمان في أساطير اليونانيين هو الإله الذي ينضج الأشياء ويوصلها إلى نهايتها .

٣ — والفرق بين الزمان والدهر والسرمد ان نسبة المتغير إلى المتغير هي الزمان ، ونسبة الثابت إلى المتغير هي الدهر ، ونسبة الثابت إلى الثابت هي السرمد .

٤ — لقد زعم (ارسطو) أن الزمان مقدار حركة الفلك الأعظم ، وذلك لأن الزمان متفاوت زيادة ونقصاناً ، فهو إذن كم ، وليس كماً منفصلاً لامتناع الجوهر الفرد ، فلا يكون مركباً من آنات متتالية ، فهو إذن كم متصل ، إلا أنه غير قار ، فهو إذن مقدار لهيئة غير قارة ، وهي الحركة .

٥ — وقد أخذ معظم فلاسفة العرب بهـذا المعنى الارسطي ، إلا أن (المتكلمين) زعموا أن الزمان أمر اعتباري موهوم . وعرفه الأشاعرة بقولهم إنه متجدد معلوم يقدّر به متجدد آخر موهوم . وقال (الرازي) في المباحث المشرقية إن للزمان كالحركة معنيين : أحدهما أمر موجود في الخارج غير منقسم وهو مطابق للحركة ، وثانيهما أمر متوهم لاوجود له في الخارج .

٦ — والزمان عند بعض الفلاسفة إما ماضٍ أو مستقبل . وليس عندهم زمان حاضر ، بل الحاضر هو الآن الموهوم المشترك بين الماضي والمستقبل .

٧ — ومن معاني الزمان في الفلسفة الحديثة انه وسط لا نهائي غير محدود ، شبيه بالمكان ، تجري فيه جميع الحوادث فيكون لكل منها تاريخ ، ويكون هو نفسه مدركاً بالعقل إدراكاً غير منقسم سواء كان موجوداً بنفسه كما ذهب إلى ذلك (نيوتن) و (كلارك) ، أو كان موجوداً في الذهن فقط

كما ذهب إلى ذلك (ليبنيز) و (كانت) . فمما قاله (ليبنيز) : الزمان تصور مثالي ، ومما قاله (كانت) إن الزمان صورة عقلية محيطة بالأشياء الحدسية ، وإن المقادير المحدودة من الزمان ليست سوى أجزاء لزمان لا نهائي واحد . فكأن الزمان إطار محيط بالأشياء إلا أنه ذو بعد واحد وهو الطول . وأكثر العلماء يرمزون إلى الزمان بخط مستقيم غير محدود كل نقطة من نقاطه مجانسة للأخرى .

٨ — والزمان عند بعض المحدثين هو التغير المتصل الذي يجعل الحاضر ماضياً . قال (هنري برغسون) : « العقل ينفر من كل شيء سيّال ، ويجمد كل ما يتناوله . ونحن لا نفكر في الزمان الحقيقي بل نحيا فيه ، لأن الحياة تطغى على العقل من كل جانب » (التطور المبدع ، ص : ٥٠) . فالزمان الحقيقي . وهو الديمومة (Durée) مختلف إذن عن الزمان الرياضي أو الزمان العلمي ، وهو دفعة سيالة ، أو مجرى متحرك ، أو تيار مستمر يجري أمام المدرك الواقف على شاطئ الحاضر ، ومنه قولهم مجرى الزمان ، وسير الزمان

٩ — ومعنى ذلك أن معنى الزمان قد يكون مرادفاً لمعنى الديمومة أو يكون مختلفاً عنه فاذا كان مرادفاً له دل على الوسط الذي تجري فيه الأفعال والحوادث ، كما في قولنا زمان سقوط الأجسام ، أو زمان الذوبان ، أو زمان الحالات النفسية ، وإذا كان مختلفاً عنه دل على الزمان المطلق أو الزمان المجرد .

١٠ — والزمان الوجودي هو الزمان الذاتي أو الزمان الوجداني المصبوغ بالانفعال كزمان الانتظار ، أو زمان الأمل . وهذا الزمان ليس كمّاً ، وإنما هو كيف لا يقبل القياس على خلاف الزمان الفاعل الذي يطلق على التأثير في الأشياء فهو موضوعي وكمي وقابل للقياس .

الزماني

في الفرنسية Temporel

في الانكليزية Temporal

الزماني هو المنسوب إلى الزمان ، أو الموجود في الزمان ، وهو مضاد للأبدي لأن الزماني يدل على المتغير ، والأبدي يدل على الثابت . ونسبة الزماني إلى الأبدي كنسبة المتناهي إلى اللامتناهي .

وفرقوا بين الزماني والأبدي أيضاً بقولهم إن الزماني متعلق بالحياة المادية ، على حين أن الأبدي متعلق بالحياة الروحية . ومن قولهم السلطة الزمنية ، والسلطة الروحية .

والزمانية صفة ما كان زمانياً ، وهي عند الوجوديين (Existentialistes) حركة تدفع المستقبل إلى الماضي حتى توصله إلى الموت ، أي إلى لحظة لا مستقبل بعدها .

ويطلق لفظ اللازماني (Intemporel) على ما كان ثابتاً خارج الزمان. لا تغيره صروف الدهر ، ولا تقلبات الحدثان .

الزمان المحلّي

في الفرنسية Temps local

الزمان المحلي مضاد للزمان المطلق (Temps absolu) ، إلا أن القائلين بالنسبية ينكرون الزمان المطلق لزعمهم انه لا يوجد مقياس واحد للزمان ينطبق على منظومات مختلفة الحركات . وكل معية (Simultanéité) بين الحوادث الواقعة في أمكنة مختلفة فهي عندهم معية نسبية . بل الحادثتان قد

تكونان موجودتين معاً بالنسبة إلى راصد ، وغير موجودتين معاً بالنسبة إلى آخر لاختلاف المكان الذي يرصدانها منه . ولكل منظومة زمانها الخاص بها ، أعني زمانها المحلي ، وهو وحده حقيقي .

وبينما نحن نجد (سبنسر) يرجع المكان إلى الزمان نجد (هنري برغسون) يرجع الزمان المتجانس (Temps homogène) - وهو ضد الديمومة - إلى المكان . أما علماء النسبية (Relativité) فيجمعون الزمان والمكان في مفهوم واحد ، وهو الزمان المكاني (Le temps - espace) .

الزمان الخاص

في الفرنسية Temps propre

يطلق اصطلاح الزمان الخاص على الزمان الداخل في العلوم الفيزيائية ولا سيما في مذهب النسبية . ويرجع القول بالزمان الخاص إلى استحالة نسبة حوادث الكون إلى زمان واحد (كالزمان الذي ذهب إليه نيوتون وكانت) ، لأن لكل قسم من المادة زمانه الخاص به . وغاية ما يستطيعه العالِم أن يقارن بين الأزمنة المختلفة الخاصة بقسم قسم من المواد المتحركة .

زمان الانعكاس

في الفرنسية Temps de réaction

في الانكليزية Reaction - time

زمان الانعكاس هو المدة الواقعة بين المؤثر ورد الفعل . وله عدة أنواع كزمان الانعكاس البسيط ، أو زمان الانعكاس لمؤثرين مختلفي الشدة ، أو لمؤثرين متحدين ، أو الإجابة بإشارة معينة عن أنواع مختلفة من المؤثرات .

الزهد

في الفرنسية Ascétisme

في الانكليزية Ascetism

Asceticism

أصل (Ascétisme) في اليونانية (Askesis) ومعناه التمرين والرياضة . والرياضة في الاصطلاح هي استبدال الحالة المحمودة بالحالة المذمومة أي الإعراض عن الشهوات .

أما في اللغة العربية فالزهد ترك الميل إلى الشيء ، تقول زهد في الشيء زهداً وزهادة أعرض عنه وتركه لاحتقاره له أو لتحرجه منه أو لقلته ، وزهد في الدنيا ترك حلالها مخافة حسابه ، وحرامها مخافه عقابه . لذلك قيل الزهد نوعان : أحدهما الزهد في الحرام ، والآخر الزهد في الحلال . فإذا كان في الحرام كان فرضاً ، وإذا كان في الحلال كان فضلاً .

والزهد في اصطلاح أهل الحقيقة هو بغض الدنيا والإعراض عن شهواتها . وهذا المعنى قريب من معنى التقشف لأن التقشف ترك الترفه والنعمة ، ومحاربة النفس في سبيل الوصول إلى الكمال الأخلاقي .

والزاهد من ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ، أي لا يفرح بشيء منها ، ولا يحزن على فقده ، ولا يأخذ منها إلا ما يعينه على طاعة ربه مع دوام الذكر والمراقبة ، والتفكر في الآخرة . لذلك قيل : الزهد ترك راحة الدنيا طلباً للآخرة ولذلك قال الإمام علي بن أبي طالب : من زهد في الدنيا هانت عليه الآخرة .

وأعلى درجات الزهد الزهد فيما سوى الله تعالى من دنيا وجنة وغيرهما إذ ليس بصاحب هذا الزهد إلا الوصول إليه تعالى والقرب منه . لذلك قيل : الزهد ترك ما يشغلك عن الله .

ويطلق الزهد أو التقشف في الفلسفة الحديثة على المذهب الأخلاقي الذي لا يحسب للذّات والآلام حساباً ، ويعرض عن إشباع الغرائز الحيوانيـــة والنزعات الحسية والطبيعية . وجميع مذاهب الأخلاق تقول بوجوب سيطرة الإرادة على الدوافع التلقائية ، إلا أن هذه السيطرة لا تصبح زهداً أو تقشفاً إلا إذا أفرط صاحبها فيها .

وكثيراً ما يكون الزهد نتيجة اتجاه ديني أو أخلاقي أو يكون المقصود به الحصول على الكمال الذاتي بممارسة الرياضة الروحية .

وإذا اشتد الزهد وصحبه تلذذ بالألم لذاته أصبح انحرافاً عن الجادة أو مرضاً في النفس .

الزواج

في الفرنسية Mariage

في الانكليزية Marriage

الزواج هو الاقتران الشرعي بين الرجل والمرأة لتكوين أسرة جديدة . وتختلف شروط عقده وفسخه والحقوق والواجبات المترتبة عليه باختلاف الجماعات . فإما أن يكون للرجل الواحد امرأة واحدة كما في الزواج الفردي (Monogamie) أو عدة نساء كما في نظام تعدد الزوجات (Polygamie) ، وإما أن يكون للمرأة الواحدة عدة رجال كما في نظام تعـــدد الأزواج

(Polyandrie) . وقد يتحتم على الرجل أن يختار زوجته من عشيرته وأهله كما في نظام الزواج الداخلي (Endogamie) أو يتحتم عليه اختيارها من خارج عشيرته كما في نظام الزواج الخارجي (Exogamie) . وهذا النوع الأخير شائع في نظام الطوطمية (Totémisme) .

والفـــرق بين الزواج الديني (Mariage religieux) والزواج المدني (Mariage civil) أن الأول تابع للسلطات الدينية على حين أن الثاني تابع للسلطات المدنية .

وقد يبنى الزواج على العاطفة فيكون نتيجة حب متبادل بين الرجل والمرأة أو يبنى على العقل فيكون نتيجة تفكير كل من الزوجين في مصلحته . ولكن الزواج الكامل يبنى على العاطفة والعقل معاً لأنه إذا خلا من الحب أو من الشروط المادية والاجتماعية التي تصونه لم ينشئ أسرة سعيدة . فليس الزواج إذن وسيلة لإشباع الغريزة الجنسية وإنما هو عقد اجتماعي لتكوين أسرة يشعر فيها كل من الرجل والمرأة بالطمأنينة الروحية .

من أجل هذا قيل يجب على الرجل أن يحب امرأته كما يحب نفسه حتى يصبح الاثنان شخصاً واحداً .

الزي

في الفرنسية Mode

في الانكليزية Fashion

الزي الهيئة والمنظر واللباس ، يقال : أقبل بزي العرب أي بلباسهم . ويطلق الزي مجازاً على مجموع الأحوال والعادات والآراء المنتشرة في

المجتمع ، تقول تزيّا بعادات الأوربيين ، وأقام مأدبة على زي الأمريكيين ، ونظم الشعر على زي الرمزيين ، وفلان يتزيا بالهوى أي يتظاهر به ويدعيه .

وفرق الفيلسوف تارد (Tarde) بين مفهوم الزي ومفهوم العادة الاجتماعية بقوله : إن الزي يقوم على تقليد المعاصرين ، على حين أن العادة الاجتماعية تقوم على تقليد السابقين .

السبب

في الفرنسية Cause , motif , raison

في الانكليزية Cause , motive , reason

١ — السبب الحبل ، وما يتوصل به إلى غيره ، والجمع أسباب ، وأسباب السماء مراقيها أو نواحيها أو أبوابها .

والفرق بين السبب والشرط أن السبب هو ما يكون وجود الشيء موقوفاً عليه كالوقت للصلاة ، على حين أن الشرط هو ما يتوقف وجود الشيء عليه كالوضوء للصلاة . وقيل أيضاً إن السبب ما يلزم من عدمه العدم ومن وجوده الوجود ، على حين أن الشرط ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده لذاته وجود ولا عدم .

والسبب مرادف للعلة (Cause) ، إلا أن النظار يفرقون بينها من وجهين : أحدها أن السبب ما يحصل الشيء عنده لا به ، والعلة ما يحصل به . والثاني أن المعلول ينشأ عن علته بلا واسطة بينها ولا شرط على حين أن السبب يفضي إلى الشيء بواسطة أو بوسائط . ولذلك يتراخي الحكم عنه حتى توجد

الشرائط وتنتفي الموانع . أما العلة فلا يتراخى الحكم عنها ، إذ لا شرط لها ، بل متى وجدت أوجبت وجود المعلول . ومعنى ذلك أن السبب أعم من العلة . لأن كل علة سبب .

ويقسم السبب إلى تام وغير تام ، فالتام هو الذي يوجد المسبب بوجوده ، وهو مرادف للعلة . وغير التام هو الذي يتوقف وجود المسبب عليه ، لكن المسبب لا يوجد بوجود السبب وحده (الجرجاني) .

والسبب عند الأصوليين ما كان طريقاً للوصول إلى الحكم من غير تأثير فيه ولا توقف للحكم عليه .

٢ — والسبب في اصطلاحنا ثلاثة معان :

آ — السبب هو العامل في وجود الشيء ، ويطلق على كل حالة نفسية شعورية كانت أو غير شعورية تؤثر في حدوث الفعل الإرادي . وهو قسمان عقلي وانفعالي ومن عادة العلماء المحدثين أن يسموا الأول عاملاً (motif) والثاني دافعاً أو باعثاً (mobile) .

ب — السبب هو المبدأ الذي يفسر الشيء تفسيراً نظرياً . وهو ما يتوصل به إلى غيره أو هو كما قال بعض الفلاسفة ما يحتاج إليه الشيء في ماهيته أو في وجوده لذلك سمي سبباً عقلياً (Raison) أو مبدأ (Principe) ، ومنه قولهم سبب الوجود (Raison d'être) .

ج — والسبب عند علماء الأخلاق ما يفضي إلى الفعل ويسوغه ، وهو مرادف للحق ، تقول إن للقلب حقوقه أي أسبابه . وتقول فلان يبغضني بغير سبب أي بغير حق . وقد يطلق السبب على الحجة التي يعتمد عليها في إثبات الحق حتى لو كانت غير صادقة . فيكون السبب بهذا المعنى

قوياً أو ضعيفاً ومنه قولهم إن الأسباب التي يحتج بها الأقوياء أوقع في النفس من الأسباب التي يحتج بها الضعفاء .

٣ — والسببي (Causal) هو المنسوب إلى السبب ، ويطلق على ما يتعلق بالسبب أو يختص به أو يقومه .

٤ — والسببية (Causalité) هي العلاقة بين السبب والنتيجة ، ومبدأ السببية (Principe de causalité) أحد مبادئ العقل ، ويعبرون عنه بقولهم : لكل ظاهرة سبب أو علة . فما من شيء إلا كان لوجوده سبب ، أي مبدأ ، يفسر وجوده . حتى لقد زعم (كانت) أن السببية إحدى المماثلات الضرورية لتفسير التجربة ، ولها عنده وجهان أحدهما مبدأ الاحداث أو الانتاج (Principe de la production) والآخر مبدأ التتابع الزماني وفقاً لقانون السببية (Principe de la succession dans le temps suivant la loi de causalité) . أما المبدأ الأول فيوجب أن يكون لكل حادث سبب يتوقف وجوده عليه قبل حدوثه ، وأما المبدأ الثاني فيوجب أن تحدث جميع التغيرات وفقاً لقانون الارتباط بين السبب والنتيجة (أي بين العلة والمعلول) .

٥ — مبدأ السبب الكافي (Principe de raison suffisante) — قال (ليبنيز) هناك مبدآن كبيران للاستدلال العقلي : الأول مبدأ التناقض (Principe de contradiction) والثاني مبدأ السبب الكافي . وهو يوجب أن يكون لكل شيء سبب يتوقف وجوده عليه ، أو هو ما يتوصل به بصورة قبلية إلى تعليل وجود الشيء أو عدم وجوده ، أو إلى تفسير كونه على هذه الحالة أو غيرها . وقد قسم (شوبنهاور) مبدأ السبب الكافي

أربعة أقسام وهي مبدأ السبب الكافي للصيرورة (Devenir) ، ومبدأ السبب الكافي للمعرفة ، ومبدأ السبب الكافي للوجود العقلي (كما في العلاقات الرياضية) . ومبدأ السبب الكافي للفعل ، وهو المبدأ الذي يجعل حصول الفعل موقوفاً على عوامل وبواعث خاصة . ومن مشتقات مبدأ السبب الكافي مبدأ السببية ، ومبدأ القوانين (Principe des lois) ومبدأ الحتميـــة (Principe de déterminisme) ومبدأ الجوهر (Prin. de substance) ومبدأ الغائية (Principe de finalité) . (راجع الألفاظ الآتيـــة : العلة ، المبدأ ، العقل) .

جميل صليبا



أدب الفقهاء

- ٧ -

الشعر الفلسفي :

الفلسفة بالاستعمال القديم لم تكن قاصرة على علميْ النفس والأخلاق كما هي اليوم، بل كانت تشمل سائر المعارف الإنسانية من نظرية وعملية، فتدخل فيها العلوم الطبيعية والرياضية والطب والأخلاق وعلم الجمال. وبهذا المعنى كان أرسطو يستعملها، وكذلك علماء عصر النهضة الأولون في أوربا مثل فرنسيس بيكون وديكارت وأضرابهما. وبالطبع فإن من نتكلم عنهم من الفلاسفة الأدباء العرب إنما كانوا من هذا القبيل، ولكنا مع ذلك لا نقدم من شعرهم إلا ما كان له صلة وثيقة بالمباحث الفلسفية بمعناها المحدود كمشكلة الوجود والحقيقة الأزلية وما إلى ذلك. على أن المراد هو أن تكون هذه المباحث هي منطلق التفكير الشعري لا الدخول في التفاصيل وعرض أنظار الفلاسفة في الموضـــوع، فان ذلك يؤول إلى تأليف نظم تعليمي في الفلسفة كألفية ابن مالك في النحو وأرجوزة ابن سينا في الطب، وما أبعد هذا عن اغراض الشعر والشعراء.

ولعل الشاعر العربي الوحيد الذي تناول في شعره مشكلة الوجود الإنساني والحقيقة العليا واختلاف المذاهب والآراء فيها وكان للتفكير الفلسفي ظل سابغ في معظم إنتاجه الشعرى هو أبو العلاء المعري، وبالرغم من ذلك فانه لا يمكن أن يقال في شعره انه فلسفة خالصة، ولكنه شعر ينطلق من محط أنظار الفلاسفة ومجالات تفكيرهم

وهكذا أصحابنا الفقهاء أو العلماء بلفظ أعم ، وإن كانوا فلاسفة حقيقيين ، لا يعرضون علينا في شعرهم إلا جانباً من النظر الفلسفي في ثوب من الخيال الشعري ليكون إنتاجهم عملاً أدبياً ناجحاً .

وأول من نذكره منهم الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا ، فان قصيدته العينية في النفس هي العَلَم المرفوع في هذا الباب ، ما زالت منذ قالها صاحبها تتناقلها الرواة ، وتكتب عليها الشروح ، وتُخَمَّس وتُشطَّر نظماً ، وتترجم إلى اللغات الشرقية والأوربية ، وذلك كله من الأهمية التي لها لدى الأدباء والفلاسفة على السواء ، وجوهر الموضوع فيها هو اتصال النفس بالجسد وفراقها له ، وهي عَبْرَ ذلك تطرح التساؤلات الآتية : لأيِّ شيء كان هذا الاتصال ؟ فان كان لغير تحصيل الكمال فهي حكمة طواها الخالق عن إدراك الإنسان ، وإن كان لتحصيل الكمال فلم يقع الفراق قبل حصوله ؟ وهذا طبعاً بأسلوب يتراوح بين التقرير والتخييل ، هو الذي أعطاها تلك الصفة الأدبيه التي جعلتها من عيون الشعر الفلسفي . وها هي ذي :

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقاء ذاتُ تعزُّز وتمنُّع
محجوبة عن كل مقلة عارف	وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كُرْه إليك وربما	كرهت فراقك وهي ذات تفجع
ألِفت وما سكنت فلما واصلت	ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى	ومنازلاً بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها	عن ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت	بين المعالم والطلول الخضع
تبكي وقد ذكرت عهوداً بالحمى	بمدامع تهمي ولما تقلع
وتظل ساجعةً على الدِّمَن التي	درست بتكرار الرياح الأربع

إذ عاقها الشَّرَكُ الكثيف وصدها قفصٌ عن الأوج الفسيح المَرْبَع
حتى إذا قرُب المسير من الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت مخالفة لكل مخلّف عنها حليفِ التُّرب غير مشيع
سجعت وقد كُشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق والعلمُ يرفع كل من لم يُرفع
فلأي شيء أهبطت من شاهق عالٍ إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها الإلهُ لحكمة طُويت على الفذ اللبيب الأروع
وهبوطها إن كان ضربة لازبٍ لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفيـــة في العالمين فخرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برقٌ تألق بالحمى ثم انطـــوى فكأنه لم يلمع

أثبتنا هذه القصيدة بكاملها لأننا كلما أردنا الاجتزاء منها بقسم وجدنا أنّ روعتها لا تكمل إلا بالقسم الآخر ، فهي وحدة مترابطة بإشارتها ورموزها لا يصح تجزيئها . ونحب أن ينتبه القارئ إلى جمال التعبير عن النفس بالورقاء وهي الحمامة ووصفها بالتعزز والتمنع وكونها محجوبة سافرة ، وإلفها لخراب الجسم مع تطلعها للمحل الذي هبطت منه وذكرها لعهودها بذلك الحمى المنيع ، إلى آخر ما وصفها به . وما أحسن ما وقعَ قولهُ في مدح العلم : « والعلم يرفع كل من لم يرفع » بعد ذكر المحنة التي مرت على النفس واكتسبت بها من المعرفة ما رفعها إلى الأوج . وأخيراً يتطرق الشيخ إلى مذهب التناسخ في البيت الذي قبل الآخر فينفيه بتلك العبارة القاطعة مؤكداً مفهوم جواب الشرط المذكور قبله ، من أنه لا كمال في الحياة الثانية ولا رجوع إليها لتحصيله كما يقول أصحاب ذلك المذهب ، فلله در ابن سينا ما أجلّه فيلسوفاً وأديباً ومؤمناً صادقاً ...

وثاني قصيدة بعد العينية ألمت بالمقاصد الفلسفية وإن لم تكن لها شهرتها هي قصيدة ابن الشبل البغدادي وهو كما في عيون الأنباء : « أبو علي الحسين ابن يوسف بن شبل (١) ، مولده ، ومنشأه ببغداد . وكان حكيماً فيلسوفاً ومتكلماً فاضلاً وأديباً بارعاً وشاعراً مجيدا . وكانت وفاته ببغداد سنة أربع وسبعين وأربعمائة . وهذه القصيدة من جيّد شعره ، وهي تدل على قوة اطلاع في العلوم الحكمية والأسرار الإلهية . وبعضُ الناس ينسبها إلى ابن سينا وليست له » . وهذا هو في مطلعها الرائع يلقي السؤال الذي لا جواب عليه :

بربك أيها الفلك المدار أقصدٌ ذا المسير أم اضطرار
مَدارُك قل لنا في أي شيء ففي أفهامنا منك انبهار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تُدار

إنها مشكلة الزمن والمكان ، أو الفضاء ، التي حيرت العقول منذ القدم وما زالت بدون حل حتى في عصرنا هذا ، عصر الصواريخ والأقمار الصناعية التي تغزو الفضاء يومياً بالعلم الذي جعل من هذا الفضاء ومباحثه مادة اختصاص يعكف عليها مئات العلماء في الشرق والغرب ، فلا ينتهون إلا إلى أبعاد سحيقة إنما هي مظهر من عظمة الكون وهندسته العجيبة ، فأما عِلَّتُه وسِرُّه تكوينه فأمر محجَّب لا سبيل إلى معرفته والاطلاع عليه ، وذلك ما صاغه ابنُ الشبل في هذا المطلع بلباقة حكمية وبراعة أدبية لا نجدها إلا عند أمثاله من العلماء الأدباء .

ويتابع صاحبنا أسئلته الحائرة عن مصير الإنسان بعد مفارقة الحياة ، وعن المجرّة ونهرها العجيب والشمس والنجوم والشهب الضاربة فيقول :

(١) في الوافي للصفدي : محمد بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن يوسف بن الشبل . (لجنة المجلة)

وعندك تُرفَع الأرواح أم هل مع الأجساد يدركها البوار
ومَوْجٌ ذي(١) الجرَّة أم فيرنّد على لُجَج الدروع له أُوار
وفيك الشمس رافعة شعاعاً بأجنحة قوادمُها قِصار
وطوق في النجوم من الليالي هلالُك أم يدٌ فيها سوار
وشُهْب ذي الخواطِف أم ذُبال عليها المَرْخُ يقدَح والعَفار
وترصيعٌ نجومك أم حَباب تؤلف بينه اللجج الغِزار
تُمَد رقومُها ليلاً وتُطوَى نهاراً مثل ما طُوِي الإزار
فكم بصقالها صدِيءٌ (٢) البرايا وما يصدا (٢) لها أبداً غِرار

ويطول بنا التعرض لما تناولته القصيدة بعد هذا من تقلب الزمن بأهله وعكس مرادهم، وخطيئة الانسان الأول وما جرته من شقاء على الانسانية، وإن كان لا يصح غض الطرف عن قولها في وصف القيامة، وفيه ملامح من وصف القرآن لذلك اليوم الهائل ونصه :

إذا التَّكْوير غالَ الشمسَ عنا وغال كواكبَ الليل انتثار
وبُدّلْنا بهذي الأرض أرضاً وطوَّح بالسموات انفطار
وأذهلت المراضع عن بنيها لحيرتها وعُطِّلت العِشار
وسُيِّرت الجبالُ فكُنَّ كُثْباً مَهيلاتٍ وسُجِّرت البحار
فأين ثباتُ ذي الألباب منا وأين مع الرجوع لنا اصطبار

وهو وصف بليغ يدل على مقدرة ابن الشبل البيانية وعلى إيمانه العميق، رغم ما أبداه من حيرة وأثاره من إشكال ازاء بعض المأثورات. ثم هو ينهي قصيدته العظيمة بقوله في عظمة الكون والاعتبار بقدرة الخالق :

(١) في عيون الأنباء الذى تنقل عنه : ذا
(٢) في عيون الأنباء صدي بدون همز ء .ويصدى بياء ألف .

فما لِسُمُوٍّ ما أعلى انتهـــاء ... ولا لسُمُوكِ ما أرسى قَرار

ولكن كل ذا التهويل فيـــه ... لِذي الألباب وعظ وازدجار

ولابن الشبل أيضاً قصيدة في رثاء أخيه أحمد ينبغي أن تكون توْأم قصيدة أبي العلاء المعري المشهورة في رثاء أحد فقهاء الحنفية بما طرقه فيها من أفكار في فلسفة الموت والحياة مع جودة التعبير وبلاغة الأداء ومنها قوله :

صحـــةُ المرء للسّقام طريق ... وطريق الفناء هذا البقـاء

بالذي نغتذي نموت ونحيي ... أقتلُ الداء للنفوس الدواء

ما لَقينا من غدر دنيا فلا كا ... نت ولا كان أخذُها والعطاء

راجع جودهـــا عليها فمَهْما ... يَهب الصبحُ يستردّ المساء

ليت شعري حلْماً تمرُّ بنا الأيـــامُ أم ليس تعقَل الأشياء

من فساد يجْنيه للعالَم الكو ... نُ فما للنفوس منه اتقـاء

قبُـــح الله لذة لأذانا ... نالهَـا الأمهـــاتُ والآباء

نحن لولا الوجود لم نألم الفقـــدَ فإيجادُنا علينـــا بَلاء

وهذه أبيات مشهورة في معان فلسفية مختلفـــة ، فمنها للشهرستاني صاحب كتاب الملل والنحل :

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلها ... ورددت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كفَّ حائر ... على ذَقَن أو قارعٍ[1] سنَّ نادم

وللفخر الرازي :

نهايةُ أقدام العقول عقـــالُ ... وأكثرُ سعي العالَمين ضلال

وأرواحنا في عقْلة من جسومنا ... وحاصـل دنيانا أذى ووبال

---

(١) لعلها : أو قارعاً [illegible] (لجنة المجلة)

ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة فبادُوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شُرفاتِها رجالٌ فزالوا والجبال جبال

ولابن أبي الحديد :

فيك يا أغلوطة الفكر غدا الفكر عليلا
أنت حيرتَ ذوي اللب وبلبلتَ العقولا
كلما أقبل فكري منك شبراً فرَّ ميلا

ولِلْمظفّر بن معرّف في الرد على الطبائعيين :

وقالوا الطبيعةُ مَبْدا الكيان فياليت شعريَ ما ذي الطبيعة ؟
أقادرةٌ طبعت نفسَها على ذلك أم ليس بالمستطيعة ؟

ولأبي سليمان المنطقي ، ويحتوي على نزعة وجودية مع الإقرار بخلود الحقيقة العليا :

لذةُ العيش في بهيميَّة اللذة لا ما يقوله الفلسفي
حكم كأس المنون أن يتساوى في حساها النبي والألمعي
ويحلَّ البليد تحت ثرى الأرض كما حلَّ تحتها اللوذعي
أصبحا رِمَّةً تزايلَ عنها فصلُها الجوهريُّ والعرَضي
وتلاشى كيانُها الحيوانيُّ وأودَى تمييزُها المنطقي
فاسأل الأرض عنهما إن أزال الشكَّ والمِرْيةَ الجوابُ الخفي
بطلت تلكم الصفاتُ جميعاً ومُحال أنْ يبطُل الأزَلي

هذه نماذج من شعر أصحابنا الفقهاء العلماء في موضوع الفلسفة وما يتصل بها من المباحث العقلية ، هي من جهة مادة عزيزة في الأدب العربي قلما

نعثر على نظير لها فيما أنتجه غيرهم من شعر يتجافى كثيراً عن منازع الفكر ومُشتجَر الآراء في مطالب النفس وحقيقة الوجود ، وذلك طبعاً باستثناء فيلسوف الشعراء أبي العلاء المعري . ومن جهة أخرى هي أعظم دليل على قوة ملكتهم الشعرية وعارضتهم الأدبية ، إذ أخضعوا تلك الأنظار والمذاهب المختلفة لحكمهم وعبروا عنها بعبارات دالة وكلام واضح لم تضق عنه قوالبُ النظم ولا عيّت به أساليبُ البيان . وذلك غاية ما يطلب من أئمة الأدب وحملة الأقلام .

عبد الله كنون



نظرات في المعجم الوسيط

- ١٤ -

تتمة تعريف الأعلام الجغرافية والتاريخية والشعوب

الكلمة	تعريفها في المعجم الوسيط	الملاحظــــات
الهلال	... و ـــ شعار لبعض الدّول الإسلاميّة يقابل شعار الصّليب عند الدّول المسيحية . (محدثة) .	تتخذ بعض الدّول الإسلاميّة الهـــلال شعاراً لها ، ومنذ القديم كان الهلال شعاراً لدولة بني عثمان المسلمة ، ومنهـــا اقتبست تلك الدّول هذا الشّعار ؛ أما القول بأن الهلال شعار يقابل شعار الصّليب عند الدّول المسيحية ، فلا سند له من الحقيقة التاريخية ، لهذا كان من المستحسن أن يغفـــل المعجم الوسيط هذه المقابلة . على أنه كان جديراً بالمعجـــم أن يثبت في تعريف الهـــلال ، مدلول اصطلاح

(الهلال الأحمر) شعاراً للجمعيات الدّولية في مختلف الدّول الإسلامية (١) ، القائمة على مبادئ إنسانية صرفة للعمل على تخفيف آلام بني البشر ورفع مستواهم الصحيّ ، وذلك تنفيذاً لاتفاقية جنيف الدّوليـــة لسنة ١٨٦٤ م ، وبدلاً من شعار (الصّليب الأحمر) لدى الدّول المسيحيّة وغيرها من دول العالم .

الصَّليب ... و ـــ كلُّ ما كان على شكل خطّين متقاطعين ...

كان من المستحسن أن يضيف المعجم الوسيط إلى تعريف الصَّليب ، مدلول اصطلاح « الصليب الأحمر » فيثبت مثلاً : و ـــ الأحمر : شعار جمعيات دُوَليّة تعتنق مبادئ إنسانية بحتـــة ترمي إلى التخفيف من الآلام البشريّة والعمل على رفع مستوى الصحة العامة ، وهي منتشرة في جميع دُول العالم تنفيذاً لاتفاقيـــة جنيف الدُّوَلية المعقودة سنة ١٨٦٤ م .

الصَّلِيبِيُّونَ جيوش من نَصارَى أوربا ، غزت الشرق الإسلامي مراراً في أثناء

لو أن المعجم الوسيط عرَّف الحـــروب الصَّليبيّة ، لاستغنى عن تعريف الصَّليبيّين الذين جيّشوا الجيوش الصّليبية أو كانوا في عدادها .

---

(١) أكثر الجمعيات المذكورة في الدّول الإسلامية تتخذ الهلال الأحمر شعاراً لها ، باستثناء دولة إيران ، إذ تتخذ جمعيتها « الأسد الأحمر » شعاراً لها ، وهناك بعض الدول ما زالت تقوم فيها جمعيات شعارها « الصليب الأحمر » الدّولي ثمة كما كان الأمر قبل استقلالها .

القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، للاستيلاء على بيت المقدس وما حوله .

[مادة ص ل ب]

ويلاحظ أن جملة (للاستيلاء على بيت المقدس وما حوله) لا تكفي في بيان غاية الصليبيين من حروبهم ، لأنه من الثابت أن غايتهم كانت أوسع من ذلك وأنهم لم يكتفوا بالاستيلاء على بيت المقدس وما حوله .

هُرْمُزُ كلمةٌ فارسية من معانيها : الله ،وكوكب المُشتري(١)، وأحد ملوك الفرس هُرمز (٢٧٢ م) . وقد أطلق العرب الهرمُزَ والهارَمُوز والهُرمُزان على الكبير من ملوك العَجَم .

[مادة هـ ر م]

تعريف كلمة (هرمز) في المعجم الوسيط مُجمَّع من عدد من المعجمات القديمة ، وكان من المستحسن إعادة النظر في بعض أجزاء التعريف في ضوء المعلومات التاريخية الثابتة ؛ فالكلمة في أصلها الفارسيّ اسم علَم تسمّى به خمسة من ملوك الفرس في الدّولة الساسانية ، وكان أولهم هُرمُزد الأول الذي تولّى المُلْك سنة ٢٧٢ م وتوفي في السنة التالية لولايته .

أما الهُرمُزان فهو اسم علَم آخر ، وكان اسم أمير الجيش الفارسيّ الذي هزمه العرب المسلمون في موقعة القادسيّة سنة ٦٣٧ م .

(١) كنا في نظراتنا في اسماء النجوم الواردة في المعجم الوسيط ، ذكرنا أن لفظة (هرمز) هي صيغة معرّبة وليست فارسيّة أو دخيلة لأن اللفظة الفارسية هي (هرمزد) . انظر المجلد ٤٠ ص ٥٩٣ سنة ١٩٦٥ .

الشاهِنْشاه ملك الملوك ، أو الملك الأعظم . (فارسية) .
انظر : (ش و ه) .
[مادة ش ه ي]

الشَّاهُ المَلِكُ . (فارسية) : ومنه الشَّاهُ المستعمَلُ في رُقْعَةِ الشِّطْرَنْج .

شاهِنْشاه، وشَهَنْشاه : ملكُ الملوك. (فارسية) .
[مادة ش و ه]

أثبت المعجم الوسيط كلمة (شاهِنشاه) في مادة (ش ه ي) مع بيان معناها والإحالة إلى مادة (ش و ه) وفي هذه المادة أعيد بيان معنى هذه الكلمة الدخيلة مع ذكر صيغتين لها ، مما زاد في تضخيم المعجم العربي بدون داعٍ .

وكان من المستحسن الاكتفاء بإثبات كلمة (الشّاه) دون غيرها .

إنّ هذه الملاحظة ترد بالنسبة إلى عدة مواد في المعجم الوسيط .

الهُمايُون السُّلطان، أو الامبراطور. (فارسية) .

هُمايون لفظة فارسيّة معناها : العزيز أو السلطان ؛ والكلمة مركبة من : (هُما) أي عنقاء ، ومن (يون) وهي أداة النسبة . وقيل إنّ (هُمايون) في الأصل : اسم طائر عزيز ، لذا أطلق على السلطان (١) .

وفي أقرب الموارد : ... ولذا أطلق على العزيز والسلطان ، وقول الأتراك : باب هُمايُون أي باب السلطان .

(١) انظر كتاب « الألفاظ الفارسية المعربة » لأدي شير ص ١٥٨ بيروت ١٩٠٨ م .

الهُماء	العُقابُ . و ـــ طائرٌ تتّخذ الملوك من ريشه في تيجانهم، لعزّته. (فارسية).	واللاحظ في تعريف المعجم الوسيط كلمة (هُمايون) حشر لفظة (الإمبراطور) (١) ، وإدخال أداة التعريف على الكلمة ، ولم يرد كل هذا في معجم قديم . وأشار المعجم الوسيط في تعريف كلمة (الهُماء) إلى أنها (فارسيّة) بمعنى الطائر الخرافي ، وهذه الكلمة في حقيقتها (معرّبة) عن كلمة (هُما أو هُمايُ) الفارسية .
الهُمايُ	لُغــةٌ في الهُماء بمعنى الطائر السابق .	وأثبت المعجم الوسيط صيغة (الهُماي) على أنها لغة في (الهُماء) ولم أعثر على مصدر موثوق ذكر هذه الصيغة . ومما يلاحظ وجود خطأ مطبعي في تعريف الهماء ، بزيادة لفظة (في) .
الدِّهْقان	رئيس القرية. و ـــ رئيس الإقليم . و ـــ القويّ على التصرف مع حِدّة . و ـــ من له مال وعَقار . و ـــ التاجر. (كلُّه مع). (ج) دَهاقنة، ودَهاقينُ. [مادة د هـ ق]	تكاد تعريفات كلمة « الدّهقان » في معاجم العربية تكون متماثلة ، فهي تعني : رئيس الاقليم وزعيم فلاحي العجم . وقد اكتفى المعجم الوسيط بذكر أن الكلمة في جميع معانيها معرّبة ، وفي رأينا أن هذا لا يغني عن الاشارة إلى أن الكلمة كانت تطلق على رئيس الاقليم أو رئيس القرية الفارسيّ ، لأن تعريب الكلمة لم يرق بها إلى

(١) أثبت المعجم الوسيط كلمة (امبراطور) بصيغة ثانية في مادة (ع هـ ل) إذ أورد التعريف التالي : العاهل : الملك الأعظم يحكم شعوباً مختلفة كالخليفة والأنبرور !

أن تكون اسماً لأي مركز إداري في البلاد العربية .

هذا وقد حيرنا في فهم المقصود من جملة (القوي على التصرف مع حدّة) الواردة في كل من اللسان والقاموس وغيرهما من المعاجم العربية ، وشككنا في أن يكون في الأمر تصحيف ما ، وأخيراً وجدنا في معجم متن اللغة : (الدّهقان « مثلثة الدّال » القويّ على التصرف مع شدّة خبرة ...) وبهذا تأكدنا من وجود التصحيف ، ولكن كيف فات صاحب التاج الاشارة اليه ؟ خاصة وأننا لم نعثر على المصدر الذي اعتمد عليه صاحب متن اللغة فيما أثبته من معنى ؟

النّوْروز أو (النَّيْرُوز) « بالفارسية »: اليوم الجديد ، وهو أوّل يوم من السنة الشمسيّة الايرانيّة ، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية . وعيد النّوروز أو النّيْرُوز أكبر أعياد الفرس .

[مادة ن و ر]

كان من المستحسن أن تضاف كلمة (قومية) إلى جملة : أكبر أعياد الفرس تمييزاً لهذه الأعياد عن الدينية منها ، لأن الفرس مسلمون ودولتهم دولة إسلامية .

هَرْبَذَ سار سَيْراً دون الخَبَب .

الهِرْبِذُ الكاهن المجوسيُّ القائم على بيت النّار . وـــ حاكم المجوس (فارسيّ معرب) وهو بالفارسية هِرْبَدْ .
(ج) هرابِذَةٌ .

الهِرْبِذى مِشْيَةٌ فيهـــا اختيالٌ وعُجب . و ـــ مِشيةُ الجمل ونحوه عندما يميل إلى أحدِ جانبيه .

[مادة هـ ر ب]

من الثابت عند علماء العربيـة أن العرب عرّبوا كلمة (هِرْبد) بصيغة (هِرْبِذ) واشتقّوا منها فعلاً واسم مشية تتفق وما تصوروه في مشية الهِرْبذ .

واختلف أصحاب المعجمات في بيـان معنى الهِرْبذ ، فمن أجـل صنع معجم عربي حديث يجب استبعاد كل معنى لا يتفق هو ومعنى الكلمة الأعجمية أو يبتعد عن المعنى الذي من أجله اشتق العرب فعلاً من تلك الكلمة وأدخلوه لغتهم .

إن كلمة (هِرْبد) الفارسية تعني : قَوَمَة نار المجوس وحكامهم[1] ؛ لهذا كان من المستحسن أن يكتفي المعجم الوسيط بمثل التعريفات التالية[2] :

هَرْبَذ : مشى الهِرْبذَى .

الهِرْبِذَى : مَشْيَةٌ فيها اختيال كمشي الهرابذة .

ومن المجاز عدا الجَمَلُ الهِرْبِذَى أي في شقٍّ .

الهِرْبِذُ : حاكم المَجُوس أو القَيِّم على بيت نارهم . (مع) . (ج) هَرَابِذة .

(١) انظر القاموس المحيط وغيره من المعجمات . وكتاب الألفاظ الفارسية المعربة لأدّي شير ص ١٥٧ .

(٢) انظر تاج العروس : مادة (هـ ر ذ) .

الكَرُوبِيُّون المقرَّبون إلى الله من الملائكة ، منهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل .

كَرَبَ فلانٌ ـُ كَرْباً : زَرَعَ في الكريب .

. . . . . .

وكَرَبَ يفعل كذا ، وكَرَبَ أن يفعله : قارب أن يفعله ...

. . . . . .

الكَرْبُ الحُزْنُ والغَمّ . . . .

جاء في المعجم الوسيط تعريف كلمة « الكَرُوبِيُّون » المنقول عن بعض المعاجم القديمة ، ضعيف الصلة بمادة (كَرَبَ) إذ لم يثبت المعجم من معانيها التي تتصل بالكلمة المذكورة ، إلا قوله : كَرَبَ يفعل كذا أي قارب أن يفعله ، فإذا رجعنا إلى المادة في الأمهات وجدنا ما يلي :

في صحاح الجوهري : كَرَبَ الشيء أي دنا .

وفي لسان العرب : كَرَبَ الأمر يَكْرُبُ كُروباً : دَنا ، ... وكلُّ شيءٍ دَنا فقد كَرَبَ ... وكَرَبَتِ الشمسُ للمَغيب : دَنَتْ ، وكَرَبَت الشمسُ : دَنَتْ للغروب ... قال أبو عبيد : كَرَبَ أي دَنا من ذلك وقَرُبَ . وكلُّ دانٍ قريب فهو كاربٌ ... والكَرْب : القُرْبُ . والملائكة الكَرُوبِيُّون : أقرب الملائكة إلى حَمَلَة العَرْش .

وفي أساس البلاغة : وكَرَبَتِ الشمسُ أن تغرب . ومنه : الكَرُوبِيُّون والكَرُوبِيَّة من الملائكة .

وفي القاموس المحيط : وكَرَبَ كروباً : دنا ... والشَّمسُ : دنت للمغيب ... والكَرُوبِيُّون مخفَّفة الرَّاء : سادة الملائكة .

وفي مقاييس اللغة : .. فأما كَرَّب الشيء : دنا فليس من الباب (١) ، لأنَّ هذا من الإبدال ، وإنما هو من القُرْب ، لكنَّهم قالوا بالقاف قَرُب بضم الراء ، وقالوا في الكاف كَرَّب بفتحها ، والمعنى واحد ، والملائكة الكَرُوبيُّون فَعُوليُّون من الكروب ، وهم المقرَّبون

من هذا العرض لما ورد في معاجم العربية ، نجد أن المعجم الوسيط قد أغفل معنى (الدنو والقرب) في مادة (كرب) ، لذلك فمن المستحسن أن يضاف هذا المعنى إلى معانيها العديدة ، على أن يكون في فقرة مستقلة على الشكل التالي :

(١) أخرج ابن فارس بكلامه هذا فعل (كرب بمعنى دنا) من مادة (كرب) الأصلة جاعلاً إياها مبدلة من مادة (قرب) وهذا التخريج الذي لم يقبله علماء العربية ، يضفي شكاً على أصالة كلة الكرب بمعنى القرب ، ويفسر ما نجده في كتب المحدثين ، فقال جاء في «أقرب الموارد» ما يلي : (الكرُوبيُّون والكروبيَّة ، وقد تبدل الكاف شيناً : سادة الملائكة أو المقرَّبون منهم عبرانيتها كَرُوبيم جمع كَرُوب ، وربما استعملت بلفظها العبراني ومعناها : حافظ أو حارس أو مقرَّب ، قال أميَّة : «كَرُوبيَّةٌ منهم رُكوعٌ وسُجَّدُ» .

وفي هامش كتاب « الألفاظ السريانية في المعاجم العربية » للبطريرك أفرام برصوم : « كروب : قال الرهاوي ص ١٠ (كروب لفظة عبرية مدلولها الحاذق في صناعته ، أرادوا بالمدّك الكروب أو الكروبي والجمع كروبيم وكواربه الجزيل العلم وبالتالي رسوخ الملائكة : الجليّ الباهر في الاستنارة) وفي سفر التكوين ٢٣ : ٢٤ بحسب الترجمة السريانية : وأقام شرقي فردوس عدن الكواريب » .

كَرَبَ ـِ كروباً : دنا ، وكَرَبَتِ الشمسُ للمغيب : دنتْ ، وكَرَبَتِ الشمس : دنت للغروب .

الكَرْب القُرب .

الكَرُوبيّون المقرَّبون . و ـــ من الملائكة : المقرَّبون إلى الله تعالى كالكروبيَّة (١) .

هَارُوتُ رفيقُ هاروتَ : مَلَكان هبطا ببابلَ فعلَّما الناسَ السحر .

[مادة م ر ت]

كان المعجم الوسيط في غنى عن إثبات هذا الاسم ، كما استغنى عن إثبات كل من : هاروت وطالوت وجالوت ، وهي جميعها أعلام أعجمية ممنوعة من الصرف للعلمية والعجمة كما في أصح الأقوال .

البنّاءون الأحرار جماعة سِرِّية لها نظم داخلية دقيقة يتعاون أعضاؤها فيما بينهم ، وإن اختلفت أجناسهم وأوطانهم وأديانهم . وكوَّنها فريق من البنائين في القرن الرابع عشر ، وانتشرت في كثير من الأقطار . (انظر: ماسونية) .

[مادة ب ن ي]

في تعريف المعجم الوسيط لجمعية (البنّائين الأحرار) قطع في أمر مختلف عليه وهو زمن تأسيس تلك الجمعية ، وفي هذا تجاوز المعجم طبيعته اللغوية (٢) .

ومما يلاحظ في التعريف الإحالة إلى تعريف (ماسونية) وهذه الكلمة لم يدخلها المعجم الوسيط في مواده وحسناً فعل ، مما يقتضي معه حذف الإحالة .

(١) أثبت اللسان هذه الصيغة ، كما أثبت شعر أميّة المنقول في أقرب الموارد كما في الهامش السابق .
(٢) انظر كلمة : Franc - maçonnerie في الموسوعات الأجنبية .

قَرَهْجُوز دُمىً صغيرة من الورق المقوىّ أو الخشب الرقيق، يحرّكها إنسان مختفٍ وينطق بما تقول، فترى كأنها تتحرك وتتكلّم. (مج).

كان من المستحسن وقد شاء مجمع اللغة العربية إدخال كلمة (قره غوز) إلى المعجم العربيّ أن يُشار إلى تركيبها ومعناها (أسود العَينين).

كما كان من حق العربية أن يشار في التعريف إلى الاسم الذي أطلقه البعض على مسرح (قرهغوز) وشاع في كثير من البلاد العربية وهو (مسرح العرائس).

[مادة ق ر ه]

البَحْرِيّ الملاّح. و ــــ كل منسوب إلى البحر.

البَحْرِيَّة عُدَّة الدولة في البحر، من سفن وغوّاصات، وطائرات وجنود، ونحو ذلك.

البحريّة صفة مؤنثة لكلّ منسوب إلى البحر، وهي ما لم تضف إلى اسم آخر، كقولنا وزارة البحريّة أو مشاة البحريّة أو القوات البحريّة، لا تدل على شيء معين، إلا بتقدير مضاف محذوف تدل عليه دلائل توحي بالمقصود منها.

لقد درج المعجم الوسيط على إثبات العلمية لكلمات كثيرة لا ترقى إلى العلمية إلا بتقدير محذوف ولفظة «البحرية» منها، وكان من المستحسن إن أريد إثباتها بالمعنى المذكور في التعريف القول:

البَحْرِيَّة: القواتُ البحريَّة: عُدَّة الدولة ...

القَوْم	الجماعة من الناس تجمعهم جامعـــة يقومون لها ... و ـــ الجماعة من الناس تؤلف بينهم وحدة اللغـة والتقاليدالاجتماعية وأصول الثقـافة وأسباب المصالح المشتركة . (محدثة) .	أدخل المعجم الوسيط في تعريف الكلمات المتصلة بالأقوام والشعوب بعض معانيها الاصطلاحية المحدثة ، غير أن التعريفات ، التي أثبتها المعجم ، على جدة بعضها ، لم تأت دقيقة في مدلولاتها منسجمة بعضها مع بعض .
القَوْميّ	من يؤمن بوجوب معاونته لقـومه ومساعدتهم على جلب المنفعة ودفع المضَرَّة. و ـــ الوطني . يقـال : السيد القومي ، والزعيم القومي . (محدثة) .	ولا بد قبل إعادة النظر في مختلف التعريفات المشار اليها من الرجوع إلى مؤلفـات المختصين الذين أوفوا تلك الكلمات حقها من البيان من حيث معانيها اللغوية ومعنى كل منها في الاصطلاح المتعارف عليه في العصر الحديث . وفي مقدمة هذه المؤلفات كتاب « القومية العربية »(١) للأمير مصطفى الشهابي حيث أثبت المعـــاني اللغوية
القَوْميَّة	صلة اجتماعية عاطفية تنشأ من الاشتراك في الوطن والجنس واللغة والمنافع . وقد تنتهي بالتضـــامن والتعاون إلى الوحدة ، كالقومية العربية.(محدثة) .	والتعريفات الاصطلاحية الحديثة لكلمات : القوم ، والقوميّ ، والقوميَّة ، والأقواميّ أو اللاقوميّ ، والأقواميَّة ، وغيرها من الكلمات مثل : الوطن والوطنيّ والوطنية والمواطن والمواطنة ، والأمة والشعب والدولة .

(١) مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية مصر ١٩٥٩ .

الأُمَّة جماعة من الناس أكثرهم من أصل واحد ، وتجمعهم صفات موروثة ، ومصالح وأمانيُّ واحدة ، أو يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان . يقال : الأمة المصرية ، والأمة العراقية .
و ـــ الجيل . و ـــ عشيرة الرجل . (ج) أمم .
ومجلس الأمة : المجلس النيابي في مصر ، انشىء بمرسوم عام ١٩٥٧ .

الشَّعْبُ الجماعة الكبيرة ترجع لأبٍ واحد، وهو أوسع من القبيلة.
و ـــ الجماعة من الناس تخضع لنظام اجتماعيٍّ واحد.
و ـــ الجماعة تتكلَّم لساناً واحداً . (ج) شُعُوبٌ .

الجِيلُ الأمَّة . و ـــ الجنس من الناس : فالتُّرك جيل ، والرُّوم جيل .
و ـــ القرن من الزمن .
(ج) أجيال .

أصبح لكل من كلمتي « أمّة » و « شعب » مدلول اصطلاحي جديد في هـذا العصر عصر نهضة الأمة العربية ، مما يجب معه على المعاجم الحديثة عدم إغفال المعاني الاصطلاحية الجديدة إلى جانب المعاني اللغوية والمعجمية القديمة ، كما يجب إهمال أي مثل يناقض المعنى الاصطلاحي الحديث ، فيجب مثلاً أن يقال في تعريف كلمة « أمّة » : الأُمَّة العربية ؛ لا أن يقال : الأمَّة المصرية والأمة العراقية ، فليس في مصر أو في العراق سوى شعب من شعوب الأمة العربية .

كما يجب أن يمثل في تعريف كلمة « شعب » بأي شعب من شعوب الأمة العربيـة أو غيرها من الأمم .

وإذا كانت كلمة « الجيل » تعني فيما تعنيه : الأمة والجنس من الناس ، فيجب أن يثبت بأنها قد تعني أيضاً « الشَّعب » .

الوَطَنُ	مكانُ إقامةِ الإنسان ومقرُّه ، وُلد به أو لم يولد . (ج) أوطان ...	
الإقليمُ	عند القدماء : واحد الأقاليم السبعة ، وهي أقسام الأرض . و — بلاد تسمى باسم خاص كإقليم الهند وإقليم اليمن . و — منطقة من مناطق الأرض تكاد تتحد فيها الأحوال المناخية والنظم الاجتماعية ، كالإقليم الشمالي والإقليم الجنوبي .	إن التعريفات الواردة في المعجم الوسيط لكلمات « وطن وإقليم ودولة » جاءت غير دقيقة في معانيها الاصطلاحية المحدثة ، فيجب إعادة النظر فيها ، وسلّ معنى الموطن من تعريف الوطن ، مع بيان المقصود من اصطلاح « الوطن الأم » المنتشر استعماله كثيراً عند المغتربين في المهاجر . كما يجب إضافة معنى « القطر » إلى معاني الإقليم ، للدلالة على جزء معين من دولة أو بلاد تتميَّز باسم خاص . وفي تعريف كلمة « دولة » يجب إضافة المعنى القانوني لها المتصل بالشخصية الاعتبارية المعترف بها دُوَليّاً أو في المنظمات الدوليَّة .
الدَّوْلَةُ	جمع من الناس مستقِرّون في إقليم مُعَيَّن الحدود ، مُستقِلّون ، وفق نظام خاص . (ع) ...	

الجِنْسِيَّةُ الصفة التي تلحق بالشخص من جهة انتسابه لشعب أو أمة ، مثل: فلان مِصْرِيٌّ ، أو عَرَبِيٌّ . (مو) .	تعريف كلمة « الجنسيَّة » الذي أثبته المعجم الوسيط هو تعريفها من ناحية اجتماعية وقد شاع في القرن الماضي ، أما في العصر الحاضر فأغنت كلمة « القومية » عن « الجنسية » بالمعنى الذي أورده المعجم الوسيط . لقد فات المعجم الوسيط الإشارة إلى المعنى القانوني لكلمة جنسية المعروف في جميع البلاد العربية : وهو التصل برابطة الولاء والحماية بين الانسان ودولة معينة . كما فات المعجم الوسيط عند تعريف كلمة « عِرْق » أن يشير إلى المعنى الاصطلاحي الحديث للكلمة وهو السلالة Race .
العِرْقُ أصلُ كلِّ شيءٍ	

(يتبع)

عدنان الخطيب



أبو يعقوب الخُرَيْمي

- ١ -

(١)

أبو يعقوب إسحاق بن حسَّان (بن قُوهي) (١) الصُّغْديّ أصلاً ، الخريمي ولاء . والصُّغْد « كورة قصبتها سمرقند ، وقيل هما صغدان : صغد سمرقند وصغد بخارى ... » (٢) وهو « في الأصل اسم للوادي والنهر الذي تشرب منه هذه النواحي » (٢) .

ونسب إسحاق إلى الصغد لا نقاش فيه ، نصَّت عليه عدة مصادر ، وافتخر هو نفسه فقال :

إني امرُؤٌ من سراة الصُّغْد ألبسني ... عِرق الأعاجم جلداً طيِّبَ الخَبَرِ (٣)

وتقع الصغد في « ما وراء النهر » ، ويعد هذا النهر — أي جيحون — « الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والتركية أي إيران وتوران ، فما كان في شماله أي ورائه من أقاليم قد سماها العرب ما وراء النهر » (٤) ، فالأولى — على هذا — أن يتبادر إلى ذهن الباحث في أصل إسحاق أن

(١) وردت « ابن قوهي » لدى الجاحظ ـ الحيوان ١ : ٢٢٤ ، البيان ١ : ١١٥ ، ٢ : ٣٥٢ ؛ المصري ١ : ١٠٤ ، البغدادي ٦ : ٣٢٦ ، البكري ٢٧ ، ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ . وينظر ابن الجراح ١٠٣ .

(٢) ياقوت ، كلمة « الصّغد » ٣ : ٤٠٩ ـ ، وقد يقال السُّغد .

(٣) ابن قتيبة ٢ : ٧٣١ .

(٤) لسترنج ٤٧٦ .

يكون تركياً . ولابد من أن تعني كلمة « الأعاجم » أو « العجم » (١) التي ترد عند الحديث عنه : الترك . وانه لكذلك ، بدليل صريح ، هو قول ابن المعتز : « كان من نسل الترك » (٢) .

وكان المبرد يروي أنه « كان يرجع إلى بيت في العجم كريم » (٣) .

ويبدو أن علم الباحثين المعاصرين لنا أنه مولى ورؤيتهم كلمة « العجم » في نسبه مما دفع بهم إلى الجزم السهل بأنه فارسي الأصل ؛ ومن هؤلاء الباحثين بروكلمان وبرون وأحمد أمين ومحمد نبيه حجاب وغيرهم (٤) .

وليس لدينا ما يدل على أن إسحاق وُلد في الصغد ، وإنما لدينا قوله :

رسا بالصُّغد أصل بني أبينـا   وأفرعنا بمروِ الشّاهجان
وكم بالصُّغد لي من عمٍّ صدقٍ   وخال ماجدٍ بالجُوزجان(٥)

وقد يكون الراجح ــ على هذا ــ في ولادة إسحاق أن تقع في إحدى هـــذه المدن الكثيرة من خراسان ؛ وأنها في مرو الشاهجان ، إن لزم التخصيص . أما تاريخ الولادة فلم يشر اليه أحد ، وقد ذُكر أن إسحاق من طبقة تلي سيتاً طبقة بشار (وأبي نواس) (٦) .

ثم كان في سجستان ، ترعرع وشبَّ وتعلم وطلب العلم والأدب ثم قال

---

(١) ابن قتيبة ٢ : ٧٣١ ، ويبدو أن العباسي ١ : ٢٠٢ أخذ عنه .
(٢) ابن المعتز ٢٩٣ .
(٣) المصري ٢ : ١٠٧١ ، ومثله ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ .
(٤) بروكلمان ٢ : ١٩ ، برون ١ : ٢٦٨ ، أحمد أمين ١ : ٦٥ ، حجاب ٣٠٥ ، الحوفي ٤٥٠ ، الشايب ٢٣٢ . وينظر محمود مصطفى ٢ : ٣٠٣ ، بيوي ٢٩٣ .
(٥) ياقوت كلمة الصغد ، وينظر ياقوت ولسترانج عن أعلام المدن الواردة في البيتين .
(٦) ابن رشيق ١ : ١٠٠ وذكر في ولادة بشار عام ٩٦ وفي قتله عام ١٦٧ أو ١٦٨ ، وفي ولادة أبي نواس ١٤١ ــ ١٤٥ ووفاته ١٩٦ ــ ٢٠٠ .

وأصبح يرى نفسه مظلوماً مغموط الحقوق لا ينال لقمة العيش بعز وكرامة :

أدركتني ـ وذاك أوّل دابي ـ بسجستان حرفةُ الآدابِ (١)

وأكثر ما كان يشكو أنه يُضطر إلى قصد من لا يستحق من الممدوحين ، وكرر المعنى نفسه في أبيات أخرى انتهى فيها إلى أن قال .

لا تَنْظُرَنْ إلى عقلٍ ولا أدبٍ إن الجُدود قريباتُ الحماقاتِ (٢)

ولكنه ما زال في أول مراحل النظم لما يبلغ الدّرجة التي تصوّر أنه بلغها . ولا بد من أن يكون الضيق الذي عاناه أهم ما بعثه على قول الشعر ؛

ذكر الجاحظ « قال أبو يعقوب الخريمي الأعور ، أول شعر قلتُه هذان البيتان :

بقلبي سَقامٌ لستُ أحسنُ وصفَهُ على أنه ما كان فهو شديدُ
تمرُّ به الأيامُ تسحبُ ذيلَها فتبلى به الأيامُ وهو جديد (٣) »

ولا بد من أن يتصبّر ، فقد تطول الأزْمة ، ولا بد من السعي ، فقد يقع على من يفرّج عنه الكرب ويوسع له الأمل — وهذا ما كان .

(٢)

فقد وقع على « قائد جليل وسيّد شريف (٤) » « عظيم القدر » (٥) ، عرف قدره وأغدق عليه المال وهيأ له الجاه . وكان لإسحاق من الصفات ما يجعله

(١) الآمدي ١ : ١٢١ . وينظر ابن عساكر ٢ : ٤٣٥ . وينظر عن سجستان ياقوت ولسترنج .
(٢) ابن عساكر ٢ : ٤٣٥ ـ ٤٣٦ . وينظر الجاحظ ـ الحيوان ١ : ٣٥٤ .
(٣) الجاحظ ـ البيان ١ : ٢٢٤ ، ٣ : ٣٢٥ . وينظر للأعور ابن الجراح ١٠٤ .
(٤) المصري ٢ : ١٠٧٢ ، البغدادي ٦ : ٣٢٦ ، ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ .
(٥) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٢ .

أهلاً لذلك ، فإنه إلى علمه وأدبه و « ظرفه »(١) « كان يتأله ويتدين »(٢) و « يرجع إلى إسلام ووقار »(٣) .

ذلكم « القائد » هو « عثمان بن عُمارة بن خُرَيْم الناعم الذي ينتهي نسبه إلى ذُبيان إلى غطفان من العدنانية(٤) . وكان جدّه خريم سيّداً في قومه ، جعلته مكانته علماً لأولاده وأحفاده فقيل عمارة الخريمي ، وعثمان الخريمي ، وأبو الهيذام (عامر) الخريمي . حتى إذا كان اسحاق بن حسّان مولى لعثمان قيل له إسحاق بن حسان الخريمي ، وأبو يعقوب الخريمي أو الخريمي فقط (وكثيراً ما صحف بالخزيمي ، وقد يصحف بالخرمي أو الجرمي — ولا قيمة لذلك ولا أساس) .

مدح أبو يعقوب عثمان كثيراً وسارت أماديحه ، ولا بد من أن يكون منها اللامية التي يقول فيها :

... فلو لم يكن إلا بنفسك فخرها لكان لها يوم الفخار بك الفضل(٥)

وربما كان في هذه القصيدة الأبيات التي يقول فيها :

أبالصُّغدِ بأسٌ إذ تعيّرني جُمل سَفاهاً ومن أخلاق جارتي الجهلُ

---

(١) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٢ .

(٢) ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ .

(٣) ابن عساكر ٢ : ٤٣٢ — كأنه يروي السند عن المبرد .

(٤) ينظر عن خريم ، ابن قتيبة ٢ : ٧٣١ ، ابن الجراح ٢٣ ، ابن حزم ٢٤٠ ، الميداني ٢ : ٣٠٥ — ٣٠٦ ، ابن عساكر ٥ : ١٢٨ ، القلقشندي ٤١٩ ، ٢٥٤ ، ٣٨٨ ، ٢٨٨ ، الزركلي ٢ : ٣٤٨ .

(٥) العسكرى — ديوان ١ : ٧٤ ، وينظر الجاحظ — البخلاء ١٦٧ ، البيان ٢ : ٣٥٢ (وينظر ١ : ٢٧٤) ، الحيوان ٢ : ٩٥ (وينظر ١ : ٢٧٤) ، ابن قتيبة ٢ : ٧٣٥ .

فانْ تفخري يا جُمْلُ أو تتجملي فلا فخرَ إلاّ فوقه الدينُ والعقل
أرى الناسَ شَرعاً في الحياةِ ولا يُرى لقبْرٍ على قبر علاءٌ ولا فضل
وما ضرّني أنْ لم تلدني « يحابرٌ » ولمْ تشتمل جرمٌ عليَّ ولا عُكْلُ(١)

ذكر هذه الأبيات أكثر من مصدر دون أن يعلق عليها أو أن يربطها بالشعوبية ، ولكن الباحثين المعاصرين لنا ربطوها(٢) واشتدوا على الشاعر وزاد بعضهم أن نسب الربط إلى ياقوت(٣) — ولا صحة للنسب(٤) ، وما كان مناسباً أن يكون شعوبياً شاعر كأبي يعقوب وهو يمدح قائداً كعثمان الخريمي .

ظل الشاعر قريباً من عثمان يواصل المدح ويتلقى المال ويلقى الجاه(٥) . ثم كانت نهاية عثمان على غير ما يحب وهو القتل(٦) ، كما يبدو ، فرثاه(٧) .

وكان طبيعياً أن يلحق بأخيه أبي الهيذام .

وجمع أبو الهيذام بالشـام جمعاً عظيما ، فقد كان « أحد فرسان العرب المذكورين » وهو زعيم قيس في الفتنة التي وقعت بينهم وبين اليمن ، وقد

---

(١) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٠ ، ياقوت ، كلمة الصغد ـ واختلط على ياقوت الأمر فحسب ان الخريمي كان في عصر فيه صحابة .

(٢) احمد أمين ١ : ٦٦ ، حجاب ٣٠٥ ، وينظر الحاجري ٣٦٤ .

(٣) حجاب ٣٠٦ .

(٤) ينظر ياقوت . كلمة الصغد .

(٥) يبدو ان عثمان نزل سجستان عاملاً للرشيد بها كما يفهم من ابن الجراح ٢٣ ، والمرزباني ـ معجم ٢٥٦ .

(٦) ينظر المرزباني ـ معجم ٢٥٦ ، العباسي ١ : ٢٥١ ، ابن الجراح ٢٣ ، ابن عساكر ٧ : ١٧٦ .

(٧) دون أن يصل الينا الرثاء . وصلت أبيات تنسب لأبي الهيذام يرثي أخاه ، ينظر ابن الجراح ٢٣ ، ابن عساكر ٧ : ١٧٦ ، العباسي ١ : ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

غلظ أمره واشتدت شوكته وأعيت الرشيد الحيل فيه ، وكان إلى جواره ابنه خريم — وهو فارس شاعر — وكان ذلك عام ستة وسبعين ومائة .

ولكن الرشيد استطاع أن يقضيَ على الفتنة بمهارة موسى بن يحيى بن خالد بن برمك فقد ورد الشام وأصلح بين أهلها ، ولما انتهى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام ردّ الحكم في « الثائرين » إلى يحيى فعفا عنهم (١) ، قال ـ في ذلك ـ الخريمي أبياتاً امتدح فيها يحيى (٢) .

ولم نعلم — بعدها — من أخبار أبي الهيذام إلاّ أنه توفي سنة اثنين وثمانين ومائة (٣) ، وقد رثاه الخريمي(٤) ، وخلفه ابنه خريم فأقام عنده الشاعر يمدحه ويمجده ، حتى إذا توفي رثاه وأكثر من رثائه(٥) فقال :

... وقالوا: ألا تبكي « خريم بن عامر » فقلت على أن كان ذلك ينفعُ
سأبكي « أبا عمرو » لضيف مدقّعٍ وذي حاجة أعيى بها كيف يصنع
وكان لسانَ الحي قيسٍ ونابها وكانت به قيسٌ تضُرُّ وتنفع(٦)

---

(١) ينظر عن أبي الهيذام عامر بن عمارة بن خريم و«ثورته» بدمشق أيام الرشيد : ابن الجراح ٢٣ ـ ٢٤ ، ابن قتيبة ٢ : ٧٣١ ، الطبري III ٦٢٥ (وينظر الجهشياري ٢٠٦) ابن دريد ٢٨٩ ، المرزباني ـ معجم ٢٥٦ ، ابن عساكر ٧ : ١٧٦ ـ ، العباسي ١ : ٢٥١ ـ ٢٥٢ ولا تخلو الروايات من اضطراب .

(٢) الأبيات لدى الطبري III ٦٢٥ سنة ١٧٦ . وربما ورد الخريمي بغداد في هذا العام . ينظر البغدادي ١٤ : ٢٩٦ ، ابن عساكر ٤٣٥ .

(٣) ابن عساكر ٧ : ١٩٣ .

(٤) ابن المعتز ٢٩٣ ، ابن الجراح ١٠٣ — ولم يصل الينا رثاؤه ، كما يبدو .

(٥) ابن عساكر ٥ : ١٢٦ ـ ١٢٨ .

(٦) ابن عساكر ٥ : ١٢٦ ـ ١٢٧ .

وقال :

... وكان لنا الخليفة من أبيه · لينهض بالمهات الثقـــال (١)

وقال عينيته التي تعد من بدائعه ومن خير ما قال ويقال :

قضى وطَراً منك الحبيب المودِّعُ وحلَّ الذي لا يُستطاع فيُدْفَعُ
وأصبحتُ لا أدري إذا بان صاحبي وغودرتُ فرداً بعده كيف أصنع

* * *

وقالوا : ألا تبكي خُريمَ بنَ عامرٍ فقلت : وهل يُبكى الذلول الموقّع
لقد وَقذَتْني الحادثاتُ فما أرى لنازلة من ريبهـا أتوَجّع
صبرتُ وكان الصبرُ خيراً مغبّةً وهل جَزَعٌ أجدى عليّ فأجزع

* * *

ألم تَرَني أبني على اللَّيثِ بيتَهُ وأحثو عليه التربَ لا أتخشّعُ

* * *

وكان خريمٌ من أبيه خليفةً إذا ما دجا يوم من الشرِّ أشنع

* * *

وأعددته ذُخراً لكلِّ مُلِمَّةٍ وسهمُ المنايا بالذَّخائر مولع
بقية أقمارٍ من الغُرِّ لو خَبَتْ لظلَّتْ « معَدٌّ » في الدُّجى تتكسَّع
إذا قَمَرٌ منها تغوَّر أو خبـا بدا قمَرٌ في جانب الأفق يلمع
فلو شئتُ أن أبكي دماً لبكيتُهُ عليه ، ولكنْ ساحةُ الصبر أوسع
وإني ـ وإن أظهرتُ صبراً وحسبة وصانعت أعدائي ـ عليك لموجع(٢)

(١) ابن عساكر ٥ : ١٢٧ .
(٢) ابن عساكر ٥ : ١٢٧ - ١٢٨ وينظر ٢ : ٤٣٦ .

والقصيدة من رائع الشعر وبارعه وهي تبين عظم المصاب على الشاعر ومدى الحزن الذي ساوره وقد فقد سيداً كريماً وموئلاً شريفاً فقال ما قال صادقاً .

وابن عساكر الوحيد الذي أوصل إلينا القصيدتين الأوليين في رثاء خريم بن عامر ، والوحيد الذي أوصل القصيدة الثالثة بواحد وعشرين بيتاً صريحة على أنها للخريمي في رثاء خريم .

أما الآخرون (١) فقد أوردوا البيت والأبيات ، معجبين ، ولم يرد لديهم ذكر لخريم وربما وصلت إلينا روايات بعضهم على أن القصيدة في أبي الهيذام ، ويبدو أنها جازت على هذا خلال العصور ، وليس من دليل ، ولا دليل بعد رواية ابن عساكر وورود اسم خريم صريحاً فيها .

والمهم ، أن الدنيا ضاقت بالشاعر بعد هذا الفقد الجسيم ولم تعد له الشام دار إقامة (٢) ، ولعله أقام حيناً في الجزيرة الفراتيــــة ـ في ديار مضر ـ مثلاً ، وقد قيل فيه إنه « جزَرَي » (٣) وقيل « .. نزل الجزيرة والشام » (٤) ، ولا بد من التفكير ببغداد مقر الخلافة ومطمح النابهين .

---

(١) الجاحظ ـ الحيوان ٣ : ٩٤ ، ١٤٨ (وينظر ٦ : ٤٢٣) ، البيان ١ : ٤٠٦ ؛ المبرد ٢ : ١١٧٤ ، المرزباني ـ الموشح ٣٠٧ ، القاضي الجرجاني ٢٠٤ ، ٣٢٢ ، ٣٣٦ ، العسكري ـ ديوان ٢ : ١٧٥ ، المرزوقي ٣ : ١٠٥٣ ، عبد القاهر ١٢٦ ، ابن عساكر ٢ : ٤٣٦ ، النويري ٥ : ١٨١ ، العباسي ١ : ٢٤٦ ـ التبيان ٣ : ١٠ ، ٣٣٣ .

(٢) كان لأبي الهيذام عامر ولد آخر اسمه موسى ولكنه كان محدثاً ـ مات سنة ٢٥٥ ـ الذهبي ٤ : ٢٠٩ ، العسقلاني ـ تهذيب ١٠ : ٣٥١ ، تقريب ٥١٢ ـ ٥١٣ ، لسان ٦ : ٧٣٤ . ..

(٣) البغدادي ٦ : ٣٢٦ ، ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ .

(٤) البغدادي ٦ : ٣٢٦ ، ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ ـ ترى هل الخبر يعني التسلسل الزمني ؟ .

(٣)

« نزل بغداد »(١) و « سكنها »(٢) أيام الرشيد ، وبدأ يمهد لنفسه حتى كانت له مكانة ، وكان له صوت ؛ وورد في أخباره أنه « كان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيُعطى الكثير »(٣) ؛ وورد أنه اجتمع بعبد الله بن الرشيد (أي المأمون قبل خلافته) وكان عند عبد الله جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ومعه منصور النَّمري والعباس بن زفر(٤) ؛ وورد مرة أخرى أنه جالس جعفر بن يحيى والفضل بن يحيى(٥) وأنه مدح يحيى ابن خالد(٦) .

وبرز في صِلات الشاعر اسمان ، الأول : محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة . وكان « سخياً سرياً ، وكان الرشيد يسميه فتى المسكر »(٧) ، وكان للخريمي « فيه مدائح جياد »(٨) وصلت إلينا منها سبعة أبيات رائية يعترف فيها الشاعر بالنِّعم التي أولاه إياها ابن منصور(٨) . ثم مات محمد فرثاه الخريمي(٩)

---

(١) البغدادي ٦ : ٣٢٦ .
(٢) ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ .
(٣) ابن المعتز ٢٩٣ .
(٤) الأصبهاني ١٢ : ٢٠ - ٢١ .
(٥) الجهشياري ٢٩٣ .
(٦) الصولي ١١٧ .
(٧) الجهشياري ٢٦٦ . وكان أبوه كما يروي الجهشياري ٢٧٤ - « ضيّقاً بخيلا » .
(٨) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٢ .
(٩) ابن الجراح ١٠٣ - ١٠٤ : « ومن قوله .... أنشدنيه محمد بن القاسم ، قال ، أنشدني الرياشي ... » وينظر ابن قتيبة ٢ : ٧٣٤ ، عيون ٣ : ١٦٠ ، للمبرد - الفاضل ٩٠ ، الوشاء ، ٤٥ ، الجهشياري ٢٦٧ ، القاضي الجرجاني ٣٥٤ ، التبيان ٤ : ٦٥ .

والثاني : أبو علي الحسن بن التختاخ كاتب الفضل بن يحيى [١] ، وله فيه مدائح . ولما ولاه الرشيد مصر (وقد بلغها يوم الاثنين لثلاث خلون من ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين ومئة) قال بائية حسنة يتشوق بها إليه ، جاء في مطلعها :

ألا مبلغ عنّي خليلي ـ ودونَهُ ... مطا سَفَرٍ لا يطعَمُ النومَ طالبُهْ
رسالة ثاوٍ بالعراق وروحُهُ ... بفُسطاط مصرٍ حيث جمّت عجائبه
له كلّ يوم حنّةٌ بعد رنّـــةٍ ... يجيش بها في الصدر شوق يغالبه

ومنهـا :

أرى بعدَك الإخوانَ أبناءَ علّةٍ ... لهم نَسَبٌ في ودّهم لا أناسبُه
فهل يرجِعنْ عيشي وعيشَك مرةً ... ببغداد دهرٌ منصفٌ لا نعاتبه

والأبيات من رائع ما قاله مادح في التشوق إلى ممدوح ، إنهـا فوق « الرسميات » ـ كما تقول اليوم وهي تدل ، فيما تدل عليـــه ، على نفس الخريمي بين الإباء والسماح ، وعلى شخص الحسن بين التواضع والوداد [٢] .

ولما مات الرشيد (في جمادى الاخرى من السنة نفسها) وولي الخلافة ابنه الأمين عزل الحسن بن التختاخ ، فسار متوجهاً في طريق الحجاز ، لفساد طريق الشام ، وذلك يوم السبت لثمان بقين من ربيع الأول سنة

(١) الجهشياري ١٩٤ .

(٢) أورد القصيدة الحصري ٢ : ١٠٧٢ وينظر ابن قتيبة ٢ : ٧٣٤ ـ ٧٣٥ ، السكري ـ ديوان ١ : ٢٧٩ .

أربع وتسعين ومئة ... فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وشهراً وثمانية وعشرين يوماً »(١) .

ثم مات فرثاه الخريمي(٢) .

ولم تكن كل صلات الخريمي ببغداد صلات ود ومدح ، فقد يهجو ، وحسبك أنه هجا أبا دُلَف(٣) وأنه أغرى بعلي بن الهيثم الأنباري الكاتب(٤) .

أما علاقاته الأدبية فلا بد من أنها كانت واسعة ، وكانت علاقة الجاحظ به علاقة إعجاب وما يدل على ملازمة ما ، ومثلها علاقة أحمد بن عبيد بن ناصح المعروف بأبي عصيدة(٥) .

---

(١) مصدرنا الأول عن ولاية ابن التختاخ على مصر : الكندي ١٧٢ ـ ١٧٣ ، وينظر المقريزي ـ القسم الثالث ١٢٦ ، ابن تنري بردي ٢ : ١٤١ .
وقد وردت التختاخ لدى الجاحظ ـ البيان ١ : ٢٠٩ ، ابن الجراح ١٠٣ ، الكندي ١٧٢ ـ ١٧٣ ، المقريزي ق ٢ : ١٢٦ (وزاد انه التختاخ بن التخنكان) أما الجهشياري ١٩٤ ، وابن تنري بردي ٢ : ١٩٣ فقد وردت لديهما على «السحاح» وقد اقرها الحاجري ٣٦٣ كأنه يعتمد الجهشياري وفي الخبر الذي أورده الجهشياري ١٩٦ خلط واضطراب فهو يقول : ان الحسن « كان قد خدم المهدي وموسى وتقلد أيام موسى مصر ، وخدم بعده الرشيد ، وفارق عند توسط أيام البرامكة لسلطان وتخلى عن الدنيا وجاور بمكة ، فكتب اليه أبو يعقوب قصيدته الطويلة التي يقول فيها :
ألا بكرت تُلحى عليه تماتُبه تحدّثه طوراً وطوراً تلاعبه
وأكبّ على سماع الحديث » ـ وينظر الحاجري ٣٦٤ وقد اختار أن الخريمي بعث بها الى الحسن حين تقلد مصر في أيام موسى الهادي .

(٢) ابن الجراح ١٠٣ ـ ولم يصل الينا الرثاء . وينظر الجاحظ ١ : ٢٠٩ .

(٣) الجاحظ ـ البيان ٢ : ٣٥٦ ـ ٣٥٧ (ثلاثة أبيات) وأبو دلف هو القاسم بن عيسى بن معقل بن ادريس العجلي ، كان أميراً سيد قومه وقائداً شجاعا ـ ينظر الطبري ، ابن النديم ، ابن المعتز ..

(٤) ابن الجراح ١٠٥ ، ياقوت ـ معجم الأدباء ترجمة علي بن الهيثم ١٥ : ١٤٠ .

(٥) ابن بلنبر ، نحوي كوفي ديلمي الأصل من موالي بني هاشم ادّب ولد المتوكل وهو من رواة أصحاب الأشعار ، ومن مصنفاته « عيون الأخبار والأشعار » ، مات سنة ٢٧٨ (وقيل ٢٧٣) ، ينظر عنه اللغوي ٩٧ ، ابن النديم ٧٣ ، البغدادي ٤ : ٢٥٨ ـ ٢٦٨ ، القفطي ١ : ٨٤ ، ياقوت ٣ : ٢٢٨ ـ ٢٣٢ .

وورد له خبر عن مجلس فيه حماد عجرد وحماد الراوية [١]. وليس من المعقول أن نقول إنه نشأ في مجلسها كما فعل الأستاذ طه الحاجري إذ قال : « قد نشأ الخريمي في مجلس حمّاد الراوية وحمّاد عجرد . واتصل في أول نشأته بهذه الجماعة من الشعراء التي كانت تضم مطيع بن إياس ويحي بن زياد . ولعل هذه الصلة كان لها أثرها في الوجهة الشعرية التي توجهها » [٢] ، والدكتور محمد نبيه حجاب إذ قال : « إنه ، كما أشار أبو الفرج ، نشأ في مجلس حماد . . . » [٣] ؛ فقد بعد عهد الخريمي بالنشأة الأولى ، ولم نجد أن أبا الفرج الأصبهاني أشار إليها ، كما لم نجد في وجهة شعره ما يدل على تأثر لصلته بحماد وزمرته . لقد كان الخريمي « ظريفاً » ولكنه كان يتأله ، وينشد في شعره الفخامة والسمو والبعد عن أغراض المجون وكان يودّع الكهولة ، ويؤلمه الظلم وتؤذيه عوامل العبث . واتضح ذلك جلياً في أساه لما أصاب بغداد أيام الفتنة بين الأمين والمأمون .

(٤)

جعل الرشيد ولاية عهده في أولاده الثلاثة [٤] : محمد الأمين ثم عبد الله المأمون ثم القاسم المؤتمن ، وكتب بذلك وأشهد الشهود ، فلما توفي سنة ١٩٣ ، وآلت الخلافة إلى الأمين بدأ يعمل على خلع أخويه ونقل الولاية بعده إلى ابنه الطفل ، وقد فعل وسماه « الناطق بالحق » فكان ذلك بدءً لسلسلة

---

(١) الأصبهاني ٥ : ١٦١ وينظر ١٠ : ١٢٠ ، ١٥ : ١٠٤ ، ٢١ : ١٥٧ .

(٢) الحاجري ٣٦٣ في « تعليقات وشروح » ذيل بها تحقيقه كتاب البخلاء للجاحظ .

(٣) حجاب ٣٠٠ .

(٤) فصل الطبري أمر هذه الولاية وما تبعها من أحداث ، وهو مصدرنا الأساس في هذا التلخيص ينظر في أول أحداث سنة ١٧٦ III ٦١٠ .

من الفتن والحروب كانت الغلبة في جملتهـا للمأمون. وقد نال الناسَ من جراء ذلك عنت شديد وذهب منهم ضحيته خلق كثير .

وانصبَّ الشر بخاصة على بغداد إذ سارت إليها جيوش المأمون فذعر أهلها واضطربت أمورهم واختل نظامهم وعبث بهم العابثون و « نقب أهل السجونِ السجونَ وخرجوا وفتّن الناس ووثّب على أهل الصلاح الدُّعار والشُّطَّار فعزَّ الفاجر وذل المؤمن واختل الصالح وساءت حال الناس . . . حتى . . . خربت الديار » .

فلما دخلت سنة سبع وتسعين ومائة . . حاصر طاهر بن الحسين وهرثمة ابن أعين وزهير بن المسيَّب محمدَ الأمين فنُصبت المجـانيق والعرّادات ، واحتُفرت الخنادق ، ورُميت المحال بالنفط والنيران ، واستَشرى القتال ، فثقل الحصار على الأمين ، وقد فرّ من أصحـابه مَن فر ، واستأمن منهم إلى طاهر من استأمن ، وتفرق من تفرق ، ولم يبق معه إلا قلة يطمع أكثرهم بما بقي لدى الخليفة من مال ، وهم في الغالب ليسوا أهل رأي قدر ما هم أهل سلب وحب للقتال ، من « باعة الطريق والعراة وأهل السجون والأوباش والرعاع والطرّازين وأهل السوق ، وكان حاتم بن الصقر قد أباحهم النهب وخرج الهرش والأفارقه فكان طاهر يقاتلهم لا يفتر عن ذلك ولا يمله ولا يني فيه » . وهكذا عمَّ الفسـاد وذهبت معالم بغداد وذوت نضارتها واضمحل جانب العيش فيها .

سُميت تلك فتنة ، وهي كذلك وأكثر من ذلك ، إنهـا كارثة حلّت بعاصمة الحضارة والمدنية فقال الخريمي قصيدة طويلة تقع في خمسة وثلاثين ومائة بيت ، وصف ما آلت إليه بغداد تحت وطـأة الفتنة العـارمة (سنة ١٩٧) مطلعها :

قالوا ولم يلعبِ الزمانُ ببغـ ... ـداد وتَعْثُرْ بهـا عواثرُها

ومنها :

جنةٌ دنيا ودارُ مَغْبطةٍ قل من النائبات وائرهـا

* * *

أورد أملاكُنـا نفوسَهُمُ هُوّةَ غَيٍّ أعْيَتْ مصادرها
ما ضرّها لو وَقَتْ بموثقِها واستحلَمت التُّقى بصائرها
ولم تسافك دماءَ شيعتِهـا وتَبْتَذِلْ فِتيةً تكابرُها
وأقنعتها الدُّنيا التي جُمِعَتْ لها ـ ورَغبُ النفوس ضائرها

* * *

يا هل رأيتَ الجنانَ زاهرةً يَرُوقُ عينَ البصير زاهرُها

* * *

فإنهـا أصبحت خلايا من الـ إنسانِ قد دَميت محاجرُها
قفراً خلاءً تعوي الكلابُ بها يُنكِرُ منها الرُّسومَ داثرُها
وأصبح البؤسُ ما يفارِقُها إلفاً لها والسرور هاجرها

* * *

يا بؤسَ بغدادَ دار مملكة دارت على أهلها دوائرهـا
أمهلهـا الله ثم عاقبهـا لما أحاطت بهـا كبائرُهـا
بالخسف والقَذْف والحريق والـ حربِ التي أصبحت تساورها

* * *

حلّت ببغداد وهي آمنةٌ داهيةٌ لم تكن تحاذرهـا
طالعهـا السوءُ من مطالعه وأدركت أهلها جرائرُهـا

* * *

من يرَ بغداد والجنودُ بها قد ربّقَتْ حولها عساكرها

* * *

يعلمُ أن الأقدارَ واقعــةٌ وفقاً على ما أحبَّ قادرهـا
فتلك بغدادُ ما يُبنى من الـــدَّ له في دورها عصافيرها
محفوفةٌ بالردى منطّقةٌ بالصَّغر محصورةً جبابرهـا

. . .

والكرخ أسواقها معطّلةٌ يستنُّ عيّارهـا وعائرها
أخرجتِ الحرب من سواقطها آساد غيل غُلْباً تساورها
من البواري تراسُها ومن الـ خوص إذا استلأمت مغافرها
تغدو إلى الحرب في جواشنها الـ صُّوف إذا ما عُدَّت أساورها
كتائب الهرش تحت رايته ساعد طرَّرها مقامرها
لا الرزقَ تبغي ولا العطاءَ ولا يحشُرها للقـاء حاشرها

. . .

وهل رأيتَ الفتيان في عَرْصة الـ معرك معفورةً مناخرها
كل فتى مشــاعٌ حقيقتَه تشقى به في الوغا مساعرها
باتت عليه الكلاب تنهَشُه مخضوبةً من دم أظافرها
أما رأيت الخيولَ جائلةً بالقوم منكوبةً دوائرهــا
تعثُرُ بالأوجه الحِسان من الـ قتلى وغُلَّت دماً أشاعرها
يطأن أكبادَ فتيةٍ نجُدٍ يَفْلِقُ هاماتهم حوافرها
أما رأيت النساء تحت المجا نيق تعادي شُعْثاً ضفائرها
عقائلَ القوم والعجائزَ والـ عُنَّسَ لم تخبر معاصرهـا
يحملن قوتاً من الطحين على الـ أكتافِ معصوبةً معاجرها
وذات عيش ضنك ومُقْعِسة تشدَخُها صخرةٌ تعاورها(١)

(١) ومُقعسة : في نسخة مقعسة .

تسأل عن أهلها وقد سُلبت   وابتُز عن رأسها غفارُها
يا ليت ما والدهرُ ذو دُوَلٍ   يُرجى وأخرى تُخشى بوادرُها
هل تَرجِعَنّ أرضُنا كما غنيت   وقد تناهت بنا مصايرُها ...

ولهذه القصيدة أكثر من أهمية ، فهي تصور ما حل ببغداد تصويراً يقنعك بأنه الذي وقع ، وأن الشاعر لم يكن أكثر من امرئ سجل ما حدث دون تزيد ، ودون أن تشغله الكليات عن جزئيات الأسماء والوقائع والفئات ، ومن أدلة قيمتها التأريخية أن الطبري نقلها كاملة ، وهو الرجل الذي تهمه الروايات فعدها رواية ، ورواية صادقة(١) .

سجل الأحداث رجل يعرف بغداد تمام المعرفة ، في خيرها وشرها ، وفي نعيمها وبؤسها ، فكانت ـ بذلك ـ أبياته التي تصور حياة الترف وثيقة أخرى لما كانت عليه بغداد (قبل الفتنة) . وقد دعاه إلى تسجيل هذا الجانب عامل المقابلة بين ما يرى ورأى ، وعامل فني يُظهر الفرق الهائل بين ما هو كائن وما كان ، فيتضح أثر الفتنة ويبدو سوؤها ولا بد من أن يكون هذا العامل قائماً في نفس الشاعر .

ولم يكن أبو يعقوب من دعاة الفتنة ، ولم يكن راضياً عما حل ببغداد وبأهل بغداد ، وإنما كان ساخطاً متألماً متحسراً ثائراً ، وموقفه موقف الرجل العاقل الحكيم المجرب الذي يتأمل الأسباب والنتائج ويلتزم جانب المنطق فيزيده ذلك تألماً لآلام الآخرين ، وتقض مضجعه أعمال الطيش والاعتداء ، موقف الرجل الخيّر الذي لا يرتضي الشر يعم الناس ، ولا يرضى الفتنة

(١) أما ابن الأثير ٥ : ١٥٩ فقال : «وقال الحريمي قصيدة طويلة نحو مائة وخمسين بيتاً أتى فيها على جمع الحوادث ببغداد في هذه الحرب ـ تركتها لطولها» . وقد ورد الحريمي لديه على : الجرمي . وهو تصحيف . وينظر ابن كثير ١٠ : ٢٣٩ .

أن تقع . وإذا قامت فتنة فإنها لا تعرف جائراً ومهتدياً ولا تميز مخطئاً من بريء ، ولا يسود فيها إلا الأشرار من كل صنف .

ولا أدل على عقله من أنه عرض مظاهر الأسى في الفتنة على وجه يكرهها ويشنعها ، وأنه لم يشتف بجهة من الجهات ولم يجعل وكده شتماً أو سباً . ومع أنه كان أقرب إلى المأمون وكان يرى الحق إلى جانبه فان الذي شغله ، أكثر ما شغله ، وكل ما شغله ، مظاهر الفتنة وما سببت من خراب ودمار وجوع وما أشاعت من أذى وظلم واعتداء .

لقد كان « إنسانياً » في قصيدته ، وإذ صوّر فتنة بعينها فلقصيدته قوة تبشع بها كل فتنة ، وتدعو عقلاء القوم إلى الحذر من الفتن والعمل على تجنب وقوعها .

ولم يكن الخريمي سيء القصد أو سيء النية ولم يقصد إلى أن يتملق حاكماً أو أن يحصل بشعره مالاً أو جاهاً وإنما سجل ما أحس وأرخ ما علم هادفاً إلى صالح عام . إنه شاعر ناصح غيور ، وكان الموقف أكبر من التفكير بعرض الدنيا وأكبر من الانتهاز ، وأكبر من الأمين والمأمون ، وأكبر من أن يستغله شريف لمآربه الخاصة وحاجاته القريبة .

إنه إذ ذكر المأمون ذكره عابرا ، وإذ ذكر وزيره ذا الرياستين (الفضل بن سهل) رجاه أن يسود العقل ودعاه إلى إحقاق الحق ، وألاّ يأخذ البريء بالمذنب ، وأن يتولى العامة برعايته وعفوه . إنها نصيحة جليلة . ثم إنه لم يتقدم بقصيدته إلى القادة الفاتحين .

ولا تقل الأهمية الشعرية للقصيدة عن الأهمية التأريخية ، فقد جمعت مزايا جمة تحلها محلاً مرموقاً وترتفع بها عن مستوى النظم والتقرير والوعظ الرخيص ؛ ودلّت على أن صاحبها من كبار شعراء العربية وأن رائيته جديرة أن تنال حقها من العناية فتحسب في عداد مختارات العصر، فكم لنا مثلها !

القصيدة طويلة ولكنها لم تفقد توازنها بين المبدأ والمنتهى ، ولم يجن الطول فيها على النفس ، وإنما بقيت شعراً ، وإلاّ فلا يكفي الطول وحده في بلاغة الأشياء .

واستعان الشاعر ــ بقصد وبغير قصد ــ بعرق من النثر في الأسلوب ، فجعل قصيدته أقرب إلى السرد والقصص ، وجعل عبارته أقرب إلى عبارة الكاتب المتحدث مما أعانه على التفصيل وعلى الربط بين الأجزاء وعلى تشعيب الكلام وتفنينه ؛ ولكنه ، على الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من البحر المنسرح الذي نظم عليه ، لم يخرج عن العرق الشعري ، أي أن كلامه لم يستحل نثراً يؤول بالشعر إلى الجفاف والهلهلة ، ويودي بالموسيقى والخيال .

إن الذي أدار دفة القصيدة أستاذ متمكن ، عارف بأسرار اللغة وأسرار التراكيب ، وقد جرّب طويلاً في البنـاء . وإنه لم يقل الشعر لكي يقال إنه شاعر ، ولم يُطل لكي يقال إنه طويل النفس ، وإنما قال لأنه متأثر متألم متأجج العاطفة في حزنه وأساه ، عميق الحسرة ، شديد « النبرة » ، وقد ترك عاطفته حرّة في الإبانة والظهور وسار معها آنّى سارت حتى إذا قاربت أن تهدأ هدأ ووقف . وقد كانت عوامل الألم في النفس الإنسانية مبثوثة في كل مكان لا تكلف المرء في البحث عنها ، وكانت مظاهر الفتنة عديدة ومتنوعة ومتجددة فإذا استدعت مقابلة بما كان قبلها من نعيم ازدادت تعدداً وكان حديث الشاعر عنها متنوعاً داخل الإطار العام مما يزيد القارىء شداً إلى القصيدة وتأثراً بها وانسياقاً معها .

إنها جديرة أن تعد في المعلقات ، لو كنا في عصر المعلقات . ترى أين كان كبار شعراء العصر العباسي عن أمثالها !

(٥)

كان الرجل يطيل التأمل في الناس ويميل إلى التبصر في أمور الدنيا والتفكير بالآخرة ؛ وفي الأحداث العامة ما يبعث النفس على ذلك ؛ ويكفي أنه شهد الفتنة ، فاذا جدّت أحداث خاصة ازدادت النفس رقة ومالت عما يشغل الناس به كيانهم من طمع .

ومن أحداث الخريمي الخاصة في هذه المرحلة من العمر ، هذه الشيخوخة التي ألقت بكلكلها عليه ، وهذا الموت الذي نزل بأخيه :

أقول لعيني إن يكن ملَّ مُسعدي فأيتها العينُ السخينة أسعدي

. . .

نظرت إليه فوق أعواد نعشه بطروفة حيرى تجور وتهتدي[١]

ثم نزل بابنه :

ألا كلُّ عيش بعد فرقة أحمد وكلُّ سرور ـ ما بقيت ـ ذميم[٢]

وكان فقده عينه الثانية من أقسى ما ألمّ به وأشعره بالعجز ، فأكثر من النظم في رثائها وسار شعره في ذلك واشتهر ، ومنه قوله :

---

(١) روى ابن عساكر ٢ : ٤٢٧ ستة أبيات في رثاء أخيه .

(٢) تقع المرثية في ٢٣ بيتاً أثبتها ابن عساكر ٢ : ٤٣٦ ـ ٧ برواية ابن أبي الدنيا ، وهو أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد وكان قرشياً في ولاء ، وكان يؤدب للمكتفي ، وكان ورعاً زاهداً ، عالماً بالأخبار والروايات توفي يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من سنة ٢٨١ وقيل ٢٨٢ ينظر الكتبي (محمد بن شاكر) ـ فوات الوفيات الخ . محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، (مطبعة السعادة) ١٩٥١ ح ١ : ٤٩٤ ـ ٤٩٥ ، ابن كثير ١١ : ٧١ س ٢٨١ .

أصغي إلى قائدي ليُخبِرَني ... إذا التقينا عمّن يُحيّيني

أريد أن أعدلَ السلام وأنْ ... أفصلَ بين الشريفِ والدُّونِ

أسمع ما لا أرى فأكره أنْ ... أخطِئَ ، والسمعُ غيرُ مأمون

لله عيني التي فُجِعتُ بها ... لو أنَّ دهراً بها يواتيني

لو كنتُ خُيِّرتُ ، ما أخذتُ بها ... تعميرَ « نوح » في ملك « قارون »

حقٌّ أخلاّئي أن يعودوني ... وأن يُعَزّوا عنّي ويبكوني(١)

إنه مكروب دون شك ، ولكنه في مستوى اجتماعي حسن يدل على مال وجاه وعز . وعرض نفسه على الطبيب تلو الطبيب ، وهم يعِدونه خيراً ، حتى يئس منهم وبدا يستشعر النهاية :

إذا ما مات بعضُك فابكِ بعضاً ... فان البعض من بعضٍ قريبُ(٢)

---

(١) الجاحظ ـ الحيوان ٣ : ١١٣ ؛ ابن قتيبة ٢ : ٧٣٣ ، عيون ٤ : ٥٧ ؛ ابن الجراح ١٠٤ ، الصفدي ٧١ (أورد الصفدي الأبيات في مقدمة كتابه « نكت الهميان في نكت العميان » ولم ترد للخريمي ترجمة فيه ، ولا في كتابه الثاني « الشعور بالعور » ، مخطوط في مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة برقم ١٢٨ من قسم كتب التاريخ ـ وقد استعنت على مراجعته بأحد المدنيين) .

(٢) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٣ ، ابن الجراح ١٠٤ ، الأصبهاني ١٥ : ١٠٤ ـ ١٠٥ (أخبار أبي الشيص) ، العباسي ١ : ٢٥٣ .

وتنظر أبيات أخرى قالها في فقده عينه لدى ابن قتيبة ٢ : ٧٢٢ ، ٤ : ٥٧ ؛ الصفدي ٧٢ ؛ العباسي ١ : ٢٥٢ ، وينظر المقابلة الجاحظ ـ الحيوان ٣ : ١١٣ ـ ١١٤ .

كان يشعر ضيقاً شديداً ويحس بغربة خانقة ، مع أن الناس باقون على احترامهم إياه ووفائهم له ؛ ولكنها الحالة النفسية التي يعانيها :

كفى حَزَناً أن لا أزور أحبَّتي ... من القُرْبِ إلا بالتكلُّف والجهدِ
وإني إذا حييت ناجيتُ قائدي ... ليعدِلني قبلَ الإجابة في الردِّ
إذا ما أفاضوا في الحديث تقاصرتْ ... بيَ النفسُ حتى ما أحير وما أبدي
كأني غريب بينهم لستُ منهمُ ... وإن لم يحولوا عن وفاءٍ ولا عهدِ
أقاسي خطوباً لا يقوم بثِقْلها ... من الناس إلا كلُّ ذي مِرَّة جَلْدِ[١]

ونحن نعلم أن الخريمي « عمي .. في آخر عمره »[٢] و « بعد ما أسن »[٣] ، ولكننا لا نملك من المصادر ما يعيّن سني العمر أو تاريخ الوفاة أو مكانها ، ولعله توفي ببغداد بعد أن نيّف على الثمانين[٤] .

وقد ذكر أحد المؤلفين المعاصرين لنا أن الخريمي مات سنة ٨١٥ — ٨١٦ للميلاد[٥] أي ما يمكن أن يساوي عام الـ ٢٠٠ للهجرة ؛ وقال آخر إنه توفي سنة ٢١٤ للهجرة[٦] ، ولم يدُلا على مصدرهما .

---

(١) الجاحظ ـ الحيوان ٧ : ١٥١ ـ ١٥٢ . وقد وردت فيه وإن لم يحولوا ، على : فان لم يحولوا .
(٢) ابن الجراح ١٠٤ .
(٣) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٢ .
(٤) وقد يعني التعمير العيش أكثر من المئة ـ ينظر السجستاني ـ المعمّرون .
(٥) بروك ١ . ٢٦٨ . . .
(٦) محقق كتاب ابن المعتز ٥١٧ .

ويمكن القول إن الحريمي عاش أكثر من ذلك .

وتبقى المسألة خاضعة للنقاش ؛ ويبدو أن خبر وفاة أبي يعقوب فقد مبكراً(١) . كما لم نعلم عن أعقاب الشاعر شيئاً(٢) .

(يتبع) الرياض — جامعة الرياض الدكتور علي جواد الطاهر



(١) فلم يعن به مصدر من هذه المصادر الكثيرة التي تسير في نظامها على السنوات ، وفي مقدمتها الطبري الذي لا يجهل الحريمي . ولعل عمى الحريمي وشعوره العميق بالعجز دفعاه إلى أن يعتزل الناس ويموت منسياً أو شبه منسي .

(٢) وقد يكون أعقب مالاً وما إليه ، لكننا نجهل كل شيء من أولاده بعده ، وممن يكونه « يعقوب » .

طرر على معجم الأدباء

أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت

طبعة الأستاذ مرجليوث سنة ١٩٠٧ م

— ٥ —

(المجلد الأول)

٣٨٨ : ١٥ الزلّة ما يحمل من المائدة من الطعام لغة عراقيّة وهي بالفارسيّة أيضاً ، (٢ : ٢/٢٥٣) .

٣٨٨ : ١٧ الصواب : ومُسْمِيمةٌ وحُكّ ح(٢) .

٣٨٩ : ١٠ لعل الصواب دانت له الحِكَمُ أو واتت .

٣٩٠ : ٩ غرس النعمة في الهفوات (ورأيت منه نسختين باستنبول) والتنوخي في النشوار ١ : ٢٠٥ ، (٢ : ٢٥٦ / ٦) .

٣٩٠ : ١٠ النشوار أبو الحسين بن عيّاش ، (٢ : ٢٥٦ / ٨) .

٣٩٠ : ١٤ النشوار حتى أجلسكما على لبود وأطعمكما طباهجة بكُبود الخ ، (٢ : ٢٥٦ / ١٢) .

٣٩٠ : ١٥ النشوار غناء الممدود ، (٢ : ٢٥٦ / ١٥) .

٣٩٠ : ١٩ (ولن) ليس في النشوار .

٣٩١ : ٣ النشوار حُبّاً للصبيّ ، (٢ : ٢٥٧ / ١٠) .

٣٩١ : ٤ الصواب : فطربَ كالنشوار .

٣٩١ : ١١ الصواب : وحالفه كالخطيب وعنده بسِنِين و (عظم النعمة) ، (٢ : ٢٥٨ / ٦) .

٣٩١ : ١٦ الصواب : وفي غضار كالخطيب وعنده موارد . والغضارة تأتي على الصواب في ص ٣٩٥ ، (٢ : ٢٥٨ / ١٢) .

٣٩٢ : ١١ الصواب في الخطيب : وغناء مغنّية أحضرتها له كنت آلفُها ، (٢ : ٢٦٠ / ١) .

٣٩٢ : ١٣ الصواب محفته ، (٢ : ٢٦ / ٤) .

٣٩٣ : ١١ المَصوص : طعام من لحم ينقع في الخلّ ثم يطبخ .

٣٩٤ : ٩ الصواب : للقاء ثم منعني .

٣٩٦ : ٨ الصواب : يا ابن الكبير ، (٢ : ٢٦٧ / ٦) .

٣٩٧ : ٦ لعله (إلى خِلّ لنائله) أو (ونائِله) ، (٢ : ٢٦٩ / ٥) .

٣٩٧ : ٧ أبو علي المحسّن في النشوار ١ : ٢٠٣ ، (٢ : ٢٦٩ / ٧) .

٣٩٧ : ١١ افتديتها وفي النشوار أقريتها ، (٢ : ٢٦٩ / ١٢) .

٣٩٨ : ٢ الصواب : في النشوار وأسرج لي وعنده (أكلت شيئاً) .

٣٩٨ : ٨ الصواب : عن تشعيثه كالنشوار ، (٢ : ٢٧١ / ٣) .

٣٩٩ : ٣ النشوار تَبَكَّر ، (٢ : ٢٧٢ / ٦) .

٣٩٩ : ٤ كارة كالنشوار ما يحمل على الظهر ، (٢ : ٢٧٢ / ٨) .

٣٩٩ : ٩ النشوار عليك الكثير ، (٢ : ٢٧٢ / ١٤) .

٤٠٠ : ١ الصواب : النشوار فلما أصبحنا .

٤٠٠ : ٢ الصواب : وفي الآخر كالنشوار ، (٢ : ٢٧٤ / ١) .

٤٠٠ : ٤ قال أبي التنوخي في نشواره ١ : ٢٤٩ ، (٢ : ٢٧٤ / ٥) .

٤٠٠ : ٨ النشوار كان طاوي سبع وأراه الصواب ، (٢ : ٢٧٤ / ١٠)

٤٠٠ : ٩ النشوار يرمقه بغيظ ونحن الخ وهو الوجه ، (٢ : ٢٧٤ / ١١) .

٤٠٣ : ١٢ الصواب : غِلالته وهي ثوب ، (٢ : ٢٨٠ / ٥) .

٤٠٥ : ٤ الصواب : باب الأزَج من محالّ بغداد .

٤٠٥ : ٦ الصواب : حذا فيها حذو الحريري ، (٢ : ٢٨٢ / ١٥) .

٤٠٥ : ١٠ مراتب النحويين نسخته الفذّة ص ١٣٤ . وترجم الزبيدي ١٢٧ لأبي نصر ، (٢ : ٢١٣ / ٦) .

٤٠٥ : ١١ المراتب : جعفر بن محمد يتكره ، (٢ : ٢٨٣ / ٧) .

٤٠٧ : ٤ لترجمته الفهرست ١٠٤ .

٤٠٨ : ٤ البيت مختلّ الوزن ، (٣ : ٥ / ١) .

٤٠٨ : ٨ الخطيب ١٧٩٣ والصواب : سمع من المدائني ، (٣ : ٥ / ١٠).

٤٠٨ : ١٤ البيتان في الفهرست ورسالة الحجاب في طراز المجالس ٩٢ ، (٣ : ٦ / ٤) .

٤٠٩ : ١ الأبيات عند الطبري سنة ٢٥١ ستة عشر .(٣ : ٦ / ١٢) .

٤٠٩ : ٥ الصواب : (في بشر حاجب الخ) .

٤١٠ : ١٩ الصواب : (إنما هو لحُسن) .

٤١١ : ٥ الصواب : على ما في النزهة ٣١٥ والبغية ١٣٠ (أحمد بن الحسن) ، (٣ : ١١ / ١) .

٤١١ : ٩ الصواب : (أبي بكر بن السرّاج) .

٤١١ : ١٨ الصواب : على ما في المنتظم ٧ : ١٦٥ صاحب الفلسفة وترجم له هو والجزري في القراء رقم ٢٠٨ .

٤١٢ : ٧ الصواب : بن خُزَيمة .

٤١٣ : ١ الصواب : مُشكان ترجم له ابن الجزري ٣٦٢٨ قال ويقال بالسين أيضا ، (٣ : ١٤ / ١٢) .

٤١٣ : ٧ وفي القراء رقم ٣٩٠ علي بن عبيد الله بن عمر وكذا المنتظم ٩ : ١٣٥ رقم ٢٠٨ والشذرات ، (٤ : ٤٦ / ١) .

٤١٤ : ٥ أبو علي الصدفي هذا رواية مكثر ولابن الأبار معجم في أصحابه وطبع باسبانيا ، (٤ : ٤٧ / ١٦) .

٤١٤ : ١٦ طبقات المفسرين للسيوطي رقم ٥ ، (٤ : ٤٩ / ١) .

٤١٥ : ١٤ ينابيع اللغة هذا رأيت مجلده الأول بدهلي عند السيد الجعفري وتاج المصادر طبع مراراً بيومباي ولكنو ودهلي ، (٤ : ٥٠ / ١١)

٤١٦ : ٧ الصواب : لغوياً ناسباً لأنه كان من علماء الأنساب . هذا وللرشيد ترجمة في الوفيات والطالع السعيد ٤٧ والشذرات سنة ٥٦١ و ٥٦٢ هـ . ويأتي أخوه ٣ : ١٥٧ وكنيته في الطالع والشذرات أبو الحسن . قال الأدفوي وقد وقفت على محضر كتبه باليمن فيه خط جماعة كثيرة إنه لم يدّع الخلافة وأنه مواظب على الدعوة للخليفة الخ ، (٤ : ٥٢ / ٣) .

٤١٦ : ١٧ الصواب : أمنية الألمعي ومنية المدعي وتعرف بالمقامة الحسيبية طبعها الصديق O. Rescher سنة ١٩١٤ م في المجلة Le Monde Oriental عن كتبخانة راغب باشا (أدبيات رقم ١١٥٩) في ١٣ ص والأصل مع الشرح في ٢٥٩ ورقة ومنها نسخة بالخالدية ، (٤ : ٥٤ / ١١) .

٤٢٠ : ٣ الصواب لعله : فتَرَبَّدَ وجه .

٤٢٠ : ١٧ أولها راجع له ٣ : ١٥٨ فالصواب هكذا : (عن قصيدته أي المهذب التي أولها :

يا ربع أين ترى الأحبة يمّموا [هل أنجدوا من بعدنا أم أتهموا])
رحلوا فلا خلت المنـــازل منهم ونأوا فلا سلت الجوانح منهم

أعني أن قصيدة المهذب أولها يا ربع البيت وأول كلمة الرشيد رحلوا البيت .

وانظر الشذرات سنة ٥٦٢ هـ وفيه في البيت الثاني قد كتموا النداة وهو الصواب ، (٤ : ٦٢ / ١١) .

٤٢١ : ١٣ الصواب : سهرت كما في الشذرات ، (٤ : ٦٤ / ٦) .

٤٢٣ : ١١ عُصرة المنجود في بيت أبي زُبيد في جمهرة الأشعار ١٣٨ ، (٤ : ٦٨ / ١١) .

صاديا يستغيث غير مغاث ولقد كان عُصرة المنجودِ

٤٢٤ : ١٧ الصواب : بالحريم الطاهري .

٤٢٥ : ٣ الصواب : أبي الحسين المبارك (٤ : ٧١ / ٩) .

★ ★ ★

(المجلد الثاني)

٣ : ٤ لُغدة هذا تأتي ترجمته ٣ : ٨١ ، (٤ : ٧٢ / ١١) .

٣ : ٥ الصواب : عبد العزيز بن دلف . . . ودونها ، (٤ : ٧٣ / ١) .

٣ : ١٢ الصواب : من مُحجْرها .

٤ : ١٤ الصواب : ودبّ البِلَى .

٥ : ١٢ الصواب : أشمار كثيرة .

٦ : ١ الصواب : عدَسْ من زجر البغال وح (١) غلط ، (٤:٧٩/٢).

٦ : ٦ الحاشية (٢) غلط .

٦ : ٩ ابن الجوزي في المنتظم ٧ : ١٠٣ رقم ١٣٧ وانظر لابن فارس اليتيمة ٣ : ٢١٤ الوفيات النزهة ٣٩٢ الدمية ٢٩٧ طبقات المفسرين للسيوطي رقم ٦ فهرست الطوسي رقم ٧١ البغية ١٥٣ . وقوله (مات سنة ٣٦٩

وقال الخ) هذا كله من قول ابن الجوزي وفي البغية عن الذهبي أنه توفي سنة ٣٩٥ قال وهو أصح ما قيل في وفاته على ما يأتي هنا أيضاً ص ١٢ ، (٤ : ٨٠ / ٢) .

٦ : ١٤ الصواب : على كتاب تمام الفصيح ومعلوم أن الفصيح ليس له وإنما له تمام فصيح الكلام وهو في معنى فائت الفصيح لأبي عمر الزاهد وكنت نسخته في ٢١ صفحة سنة ١٣٤٨ هـ عن نسخة ياقوت صاحبنا نقلها سنة ٦١٦ بمرو الشاهجان عن نسخة ابن فارس بخطه في رمضان سنة ٣٩٣ (لا ٣٩١ كما هنا عنه) بالمحمدية وهي حصن باري هذا وطبعة الصاحبي بسنة ١٣٣٨ أصلها عن نسخة عليها خط المؤلف بالمحمدية سنة ٣٨٢ رأيتها بعيني في كتبخانة ولي الدين بجامع بازيد في استنبول .

٦ : ١٧ الصواب : عن أبي بكر . . . . . . راوية ثعلب كما في النزهة

٧ : ٦ الصواب : ممّن رُزق . كما نقله غير واحد .

٧ : ١١ و ١٧ جعل الكتاب الواحد (فقه اللغة الصاحبي) كتابين . طبع من المجمل جزء . والصواب مقدمة في النحو . في النزهة والبغية كتاب دارات العرب . وكتابه في السيرة هو كتيّب صغير كان طبع قبل القرن الحاضر ببومباي على الحجر . ويوجد بأياصوفيا التذكرة السعدية نقل مؤلفه في كل باب عن حماسة ابن فارس أشياء . وأما مقاييس اللغة له فانه يوجد بالعجم والنجف ومصوّراته بمصر ودمشق رأيته ، وذكر ابن خير ٣٧٤ كتاب التاج له ورأيت بخزانة لالهلي ١٧١٦ شرحه على الحماسة الجزء الأول واستنسخ صديقنا أحمد صافي النجفي شاعر العراق أيام مقامه بطهران كتاب الأنواء لابن فارس وهو في ١٣ ورقة . وله المذكر والمؤنث بالتيمورية .

٨ : ٢ خلق الانسان طبع بمجلة لغة العرب ببغداد فبراير ١٩٣١ م في ست صفحات . وطبع بمجلة Islamica كتاب اللامات ص ٨١ — ٨٨

سنة ١٩٢٤ م وطبع العاجز مقالة كلاً له في ثلاث رسائل مصر ١٣٤٤ هـ (٤ : ٨٤ / ١٣) .

٩ : ١٣ اليتيمة فلس إفلاس ، (٤ : ٨٧ / ١٣) .

١٠ : ٢ الصواب : إلاّ .

١٠ : ٥ حفظي من شرح المتنبي للعكبري ففعلك للخير قل لي متى ، (٤ : ٨٨ / ١٥) .

١٠ : ١٣ الصواب : أحمد بن فارس بن زكريّا ، (٤ : ٨٩ / ١٠) .

١١ : ١ الغلابي لعله محمد بن زكريا المترجم له في لسان الميزان برقم ٥٧١ والفهرست ١٠٨ وهو ضعيف توفي بعد ٢٨٠ هـ ، (٤ : ٩٠ / ٣) .

١١ : ٦ وذكر في ٣ : ٤٩ قصيدة أخرى في مثل معناها للفارقي وترى في تاج العروس أن معاني العين أوصلت إلى ٥٠ وهي كالخال ، (٤ : ٩٠ / ٩) .

١١ : ١٠ الصواب : تدني مشمشمةً ، (٤ : ٩١ / ١) .

١٢ : ١٢ من ثلاثة أبيات لامرأة من طيء خرّجناها في السمط ٢٧٢ ، (٤ : ٩٣ / ٣) .

١٣ : ٤ ابن بابك هذا له ترجمة في اليتيمة ٣ : ١٩٤ والمعاهد ١ : ٢٤ ورأيت الجزء الثاني من ديوانه بكتبخانة لا له لي (د — ش) برقم ١٧٥٧ ، (٤ : ٩٤ / ٤) .

١٣ : ٩ نواكم لا غبار عليه .

١٤ : ٢ الصواب : أبا الحسين ، (٤ : ٩٦ / ٣) .

١٤ : ٣ الصواب : موضع الخلال ، (٤ : ٩٦ / ٤)

١٥ : ٦ الصواب : الحُباب ، (٤ : ٩٩ / ٣) .

١٥ : ١١ البغية ١٥٣ علي بن لال ، (٤ : ٩٩ / ٩)

١٥ : ١٧ الصواب : وناولتُها .

١٦ : ٥ السمعاني في الأنساب ٦٠ وابن الجزري في القراء رقم ٤٤٠ ، (٤ : ١٠١ / ١) .

١٦ : ٩ السمعاني (من أبي عبد الله محمد بن إسحق بن منده الحافظ وأبي إسحق إبراهيم بن عبد الله بن خُرْسَنْد قوله (؟) التاجر) وفيه بعض الصواب ، (٤ : ١٠١ / ٧) .

١٦ : ١٨ الصواب : ابن يزيد أبو بكر . ترجمته عند الخطيب برقم ٢٢٠٩ ولسان الميزان ج ١ رقم ٧٧٦ .

١٧ : ٣ الخطيب : وتواريخ أصحاب الحديث ، (٤ : ١٠٤ / ٢) .

١٧ : ١٢ الصواب : وأبو عبيد الله ، (٤ : ١٠٤ / ١٠) .

١٧ : ١٤ الخطيب : للأخبار والسِيَر ، (٤ : ١٠٥ / ١٤) .

١٧ : ١٧ الخطيب : عن فضل إنعام وقُبح أثام أي ان فضل الإحسان وقبح الإثم مما لا يختلف فيه اثنان وما هنا مصحَّف ، (٤ : ١٠٦ / ٥) .

١٨ : ٣ الخطيب : على الأخبار .

١٩ : ٤ المنتظم ٨ : ٨٣ الضبي ٤٦٢ الصارع ١٩٤ تزيين الأسواق ١٦٢ الواضح المبين ٩١ ، (٤ : ١٠٩ / ١) .

١٩ : ٥ ولا أدري الخ وذلك أن راوي الخبر هو محمد بن الحسن المذحجي الزبيدي وتوفي ٣٧٩ كيف يشاهد وفاة ابن كليب سنة ٤٢٦ ، (٤ : ١٠٩ / ٣) .

٢٣ : ٢ قال القائل هو أبو محمد بن حزم ، (٤ : ١١٥ / ١٤) .

٢٣ : ١٤ التزيين ١٧٠ وديوان الصبابة بهامشه ٢٥٠ (سعيد) في المظان كلّها ، (٤ : ١١٦ / ١٤)

٢٤ : ٣ الصواب : مبرِّحاً وجعل يعمل ، (٤ : ١١٧ / ٨) .

٢٥ : ١٣ الصواب : عليه مسرحه .

٢٦ : ٩ الخبر في المصارع ١٥٩ و ٤٠٠ و ٣٤١ والتزيين ١٦٣ وديوان الصبابة ٢٥٢ عن معجم الأدباء . وترجم الخطيب لمدرك هذا ٧٢٣١ وسماه ابن محمد أبا القاسم الشيباني وله ترجمة في هذا السابع المنحول من الأدباء رقم ٨٨ ، (٤ : ١٢٢ / ١٠) .

٢٧ : ٥ القصيدة في مائة بيت .

٢٨ : ٩ خبر الأحول أحمد المحرر من وزراء الجهشيارى في بدائع البدائة ١٢٧٨ هـ ص ٢٧ . وانظر للأحول المحرر ٢ : ٢٢٥ ، (٤ : ١٢٦ / ٧) .

٢٨ : ١٦ الصواب : ولكن أعطيه ، (٤ : ١٢٨ / ٤) .

٢٩ : ١ الصواب : كلّ ماكان .

٢٩ : ٩ الصواب : ريطة ، (٤ : ١٢٩ / ٧) .

٣٠ : ١٢ الفهرست في الأثواب منبطح .

٣٠ : ١٦ الصواب : أبي عبد الله محمد كما في الفهرست ، (٤ : ١٣٢ / ٦) .

٣٠ : ١٧ الصواب : البرقي القمّيّ ، (٤ : ١٣٢ / ٧)

٣٢ : ٢ الصواب : كتاب الزجْر .

٣٣ : ١٩ يعني لا غبار عليه بمعنى يضرب به كالعصا ، (٤ : ١٣٨ / ١) .

٣٤ : ١٥ ابن عساكر حننت وهو الصواب وحبت وحللت تصحيفتان .

٣٥ : ١٤ وله بيتان آخران في حروف المعجم ذكرهما الزبيدي أيضا :ـ (٤ : ١٤٢ : ١٣) :

فطلبتها ومضى الفرزدق ظاعنا إذ صحّ شخص بالمعيشة كهمسا
حجّ الرُعيّ بخُنث ظاعناً فطفى وضقت بالبين صدراً إذهم شحطوا

٣٥ : ١٨ هاك سواد البياض أو رأبّ الثأى من الزبيدي :ـ

نفسي تحدثني بأنك غـــافر وهوايّ فيك على ذنوبك ساترُ

تَعِدُ الوفاء وأنت تُظهر غيره ولقد يدلُّ على الضمير الظاهرُ
لك مقلة طمّاحة مقسومة بين الجميع كما يدور الدائر
لو زار بيتَكَ كلَّ يوم عسكرٌ أرضــام لحظٌ بعينك فاتر
ومن البلاء بأن عينك فاتنٌ للناظرين وأن وجهك ساحر

(الميمني : كذا ولو كان قال ومن البلايا أن سلم وقوله فاتن أي شيء فاتن)

وإذا برزت فكل قلب طائر شوقاً إليك وكل طرف ناظر
ولديك إسعاف لهم وإجابة وهو الذي ما زلت منك أحاذر
في دون هذا للتيّم سلوة عن إلفه لو أن قلبي صابر
ولأهجرنّك جازعاً أو صابرا إني إذا إلفٌ تنكّرَ هاجر

(٤ : ١٤٣ / ٤) .

٣٩ : ١ أبو هفان عبد الله بن أحمد ترجم له في النزهة ٢٦٧ الخطيب ٩ : ٣٧٠ الفهرست ١٤٤ ، (٤ : ١٤٩ / ١١) .

٣٩ : ٦ الصواب : تئام بتقديم النون ، (٤ : ١٥٠ / ٤) .

٤٠ : ١٣ ديوان البحتري الجوائب ١ : ١٥٨ وفيه أنها في أبي العباس ابن بسطام وفيه في البيت الأخير كفيت مُهِمّها كأدب الصولي ١٧٧ وفيه حكاية المبرّد يرويها عنه الصولي ، (٤ : ١٥٢ / ١٢) .

٤١ : ١٤ عبد السلام ترجمته في المنتظم ٧ : ٢٧٣ وأبي العلاء وما إليه ١٢١ والخطيب ٥٧٣٩ وطبقات الجزري ١٦٤٤ ، (٤ : ١٥٤ / ٨) .

٤٤ : ١٣ الصواب فالعقل يدفع ، (٤ : ١٤٠ / ١٣) .

٤٦ : ٣ الصواب : إيزاع الشكر ، (٤ : ١٦٣ / ١٠) .

٤٦ : ١٠ الصواب إن شاء الله : بشيخ دبّرَاني أدبر شبابه ، (٤ : ١٦٤ / ٧)

٤٦ : ١٢ لعله من كل الأطراف .

٤٧ : ١٣ الصواب : والله وليُّ المؤمنين ، (٤ : ١٦٧ / ١) .

٤٨ : ٦ الصواب : مجدور من الجُدَري .

٤٨ : ١٢ الصواب : من طرائف ، (٤ : ١٦٨ / ١٢) .

٤٩ : ٢ الميل والتخت أو اللوح كانوا يستعملونها للمسائل والحساب والهندسة وكان يكون الميل من الرصاص وذلك لقلّة الورق قال ابن هندو :

بين يديه الميل والتخت كي يحسب ما يبلغ كم يبلغ .

راجع ذيل سمط اللآلي ٤٢ الدمية ١١٥ طبيتا القالي ٨٨ ، ٨٧ و ١٨٦ ، ١٨٢ ، ٤ ؛ (١٦٩ / ١١) .

٤٩ : ١٥ وجيباً هو الصواب ووجوباً لا معنى له .

٥٠ : ١٨ الصواب : عبيد الله كذا يقال وكذا قال ياقوت غير ما مرة ، (٤ : ١٧٣ / ٥) .

٥٢ : ٣ تهذيب الألفاظ ص ١٦٦ .

٥٢ : ١١ الصواب : نبت بن جميل ، (٤ : ١٧٦ / ٩) .

٥٢ : ١٤ المعروف في السيرة في النسب الزكي إدريس بن يَزْد ، (٤ : ١٧٦ / ١٣) .

٥٢ : ١٩ الصواب : بالمشرة ، (٤ : ١٧٧ / ٦) .

٥٥ : ٧ (روشن قبادوا) انظر هل هو تصحيف رُوْستُقُباذ بقرب بغداد الكوفة ، (٤ : ١٨١ / ٧) .

٥٥ : ١١ الصواب : وكتبت في الحَبْس ، (٤ : ١٨١ / ١٣) .

٥٥ : ٢٠ الصواب : كلّ مـا .

٥٨ : ٣ ولكن لا يوجد في ترجمة الصولي من هذا الجزء السابع المنحول ، (٤ : ١٨٧ / ٥) .

٥٨ : ٦ الصواب : وروى الفهرست ٨٠ ، (٤ : ١٨٧ / ٨) .

٥٨ : ١٣ الفهرست ١٣٥ ، (٤ : ١٨٩ / ٥) .

٥٨ : ١٨ الفهرست ٨٤ .

٦٠ : ٩ ترجم له الخطيب ٢٥٤٧ قرّاء ابن الجزري ٥٢٧ و ٥٢٩ ، (٤ : ١٩٣ / ١) .

٦٠ : ١٤ هذا كله لا يوجد في طبعة الفهرست هذه ، (٤ : ١٩٣ / ٨) .

٦٠ : ١٧ هو أحمد بن الحسين بن مهران مؤلّف الغاية في العشر ترجم له ابن الجزري في القرّاء ٢٠٨ ، (٤ : ١٩٣ / ١٣) .

٦٠ : ١٩ هنا خلاف المعروف فالمعروف إلى طَبَرِيّة الشام طبراني وإلى طبرستان طَبَرِيّ ، (٤ : ١٩٤ / ١) .

٦١ : ١٠ عمير وتقدم عميرة . وقد روى هذا الخبر والشعر الخطيب في التطفيل له ٤٦ قال أخبرنا علي بن أبي علي (يريد القاضي التنوخي الصغير) أنا إبراهيم بن أحمد (نسخة : محمد) بن محمد المقري نا المظفر بن يحيى أنشدني أبو الحسن الأسدي لنفسه : ـ كنت الخ . وفيه لرأيت العذراء و (لو رأيت) بجرّد استشراق لا وجه له ، (٤ : ١٩٦ / ٧) .

٦٢ : ١٩ جراب الدولة هذا ترجم له ابن النديم ١٥٣ وانظر مقالتي « جراب الدولة رجل لا كتاب » في الزهراء ص ٣٢٦ ذو القعدة ١٣٤٧ هـ ورأيت الجزء الأول من الترويح والأصل بباريس في ١٣٤ ق وانظر الزهراء ذو القعدة ١٣٤٦ هـ ص ٥٦٢ أيضا . وروى الجرجاني في الكنايات ٣٠ عنه خبرا ، (٤ : ١٩٨ / ١٣) .

٦٣ : ٥ لترجمته الفهرست ١٥٤ .

٦٣ : ١٠ أبو عبيد . ومرّ آنفاً أبو عبد الله كما سيأتي أيضا ، (٤ : ٢٠٠ / ٦) .

٦٣ : ١٧ الزبيدي ١٤٨ وقد ترجم للوليد أبي الولاد بن محمد الجد ولأخيه أبي القاسم عبد الله ولأبيه محمد ولكن الزبيدي نسبه هكذا (محمد ابن الوليد بن ولاد) وتقدم له أن الولاد هو الوليد وعند ابن خير ٣٨٦

و ٣٥٤ (... الوليد بن ولاّد) وأخرى ما يوهم أن الوليد هو الولاد ، (٤ : ٢٠١ / ١) .

٦٤ : ١ سنة ٣٠٢ . الذي في أصل الزبيدي بخط ابن هشام اللخمي أحمد بن علي سنة ٦٥٨ هـ (سنة ٣٣٢ هـ) وقوله سادّاً في أصل الزبيدي أستاذا ، (٤ : ٢٠٢ / ١ و ٢) .

٦٤ : ٨ الصواب : (وقال ليس في كلام) عن الزبيدي وترى هذا المجلس مع شرح المسألة في الأشباه ٣ : ٩٢ و ١٤٨ مع مسائل أخرى جرت بينهما عن سفر السعادة للعلم السخاويّ إلى ص ١٧١ .

٦٤ : ١٠ الصواب : وإنما تغفّله .

٦٤ : ١٣ زد في مؤلفاته كتاب النقائض له ، (٤ : ٢٠٣ / ٥) .

٦٤ : ١٤ لترجمته الأنساب والبغية ، (٤ : ٢٠٣ / ٦) .

٦٤ : ١٧ الصواب : (فاق فضلاء) كما فيها ، (٤ : ٢٠٥ / ١) .

٦٥ : ١٧ أبو تراب هذا ذكره النديم ٨٤ ، (٤ : ٢٠٨ / ٥٢) .

٦٦ : ٤ الصواب : بالحِرْميّ المنسوب إلى الحَرَم حِرْميّ بالكسر انظر الزهراء ٣ : ٦٣ الربيعان ١٣٤٦ .

٦٦ : ٦ الصواب : وجدت عنه .

٦٦ : ١٨ البغية : فإذا تكلّم ، الأنساب : ولكن إذا ، (٤ : ٢١٠ / ٦) .

٦٧ : ٧ ترجم له ابن الفَرَضي ١١٨ والضبّيّ ٣٢٧ والمطمح الجوائب ٥١ واليتيمة ١ : ٣٦٠ والوفيات رقم ٤٤ والنفخ مصر ٢ : ٢٦٦ و ٣٢٢ . ٤ : ٢١٧ . والصواب حُدير لا غير ككميت كذا ضبطوه .

٦٧ : ٩ (سنة ٣٤٨) صوابه ٣٢٨ هـ .

٦٧ : ١٤ قول الصاحب مثله في رسالة أبي علي بن الربيب التميمي كتب بها إلى أبي المغيرة بن حزم في النفح ٢ : ١٢٦ .

٦٧ : ١٧ الصواب : للحكم بن عبد الرحمن وهو المستنصر بن الناصر ، (٤ : ٢١٥ / ٥) .

٦٨ : ٨ الصواب : حتى رثى ، (٤ : ٢١٦ / ٤) .

٦٨ : ١٣ الصواب : في كبدي ، (٤ : ٢١٦ / ١٣) .

٦٩ : ١٣ الأبيات ٦ في المطمح والضبي ، (٤ : ٢١٨ / ١٢) .

٦٩ : ١٦ الصواب : ذو النَسَبَيْن بين دِحيْة . راجع لترجمته النفح ١ : ٢٦٨ وحسن المحاضرة ١٢٩٩ هـ ١ : ٢٠١ ومرآة الزمان ٨ : ٤٦٢ سنة ٦٣٣ وتوفي سنة ٦٣٣ هـ وأما سنده للعقد فإن ابن خير رواه عن ابن معمّر الخ ص ٣٢٧ فهرسته ، (٤ : ٢١٩ / ٤) .

٧٠ : ١٧ الصواب : في التُحَف والهدايا والنُتَف والفكاهات والمُلَح .

٧١ : ٥ الصواب : أقطع يوم . وهذه الأبيات في اليتيمة ١ : ٣٥٧ لحبيب بن أحمد الأندلسي ، (٤ : ٢٢١ / ١١) .

٧١ : ٩ المطمح : أبا الوليد بن عباد وعنه النفح : الوليد بن عقال . وقوله (قال) لم يتقدم مرجع الضمير وهو صاحب المطمح . والأبيات القافية منسوبة في اليتيمة ١ : ٣٦٤ لعبد الملك بن سعيد المرادي ولابن عبد ربه في شرح مقصورة حازم ١ : ١٨٣ ، (٤ : ٢٢٢ / ٤) .

٧١ : ١٤ الصواب : من الحياء ، (٤ : ٢٢٢ / ١٢) .

٧٢ : ٩ للنحاس أصل الزبيدي ص ١٤٩ الوفيات رقم ٣٨ النزهة ٣٦٣ البغية ١٥٩ ، (٤ : ٢٢٤ / ٧) .

٧٢ : ١٢ وثبت على نسخته شرح السبع له في أحمد الثالث أنه توفي سنة ٣٣٨ هـ ، (٤ : ٢٢٥ / ٢) .

٧٢ : ١٦ الصواب : وحدثني . وهذا الحديث عن الزبيدي ويوجد في

النفح ١ : ٢٣٢ والضبي والأبيات لم أجدها في الأغاني ولا في ديوان المجنون رواية الوالبي تبريز ١٢٧٣ هـ ، (٤ : ٢٢٦/ ٦) .

٧٣ : ٦ الصواب : (قيل لي أين أنت من أبي العباس) عن الزبيدي والنفح ، (٤ : ٢٢٧ / ٩) .

٧٣ : ٧ الصواب : فأخرجه إليّ .

٧٣ : ٩ الصواب : التقتير وهو الإقتار .

٧٣ : ١٠ الصواب : شراء حوائجه ، (٤ : ٢٢٨ / ٣) .

٧٤ : ١٥ في نسخ الفهرست ١٣١ حماوه و حماده أيضا ، (٤ : ٢٣٠/ ١٠) .

٧٥ : ١ عنه البغية ١٦٠ .

٧٥ : ٩ ابن الفرضي ١٩٢ ونكت الهميان ١١٤ .

٧٥ : ١٤ العروضي هذا كان مرسوماً بتأديب المتقي وكان له عند الراضي جاه ومكانة ذكره الصولي في أخبار الراضي ٨ وغيرها ترجم له الخطيب ٢٥٦٩ قال وذكر ابن الثلاّج إنه توفي سنه ٣٤٢ هـ ، (٤ : ٢٣٣ / ١١) .

٧٦ : ٢ علي بن أحمد . كذا وتقدم أحمد بن محمد ، (٤ : ٢٣٣/ ١١) .

٧٦ : ١١ الضبي ٣٢٩ و ٣٢٨ والتاريخي غير الرعيني .

٧٦ : ١٤ الصواب : ذكره ابن حزم ، (٤ : ٢٣٥ / ٣) .

٧٦ : ١٥ الضبي ٣٣٠ ابن الفرضي ١٣٥ رسالة ابن حزم في النفح ٢ : ١٣٣

٧٧ : ٩ قَرْح بالحاء المهملة الساكنة لا غير النفح ١ : ٤٢٢ وترجمة أبي عمر في المطمح ٧٩ ، (٤ : ٢٣٦ / ١١) .

٧٧ : ١٠ الصواب : أبو عمر ، (٤ : ٢٣٦ / ١٢) .

٧٧ : ١٥ الصواب : تكرَّر . و (لأبي بكر) كذا عند غيره أيضا ولا أستبعد (كأبي بكر) ، (٤ : ٢٣٧ / ٦) .

٧٨ : ٥ مختصر ابن عساكر ٢ : ٥٢ وعنده (... بن أحمد بن محمد ابن سعيد بن أبي مريم) وذكر له مؤلفاً سمّاه فتّق الأفهام، (٤:٢٣٨/٧).

٧٨ : ١٣ ترجمته في المنتظم ج ٧ ص ٢٦٠ الخطيب ٢٤٧٠، (٤ : ٢٣٩ / ٥).

٧٨ : ٢٠ أبو اليمن بالضم زيد بن الحسن الحافظ ترجمته في البغية ٢٤٩ ومرآة الزمان ٨ : ٣٧٧ سنة ٦١٣ هـ، (٤ : ٢٤٠ / ٧).

٧٩ : ١ في الكلام سقط سداده من الكتابين : كتبي بعشرة آلاف درهم وجاريتي بعشرة آلاف درهم وسلاحي بعشرة آلاف درهم ودوابّي الخ، (٤ : ٢٤٠ / ١٠).

٧٩ : ٤ أغفل عنه أبو نعيم في أخبار أصبهان وذكره ابن عساكر ١ : ٤٤٤ وابن الجزري في القرّاء ٤٦٤ والصواب ... بن الحسن بن سعيد، (٤ : ٢٤١ / ١).

٧٩ : ١٣ ترجم له ابن الفرضي ١٣٦ والزبيدي ص ٢٠٦، (٤:٢٤٢/٤).

٧٩ : ١٨ الصواب : محمد بن الحسن وإن كان عند ابن الفرضي غير محلّى بأل، (٤ : ٢٤٢ / ١٢).

٨٠ : ١٢ النديم ١٤٠ وكناه أبا كبير، (٤ : ٢٤٤ / ٤).

٨١ : ٦ الباغ الحديقة بالفارسيّة والنسخ الأخرى من تغيير النسّاخ، (٤ : ٢٤٥ / ١٢).

٨١ : ١١ الصواب : سوى السحْر كما في اليتيمة والقوات.

٨١ : ١٣ من ولد زيد الخ ابن السبكي في الشافعية ٢ : ٢١٨ ولم يثبت ذلك اهـ والظاهر أنه منسوب إلى جدّه الخطّاب وبخط الصاغاني في مقدمة عبابه نسخة الدار (لغة ١٤١) في نسبه حَمْد بن محمد بن إبراهيم بن الخطّاب بن طَهْمان بن عبد الرحمن بن أَتْبُوْيْ بن هَزَار بَنْدَهْ كأنه عجميّ الأصل

وكذا سماه "حَمْداً ابنُ خير ١٩٠ و ٢٠١ والوفيات رقم ١٩٣ ج ١ : ١٦٦ والشذرات سنة ٣٨٨ هـ والخزانة ١ : ٢٨٢ والشافعية والبغية ٢٣٩ والمنتظم وسماه أحمد السمعانيُّ ٢٠٢ ب وتذكرة الذهبي ٣ : ٢٠٩ قال ووهم الثعالبي في اليتيمة حيث سماه حمدا قلت وسيأتي لياقوت أن الثعالبي سماه أحمد كما في طبعة دمشق ٤ : ٢٣١ وعنه الشافعية والحِليّة ما سيأتي غير أن الذهبي لم يقف عليها ، (٤ : ٢٤٦ / ٩) .

٨٢ : ٩ الصواب : وكانا مُعاصريه .

٨٣ : ٧ الصواب : لابن خُزيمة ، (٤ : ٢٥٣ / ٤) .

٨٤ : ٧ الصواب : الريحاني إذْناً ، (٤ : ٢٥٥ / ٣) .

٨٤ : ١١ الصواب : زَهتْه الريحُ ، (٤ : ٢٥٥ / ٨) .

٨٥ : ٣ الصواب : اعتماد ذوي الفضل . .

(يتبع) عبد العزيز الميمني



ابن الرومي

شاعر لم ينصفه التاريخ

لم أجد في تاريخ الأدب العربي ولا فيما اطلعت عليه من تاريخ آداب الأمم الأخرى شاعراً اصطلحت عليه الأيام ، وظلمته الأحداث ، كهذا الشاعر الذي اجتمعت الآراء الأدبية المنصفة على أنه من أكبر شعراء العرب ، بل على أنه من أعظم شعراء الدنيا .

كان في حياته مضرب المثل في الفقر وسوء الطالع واضطراب الأعصاب وثورة النفس حتى لم يكن يستطيع تحمل النسمة الفاترة أو الكلمة العابرة ، فهو متوتر النفس دائماً ، يثور كالأطفال ، وتغلي عواطفه غلياناً شديداً يؤرق جفنه ويعذب ضميره ، حتى يقول من الشعر ما يخفف من ألمه ، فتثور الدنيا عليه ويأتمر به الناس ممن أصابهم هذا الشعر الجارح ، فيصبح ثانيةً غرضاً للأذى ورَمِيّةً للسهام المسمومة من أعداء لا يرحمون ومنافسين لا يهدأون .

تلك كانت حياة هذا الشاعر العجيب الذي ملأ الدنيا شعراً وشعوراً ، وخلّف لنا من التراث الفني ما لا يقوم بمثله عدد كبير من الشعراء .

لقد أتاه الظلم من جميع النواحي فلم يستطع الدفاع ، وغزاه الإجحاف من كل فج حتى ضاع صوابه وهارت أعصابه ، وأنّى لقريحته الفياضة أن تقوم بكل هذا العبء ، وهل يستطيع مقول واحد مقاومة هذا السيل من الناس وكلهم يحب أن يؤذيه إما تشفياً وإما تسلياً ، والرجل الشاعر

الفنان ، المرهف الحس ، حائر بين هذه المصائب المتدافعة يحاول أن يرد الأذى عنه فما يقدر ، حتى أصابه أحد هـــذه السهام « بخشكنانة »(١) مسمومة فارق فيها الحياة فأراح واستراح .

ولعلك تعجب أشد العجب حين ترى هذا التناقض التاريخي في النظر إلى هذا الشاعر الكبير ، بل يأخذك الاستغراب إذ تعلم أن القدماء شغلوا بهذا الشاعر حتى ملأ عليهم الوقت والتفكير ، ولكن هؤلاء القدماء أنفسهم ، أهملوا ابن الرومي إهمالاً لا مبرر له فلم يكتبوا تاريخه ، ولم يدونوا أحداث حياته ، ولم يتعرضوا لسيرته إلا في روايات قليلة لا غنيان فيها ولا فائدة ، ومع هذا فان الشاعر في رأي الكثيرين من مؤرخي أدب ذلك العصر وما تلاه من العصور لم يكن نكرة ولا مجهولاً ، بل كان ذا شهرة مستفيضة ، يروي الناس شعره ويستشهد به النقاد والأدباء بل لقد ذكر صاحب العمدة أنه ، أي الشاعر (كان في من غطوا على الشعراء بشهرتهم) .

أهمل المؤرخون تاريخ هذا الشاعر عن قصد ونية ، وكانوا يضعون الكتاب يذكرون فيه كل الشعراء المعاصرين لابن الرومي ، حتى إذا مرّ ذكر الشاعر وجاء دوره ، ذكروا اسمه فقط أو نبذة صغيرة عنـــه ، ثم تجاوزوه إلى غيره بسرعة لا ريث فيها مما يترك قارئ هذه الأيام في حيرة لا مخرج منها ، وشك لا كاشف له .

وهذا أبو الفرج الأصفهاني الذي وضع أكبر موسوعة أدبية في عصره يذكر البحتري ويترك ابن الرومي وهما معاصران ؛ وهذا ياقوت الحموي في معجم الأدباء لا يذكر ابن الرومي ولكنه يترجم للكثيرين من معاصري الشاعر وأساتذته وتلامذته وممدوحيه ومهجويه .

(١) الخشكنانة نوع من الفطير يشبه « الكاتو » اليوم ، والكلمة فارسية الأصل .

كل ما ذكره أولئك المؤرخون الأعلام عن ابن الرومي أنه : (ولد يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة ٢٢١ ببغداد في الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختلية في دار بإزاء قصر عيسى بن جعفر ابن المنصور) ، وهذا ما نقلناه عن ابن خلكان ، وما كتبه غير هذا المؤرخ عن ابن الرومي ليس أكثر تفصيلاً ولا أوفر مادةً وعلماً .

ولعل من أكثر الكتاب في عصرنا الحديث اهتماماً بموضوع ابن الرومي المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد وقد شاركه في إكبار الشاعر ، المازني وعبد الرحمن شكري ، إلا أن العقاد كان أكثرهم اهتماماً وأبعدهم أثراً في دراسة هذا الشاعر وإحياء ذكره وتعريفه إلى القراء من أبناء الجيل الجديد . ولقد ركّز العقاد دراسته لشعر ابن الرومي على نقطتين : أولاهما أن الرجل لم يُنصف في تاريخ الأدب العربي ولم يُعط محله الذي يستحقه ، وثانيها أنَّ تفرّدَ ابن الرومي في طريقة شعرية خاصة ، وامتيازه من غيره من الشعراء العرب ؛ إنما يرجعان إلى أصله الرومى ، هذا الأصل الآري الذي يترك أثراً في سلالاته غير الأثر الذي نعرفه عند السلالات العربية السامية .

أما النقطة الأولى فالعقاد يتردد في تقرير رأيه فيها ثم يخرج من هذا التردد بفكرة جديدة غير واضحة ولا مستقرة ، فهو يقول ما معناه أن ابن الرومي لم يكن خاملاً في زمانه أو بعد زمانه ، ويحتج لرأيه هذا بأن ديوان الشاعر قد حُفظ ولم يَضِع منه شيء ؛ وهو يعتبر بقاء هذا الديوان وعدم ضياعه دليلاً على شهرته واهتمام الناس به وعرفانهم لقدره معرفة تامة .

ولكن ضياع الدواوين الشعرية العربية لم يكن إلا نتيجة للنكبات التي أصابت المكتبة العربية خلال الغزوات التتارية من هولاكو وجنكيز وتيمورلنك ، وقد يكون حظ ديوان ابن الرومي أعظم من حظ صاحبه

فسلم من هذه النكبات كما سلم ديوان المتنبي والبحتري وأبي تمام وغيرهم كثير ، وليس هذا الضياع دليلاً على إهمال شاعر كبشار أو دعبل وإن ضاع ديواناهما .

وكذلك فان ذكر هذا الشاعر في كثير من الكتب ، وحفظ مختاراته ، لا يمكن أن يُعد دليلاً على اهتمام الناس به ، لأن حفظ المختارات عمل يتناول حتى الشعراء المهملين حقاً ، أو الشعراء الذين تنحط مرتبتهم الفنية انحطاطاً كبيراً عن مرتبة ابن الرومي وأمثاله من الشعراء الأفذاذ .

والذي أعتقده أن من أهم أسباب إهمال هذا الشاعر ما ورد في ديوانه من إقذاع وأدب مكشوف تجنبه الناس من الأدباء نتيجة ضغط ديني أو أخلاقي ، ونحن حتى في عصرنا هذا نجد من الصعب العسير أن يتعرض الأدباء لشرح الألفاظ النابية الصريحة التي لا تستطيع الكثرة الكاثرة من الناس احتمال قراءتها أو روايتها مكتوبةً أو مطبوعة ، ولسنا بسبيل مناقشة هذا الرأي ، ولكن الواقع هو أن رأي غالبية الناس ما زال مستقراً على أن مثل هذه الألفاظ الصريحة لا يجوز نشرها على الناس عامةً ، وإن جاز أن يطلع عليها أولو الاختصاص في سبيل هدف أدبي آخر .

إن هذه الألفاظ (المكشوفة) تعتبر في حد ذاتها خروجاً على المألوف وتحدياً لما هو معروف بين الناس من قواعد واصطلاحات خلقية واجتماعية ، وقد رأينا ما وقع لكتاب طه حسين (الشعر الجاهلي) ، وكتاب علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) فهذا التفكير الجديد لم يجد فيه حتى المثقفون إلا إلا خروجاً على التقاليد والأعراف والعادات ، ثم من ناحية الألفاظ النابية نذكر كتاب (المختار من شعر بشار) للخالديين ، فقد طبع هذا الكتاب مرة منذ سنين ثم أعيدت طبعتُه منقحةً بعد أن حُذف منها كل ما يشير إلى الصراحة والتبذل والجرح ، وكذلك كتاب (أخبار أبي نواس) الذي طبع منه الجزء الأول ثم فُقد ، ولم يُعَد طبعه حتى الآن .

أما ما نراه من التسامح في طباعة بعض الكتب الصريحة كالأغاني ويتيمة الدهر فهو لا يقوم نقضاً لرأينا في أن هذه الألفاظ كانت وتكون دائماً سبباً من أسباب عدم الاهتمام بالشاعر أو الكاتب ، وانصراف الناس عنها تجنباً لسخط الطبقة المحافظة وغضبها .

يضاف إلى ما أسلفنا أن (الحنق الشخصي) الذي أشار إليه الأستاذ العقاد والذي عزاه إلى أبي الفرج الأصفهاني واعتبره سبباً من أسباب عدم إدراج الشاعر في كتابه ، إن هذا الحنق لا يصح اعتباره سبباً من أسباب الإهمال ، وإلا فكيف نفسر إهمال بقية المؤرخين لهذا الشاعر ؟ وهل يمكن أن نتصور أن هنالك حنقاً عاماً على هذا الشاعر ؟ قد يمكن ذلك إذا رجعنا إلى الفكرة التي سبق شرحها وهي أن (بذاءة) الشاعر قد حجبت عنه أقلام المؤرخين حتى تجنبوا الخوض في ذكره والإتيان على شرح حياته وشعره . إذا كان هناك إهمال فليس له سبب نراه غير هذه الألفاظ التي جاءت على لسان الشاعر نتيجة لثوراته واضطراب أعصابه وهوسه ؛ ولقد وصلت به الحال إلى تشاؤم أبعده عن الناس ، وجعله في عزلة عن كل معارفه وأصحابه ، حتى تسلط الأولاد عليه فراحوا يداعبونه مداعبة خشنة قاسية كانت تثير فيه الغضب الكاسح والسباب الجارح ، فانصرف الناس عن مزاياه الفنيـــة ، ولم يروا عنده إلا هذه الشتائم المتطرفه التي يندى لها الجبين . وربما جاز لنا أن نخالف هذا الرأي كلية فنقول : إن هنالك مؤرخين تعرضوا لذكر ابن الرومي دراسةً وتفصيلاً ، ولكن كتبهم ذهبت في النكبات المتعاقبة ؛ وقد قيل إن ما بقي من الكتب العربية لا يحسب شيئاً بالقياس إلى ما ذهب منها ؛ فاذا صدقنا هذا الرأي أصبح من السهل لدينا أن ننفي عن تاريخ ابن الرومي الإهمال كله لنقول بأن حظه السيء قد أزال من عالم الأدب الكتب التي تعرضت لذكره وعنيت بأمره .

والنقطة الثانية التي شغلت العقاد في دراسته لشعر ابن الرومي هي هذه (الرومية) التي جعلها مصدراً لنبوغ الشاعر في « التصوير » و « التجسيد » للمرئيات التي كانت تقع عليها عينه ؛ ولكن هذه « الرومية » ليست في نظرنا إلا « نظرية » ما تزال محتاجة إلى « الإثبات » قبل أن تصبح حقيقة ملموسة مقررة ؛ ولقد شارك العقاد في هذا الرأي كثيرون من مؤرخي الأدب العربي من مثل سليمان البستاني فوصل ما بين شاعرنا وهوميروس بسبب من القرابة الفنية والتماثل في الأسلوب والمعاني والتشبيهات ، ورأى بطرس البستاني أيضاً هذا الرأي في كتابه « أدباء العرب » ، فعزا عبقرية ابن الرومي إلى أصله « الأعجمي » وهو يشير إلى أصله اليوناني ، وخالف العقاد بعض الأدباء أيضاً من مثل الأستاذ أنيس المقدسي والدكتور عمر فروخ ؛ ومعنى هذا أن هذه الفكرة (الرومية) قد أوجدت خلافاً أدبياً ونقاشاً علمياً حول مسألة لا يمكن البت بها ، ولا تقرير شيء فيها .

فابن الرومي كان أبوه يونانياً ، وهذا ما أثبته جميع المؤرخين ؛ ولكنه من جهة ثانية يرجع إلى أصل فارسي من جهة أمه ؛ وما نشك نحن ولا علماء الوراثة في أن الأب والأم يشتركان في توريث الابن خصائصهما ، بل ربما كان نصيب الأم في الوراثة أقوى وأشد ، إذا نظرنا إلى التجارب والمشاهدات ، فكيف قصرنا أثر هذه الوراثة عند ابن الرومي على أبيه ، وأهملنا ذكر أمه الفارسية ؟ هذا سؤال يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى ، لأن العقاد والقائلين برأيه يحددون نسب الشاعر فيجعلونه يونانياً ويقولون إن الأثر التصويري الذي انتقل إليه جاء من اليونان أهل أبيه ؛ وكان على أصحاب هذا الرأي أن يلتفتوا إلى أصله من جهة أمه فلعل للفرس نصيباً في هذا الشاعر الذي اختلف الناس في تعليل طريقته الشعرية .

إن الأسباب التي دعت إلى تفرد ابن الرومي في صفات لا تشبه صفات الشعراء الآخرين في عصره أو في العصور الأخرى يمكن إعادتها إلى ثلاثة أمور أو أربعة :

أولها : أن ابن الرومي ، رغم نبوغه الفني كان مريضاً ، يبتعد عن الناس ، والناس يتعـــدون عنه مما جعل الاهتمام منحصراً في شعره فقط فحفظ بعض هذا الشعر واختير للمناسبات والاستشهادات وأعجب الناس به رغم كرههم لشخص ناظمه ومنشئه .

وثانيها : أن البذاءة التي انتظمت الجزء الكبير من هذا الشعر حجبت عن الديوان الرائع كثيراً من العيون التي يحب أصحابها المحافظة على الأخلاق والاصطلاح العام ويأنفون من قـــراءة الأدب المكشوف والكلام على عورات الناس وعيوبهم .

وثالثها : أن ابن الرومي هجا شخصيات كثيرة لها أثرها ووزنها في عالم تلك الأيام ، فقد تناول في هجائه عدداً من الوزراء والكتاب والقـــواد والأغنياء والوجهاء ، وهؤلاء كانوا مرجعاً للشعراء والأدباء ، كما كانوا مصدراً لرزقهم ، وموردا لعيشهم ، لذلك اضطر أولئك إلى تجنب الحديث عن ابن الرومي مداراة لأصحاب النفوذ وتجنباً لغضب من بيدهم الحل والعقد .

يضاف إلى الأسباب التي مرت سبب رابع هو عندي أهمها جميعاً ، وأعني به هذا التعقيد الذي يرين على شعر ابن الرومي ، وهذا التوليد في المعاني الذي يجعل هذه المعاني متراكبة متشابكة يتعب قارئها ويجد في فك رموزها وطلاسمها عنتاً كبيراً ، فشعر ابن الرومي صعب على الحفظ ، لأن ابن الرومي من شعراء المعاني لا شعراء الديباجة والأسلوب ؛ وشعراء الأسلوب الرائع والديباجة السمحة هم أكثر الشعراء قراءاً وحفاظاً ، فأنت تحفظ شعر شوقي والبحتري في يسر وسهولة ، ولكنك تجد شيئاً من الصعوبة

حين تحفظ شعر أبي العلاء وأبي تمام ، لأن الكلمة عند شوقي تستدعي الكلمة التي بعدها للقرابة القريبة بينها ، ولأن شوقي والبحتري يهمها قبل كل شيء الموسيقى والتناسق والانسجام في النغمة بين ألفاظ البيت الواحد ، ولو أدّى هذا القصد إلى السطحية أحياناً ؛ أما أبو تمام مثلاً فاهتمامه منصبٌ على إيجاد المعاني الجديدة والصور الطريفة فهو مشغول الذهن بهذه الناحية ، منصرف عن اللفظ إلى الفكرة ، وهو يضع الكلمة في البيت الواحد كيفما اتفق ، بشريطة أن تؤدي المعنى الذي يرمي إليه ، لذلك فان الكثير من ألفاظه يخرج نابياً على السمع ناشزاً عن الأذن لفقدان النغم بين الكلمات المتجاورة والألفاظ المتقاربة . وابن الرومي من شعراء الفكرة والصورة — أما الموسيقى عنده فتأتي بعد هذا كله ، ولهذا فان حفظ شعره كان صعباً على الحفاظ ورواد الأدب وأصحاب الميل الفني ، ولهذا أيضاً كان شعره أبعد عن الاهتمام به من شعر زميله ومعاصره البحتري ؛ فاذا قدرت أيضاً هذا الشرح والتطويل والتعقيد الذي تراه في شعر الشاعر استطعت فهم سبب هام من أسباب زهد الناس في دراسة شعر ابن الرومي وشرحه .

وخلاصة البحث أن الناقد في هذا الزمن ، وبعد أن مر على ابن الرومي أكثر من عشرة قرون ، يجد صعوبة بالغة في تقرير حقيقة تتعلق بشخصه وأدبه ؛ ومن الخير للأديب وللأدب أن لا يرسل الناقد آراءه إرسالاً ، وأن لا يجعل منها أحكاماً لا تقبل المناقشة ، فان طبيعة الرأي الأدبي تجعله ليّناً قابلاً للأخذ والرد ، وإن كل رأي أدبي معرض للخطأ ما دام هذا الرأي مبنياً على التخمين والتقدير .

أحمد الجندي



مدرسة سالرنو الطبية

-٣-

التخدير فن عربي أنتقل إلى مدرسة سالرنو

للعرب على علم الطب فضل كبير في غاية الأهمية وهو استخدام المرقد (المخدر) العام في العمليات الجراحية (١) .

وكم كان التخدير العربي فريداً في نوعه صادقاً في مفعوله رحيماً بمن يتناوله ؛ وهو يختلف كل الاختلاف عن المشروبات المسكرة التي كان الهنود واليونان والرومان يجبرون مرضاهم على تناولها كلما أرادوا تخفيف آلامهم . وينسب بعضهم هذا الكشف العلمي إلى طبيب إيطالي أولاً وإلى بعض الاسكندنافيين ثانيا ، في حين أن الحقيقة تقول والتأريخ يشهد أن فن استعمال الاسفنجة المخدرة فن عربي لم يعرف قبلهم (٢) .

كانت توضع الاسفنجة المخدرة في عصير من الحشيش والأفيون والزؤان والبنج (هيوسياموس) ، ثم تجفف في الشمس وتحفظ وتبلل الاسفنجة قبيل استعمالها للتخدير (٣) ، ثم توضع فوق الأنف والفم فتمتص أنسجة المريض المخاطية المواد المخدرة فيركن المريض إلى نوم عميق يقيه أوجاع العملية الجراحية .

---

(١) راجع حاضر العالم الاسلامي ج ١ ص ١٤٠ .
(٢) راجع شمس العرب تسطع على الغرب (زيغرد هونكه) ص ٢٧٩ و ص ٢٨٠ .
(٣) راجع مقدمة في تأريخ الطب العربي للدكتور التجاني الماضي ص ١٤٠ .

وقد ورد ذكر الاسفنجة المنومة في المصادر الأوربية في القرن التاسع ومابعده [١] ؛ وكان يصحب استعمال الاسفنجة بعض الأحيان شرب مزيج أساسه [(المندرغورة)[٢] ، ويحتوي كذلك على الأفيون وعصير الشوكران والتوت] . وأما التخدير الوضعي فكان يستعان عليه بضمادة تغمس في محلول شبيه بالمزيج المخدر الذي ذكرناه والذي يؤخذ بطريق الفم فتوضع الضمادة على المكان المراد تخديره موضعياً . وكان المريض يوقظ بتشميمه عصير الشمر .

لقد دخل فن التخدير أوربة بطرق كثيرة مختلفة منها (مدرسة سالرنو) ؛ وظل معمولاً به حتى القرن الثامن عشر حين كشف عن التخدير بالاستنشاق عام ١٨٤٤ ، فاختفى التخدير الأول وغمره النسيان ؛ أما نحن فما علينا إلا أن نعطي كل ذي حق حقه فترجع فضل اكتشاف التخدير العام (بالاسفنجة) بطريق الفم والأنف إلى العرب « والفضل للمتقدم » .

التشريح في سالرنو :

كان تشريح الجثث محرماً في أوربة بأسرها وفي عام ١٢٣٨ أمر فردريك الثاني (الامبراطور) بأن تشرح جثة مرة كل خمس سنوات في مدرسة سالرنو ، وظل تشريح الجثث يجري بانتظام في إيطاليا بعد عام ١٢٧٥ م [٣] .

وفي عام ١٢٨٦ فتح طبيب في كرمونا جثة ليدرس عليها سبب وباء انتشر في ذلك الوقت فكان هذا أول تشريح لجثة بعد الموت لمعرفة سبب الوفاة ؛ وقد رخص في سالرنو بتشريح الموتى من أسباب جنائية في البداية ، ثم سمح بتشريح جثث المحكوم عليهم بالإعدام بين الحين والحين وعلى رؤوس الأشهاد.

(١) راجع قصة الحضارة (ول ديورانت) ص ١٩٥ الجزء السادس من المجلد الرابع .

(٢) المندرغورة هي اليَبْرُوح ويسمى اللُّفَّاح ، وهو نبات عشبي معمر سام طبي من الفصيلة الباذنجانية (انظر Mandragore في معجم الألفاظ الزراعية) .

(٣) راجع كتاب قصة الحضارة . الجزء السادس . المجلد الرابع الصفحة ١٩٣ .

إن الكتاب الأول في علم التشريح لمدرسة سالرنو المسمى تشريح الخنزير(١) Anatomia Porci والمنسوب على غير أساس أكيد إلى من يدعى كوفوني Anatomia cophoni هو كتاب يرجع بلا شك إلى السنوات الأولى من القرن الثاني عشر م . وهو يفتتح التشريح التجريبي الجديد الذي أجري على جسم الحيوان حقاً (وهو الخنزير في هذه الحالة) ، ومن ثم يسلك طريقاً لم يسلكه العرب من قبل . ولكن الآثار العميقة للعرب توجد هنا في دائرة المصطلحات .

وفي الكتاب الثاني في التشريح(٢) لمدرسة سالرنو أيضاً وهو العرض التشريحي لجسم الإنسان الذي صنف بعد ذلك لا نجد هذه الآثار العربية فحسب بل نجد أيضاً قطعاً من كتاب Pantgeni لقسطنطين .

والكتاب الثالث في التشريح لمدرسة سالرنو وهو كتاب Magister Marcns المتوفى عام (١٢١٤ م) والذي صنف مع ذلك كتباً كثيرة أصيلة هو كتاب قسطنطيني أيضاً أي أنه كان عربياً في مادته الطبية مع إظهار استقلال أعظم من ذي قبل .

وقد نشرت نصوص كتب التشريح لمدرسة سالرنو (في جانب منها) في طبعة نقدية أخرجها George W. corner بعنوان :

Anatomical Textes of the carlier Middles—ages Washington 1927 .

الترجمة والتراجمة في سالرنو

نظرة اجمالية في الترجمة من العربية الى اللاتينية في القرون الوسطى :

عندما وصل الطب والعلم الإسلاميين محجة الوقوف حوالى عام (١١٠٠ م) أخذا ينتقلان معاً إلى أوربة بتراجم لاتينية . لقد وصف شارلس سنكر

(١) راجع كتاب قصة الطب تأليف (جوزيف جارلند) ترجمة سعيد عبده ص ٧٣ .
(٢) راجع كتاب العلوم عند العرب للدوميلي ص ٤٣٤ و ٤٣٥ .

Charles singer بدقة الطب الرهباني في خلال ذلك العصر في كتـــابه (موجز تأريخ الطب) قال :

« لقد قضي القضاء المـــبرم على علمي التشريح والفسيولوجيا ، وتحول التشخيص الطبي إلى جس باليد سخيف جداً ـ إن وجد ـ وصار علم النبات عبارة عن قائمة أدوية ، وتسللت أعمال السحر والشعوذة ، وأسفّ الطب إلى مجموعة من الوصفات تتأرجح بين الدجل والرقى ، ذلك لأن الجدول العلمي كان دم حياته قد نضب إلى آخر قطرة ؛ وبقيت زاوية واحدة في أوربة حافظـــة لتراث الطب الاغريقي وهي (سالرنو) القريبة من نابولي ، بهذه المدينة مرّ المغامر التونسي المتنصر (قسطنطين الإفريقي) قبل أن يترهب في الدير الشهير المسمى بدير (مونت كاسينو) في كامبانيا بسنوات ؛ وفيهـا شرع بالترجمة حوالى عام (١٠٧٠ م) إلى أن وافاه الأجل [١] سنة ١٠٨٧ م » وسنفرد له بحثاً خاصاً يلي بحثنا هذا .

لقد سقطت طليطلة في عام ١٠٨٥ م وهي أعظم مركز للثقافة الإسلامية في الغرب بأيدي الإسبان المسيحيين ، وصار تلاميذ اللاتين يفدون إلى العاصمة الجديدة ليظهروا إعجابهم بما يرون من بقايا حضارة العرب ، ولـكي يدرسوا الفنون العربية Artes arabum وكان الوسط الناقل للدراسة ثم الترجمة بعدئذ هم اليهود المتنقلون المتوطنون والاسبان الذين كانوا خاضعين للحـكم الإسلامي (المستعربة) (Mozarabe) ولقد رسم شارلس ودروثيا سنكر في مجلد آخر من هذه السلسلة صورة حية لهذا التعاون الذي يقدم لنا فكرة واضحة عن الامتزاج العلمي العجيب .

(١) راجع كتاب تراث الاسلام ج ١ ص ٢١١ و ص ٢١٢ و ص ٢١٣ .

وكان أول شخصية علمية أوربية جاءت إلى طليطلة هي أديلارد الباثي الرياضي الانجليزي والفيلسوف ، ودانيال مورلي [١] وروجر أوف هيرفورد واسكندر نكوام ، وكانت رسالة أديلارد الباثي في المسائل الطبيعية أول مؤلف علمي أنتجته أوربة الغربية في القرون الوسطى .

وكان يوجد يهودي إسباني متنصراً اسمه بطرس الفونسي Petrus alphonsi ذهب إلى انكلترا وصار طبيباً لهنري الأول ونشر علوم المسلمين هناك لأول مرة .

إن الحياة العلمية التي انتعشت في طليطلة خلال القرن الثاني عشر تذكرنا من طرق شتى بفترة الترجمة في بغداد التي حدثت قبلها بثلاثة قرون . فمثلما أنشأ الخليفة المأمون (بيت الحكمة) كذلك أسس ريموند رئيس الأساقفة مدرسة للترجمة بإشراف رئيس الشمامسة (الارخدياقون) (دومنيكو گنديسالفي) وقد دام ازدهار هذه المدرسة في طليطلة حتى القرن الثالث عشر . إن الدور الذي لعبه العلماء المسيحيون والصابئة والمسلمون بلغات عدة في بغداد لعبه في طليطلة اليهود الذين يعرفون اللغة العربية والعبرية وأحياناً اللاتينية . فقد ترجم اليهودي المتنصر ابن داود الإشبيلي Avendeath كتباً كثيرة جداً في الرياضة والفلك والتنجيم من العربية إلى اللاتينية مثلما نقل ثابت بن قرة الصابي كتب اليونان إلى العربية . وعمل جيرار الكريموني للشعوب اللاتينية كما عمل حنين بن إسحق للعرب في ترجمة مؤلفات الفلاسفة والرياضيين والأطباء والطبيعيين .

ولد جيرار في كرمونا من أعمال إيطاليا (سنة ١١١٤ م) ورحل إلى طليطلة للبحث عن كتاب المجسطي لبطليموس ثم ترجمه إلى اللاتينية سنة ١١٧٠ م .

(١) راجع اثر العرب في الحضارة الاوربية لعباس العقاد ص ٤١ و ص ٤٢ .

وما عتم أن أصبح أعظم وأشهر مترجمي العربية ؛ وقد ساعده في ذلك مواطنان مسيحيان ومواطن يهودي واحد . وقد أصدر في العشرين سنة التي سبقت وفاته عام (١١٨٧ م) حوالى ثمانين مترجماً بعضها نفيس لدرجة لا تقدر ففتح بذلك أبواب الكنوز الثقافية اليونانية والعربية على مصاريعها فضلاً عن أنه أضحى مثالاً لأتباعه الذين ساروا على نهجه واحتذوه فكان الأب الحقيقي للاستعراب في أوربة .

إننا مدينون لجيرار في حقل الطب بترجمات لمؤلفات ابقراط وجالينوس وجميع مترجمات وآثار الكندي تقريباً وقانون ابن سينا العظيم . وكتاب الجراحة الشهير لأبي القاسم الزهراوي .

لقد ترجم في علم الطبيعة من العربية عدة مؤلفات لأرسطو يدخل في عدادها كتـــاب الجواهر المنسوب إلى هذا الفيلسوف العظيم ، فضلاً عن مؤلفات الفارابي وإسحق الإسرائيلي وثابت بن قرة . كذلك أدى (مرقس اللاهوتي) الطليطلي الذي ربما كان الند الأصغر لجيرار خدمة كبيرة فترجم رسالة أبقراط (في الأهوية والمياه والبلدان) وكثيراً من مؤلفات جالينوس عن مترجمات حنين وحبيش العربية .

وترجم روفينو Rufino وهو باحث من مدينة (ألسندريا) في إيطاليا ـ وإن عاش في مرسيه باسبانيا ـ ترجم كتاب حنين الشهير (مسائل حنين) بعنوان (مسائل طبية) . وعمد إبراهيم الطرسوسي اليهودي إلى مساعدة سمعان الجنوي على ترجمة كتاب (التصريف) لأبي القـاسم الزهراوي باسم Liber Servitoris ، وكتاب ابن سرابيون في الأدوية المفردة ؛ وترجمت أقسام من آثار أبي القاسم بقلم المدعو بركنر البلنسي Beregnar وارنالد من فيلانوفا الذي ترجم كتاب الأدوية القلبية لابن سينا .

سقطت صقلية نهائياً بيد النورمان عام (١٠٩١ م) بعد أن ظلت في قبضة الإسلام زهاء مئة وثلاثين سنة، وبقيت المركز الخصيب لانتشار العلوم العربية وكانت اللغات التي يتكلم بها سكانها بلهجاتها الدارجة اليونانية والعربية واللاتينية؛ وكان المثقفون فيها يتقنون الفصيح من هذه اللغات الثلاث. وكان ملوكها من روجر الأول حتى فردريك الثاني ومانفرد وشارل الأول من أسرة أنجو يستقدمون العلماء إلى بالرمو مهما كان دينهم ولسانهم. فشرع العلماء في بالرمو كما في طليطلة ينقلون من العربية واللاتينية واليونانية. وكانت أغلب هذه التراجم في الرياضة والفلك. هذا ولم تظهر في صقلية مترجمات طبية مهمة خلال القرن الثاني عشر؛ ولكن نجد في القرن التالي أيام حكم شارل الأول (١٢٦٦ — ١٢٨٥ م) المترجم اليهودي (فرجوت الجرجنتي).

لقد ظهر في بالرمو يهودي آخر اسمه (موسى البالرمي) درب على الترجمة اللاتينية بأمر من الملك شارل. ولا نعرف من آثاره إلا ترجمته لكتاب مشكوك في نسبته لابقراط في أمراض الخيل. وترجم ميخائيل سكوت الاسكتلندي أحد ندماء الملك فردريك الثاني جميع كتب أرسطو في علمي الأحياء والحيوان من العربية والعبرية إلى اللاتينية نخص منها بالذكر (مختصر علم الحيوان) مع شروح ابن سينا عليه وقدمه للامبراطور عام ١٢٣٢ م.

أما أثر الحروب الصليبية في نقل علوم المسلمين من الغرب فانه كان من الضآلة بدرجة يقف أمامها المرء مشدوهاً.

والكتاب المهم الذي ندين به لهذا الحدث التأريخي هو الكتاب الكامل أو (كامل الصناعة) لعلي بن العباس المجوسي ترجمه (اسطيفان البيزي) وهو من سكان بيزا نال ثقافته في سالرنو وصقلية ثم رحل إلى إنطاكيا وفيها ترجمه عام ١١٢٧ م باسم Liber Regales وتعرض فيه لنقد الترجمة التي عملها قسطنطين الإفريقي للكتاب نقداً مراً كما سنرى.

لقد أنجزت بعض الترجمات اللاتينية في القسم الشمالي من إيطاليا نذكر على سبيل المثال (برغنديو البيزي) الذي أكمل ترجمة عشرة كتب عن جالينوس عن اليونانية رأساً حوالى سنة ١١٨٠ . وترجم (اكيوريوس) Accurius كتاب جالينوس في قوى الأطعمة de Vibilus Alimentorum عن ترجمة حبيش العربية له حوالى سنة ١٢٠٠ م .

وترجم (بانا كوزا اليهودي المتنصر) كتاب الكليات لابن رشد في بادوا سنة ١٢٥٥ م .

ونقل (بارفيسيوس) كتاب التيسير لابن زهر بمعونة يعقوب اليهودي في البندقية سنة ١٢٨٠ م .

أما عن المترجمين الآخرين فلا نعرف شيئاً عن مواطنهم والزمان الذي عاشوا فيه (كداود هرمنيوس) David Hermenus الذي ترجم كتاب علاج أمراض العين لعمار الموصلي .

حفل ذلك العصر كذلك بتراجم كثيرة لاتينية نجهل أسماء مترجميها منها ، رسائل لموسى بن ميمون وابن سينا وجابر والرازي وابن الهيثم ، ومما يجدر التنويه به أن أغلب الترجمات الكيماوية نجهل أسماء مترجميها .

سارت عملية الترجمة سيراً حثيثاً حتى القرن السادس عشر ، وإننا لنجد ذكر (أندريا الباكو البلوني) (توفي سنة ١٥٢٠) ضرورياً بوصفه أحد مشاهير مترجمي كتب ابن سينا (القانون Canon والنفس de Animia وتقدمة المعرفة) ؛ وترجم كذلك كتاب (السكنجبين) لابن سينا (والكناش) لابن سيرابيون وآثاراً صغيرة لابن رشد ويوحنا بن سيرابيون ومعجم الأطباء الذي كتبه ابن القفطي . وثم تراجم عديدة تعود إلى ما بعد ذلك التأريخ استخدمت بصورة واسعة في التدريس الجامعي على الأخص في فرنسا وشمالي إيطاليا .

وهكذا انتقلت مثات(١) من تراجم التراث العربي الاغريقي العلمي إلى تربة أوربة الجدبة ؛ وكانت النتيجة زخات من المطر الوابل أحيت تلك الأرض الموات . هذا وبعد القرن السادس عشر صار الطب والعلم وعلى الأخص في شمالي إيطاليا يبتعد عن العربية ليدنو أكثر فأكثر من الترجمة عن اليونانية مباشرة فحصل نزاع بين الاتجاهين العربي واليوناني ، واشتد الخصام بين أنصار الجهتين وإن لم يكن كبير فرق ثمّ بين الاثنين ، فالطب العربي استمدت بعض جذوره موادها العلمية من الطب اليوناني كما نعلم ، وقد بوشر طبع جميع الكتب اليونانية والعربية (العلمية والطبية) بعد اختراع فن الطباعة وأعيد طبعها مراراً عديدة وبرغبة مستمرة .

قسطنطين الإفريقي

أشهر تراجمة سالرنو

تقول دائرة المعارف(٢) البريطانية عنه إنه مغامر اشتهر في الطب ، وكان نصرانياً عربي القومية ، ولد في قرطاجنة (تونس) عام ١٠٢٠ م وقيل إنه درس الطب في حواضر العالم الإسلامي . وبالحقيقة فإن قصة حياته منذ ولادته حتى عام ١٠٧٠ غامضة ، فقد ورد في رواية أخرى ذكرتها أيضاً دائرة المعارف البريطانية أنه نشأ وترعرع في صقلية ، واستدلت على ذلك باتقانه اللغة العربية التي كانت سائدة في صقلية ، (بجانب اليونانية واللاتينية) حتى القرن الحادي عشر ولمعرفته معرفة حسنة لليونانية واللاتينية كذلك .

---

(١) راجع كتاب تراث الاسلام ج ١ ص ٢١٨ و ٢١٩ .

(٢) راجع دائرة المعارف البريطانية ج ص ٣٠٤ .

لقد اشتهر قسطنطين بترجماته من العربية إلى اللاتينية تلك التي تمت بعد ١٠٧٠ ، حيث حط رحاله في سالرنو أولاً ثم التحق بدير للبندكتيين في مونت كاسينو Monte Cassino ، وفي هدوء وسكينة ترجم معظم الكتب التي نسبت إليه ترجمتها ، والتي كانت السبب في شهرته التي لفت العالم آنذاك لفاً ؛ وقد وافاه الأجل عام ١٠٨٧ ، هذه خلاصة ما ورد عن قسطنطين في دائرة المعارف البريطانية ؛ أما المصادر الأخرى فتذكر قصة حياته بشيء من التفصيل أكثر وتنسب سيرته إلى الأسطورة وليس إلى التاريخ .

قالت المستشرقة زيغرد هونكه (١) في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب وأيدها في معظم ما سردته الدوميلي قالت : أبصر النور في عام ١٠٢٠ م طفل نجهل عنه الشيء الكثير ، أبصر النور في قرطاجنة (تونس) في نفس العام الذي ولد فيه (هيلدبيراند) Hildebrand وهو الذي تربع على عرش البابوية باسم غريغوريوس السابع Gregor VII ؛ أما الاسم الحقيقي لهذا الطفل فنحن نجهله ، ولكن قيل إنه دخل المسيحية فيما بعد وسمّى نفسه قسطنطين .

نما هذا الطفل حتى أصبح فتىً يافعاً وأمضى نصف عمره يرحل إلى أرجاء الأرض ويطوف بحواضر العالم .. وقد عمل بالتجارة وتاجر بالعقاقير واحتك بالطب العربي احتكاكاً مباشراً وسمع من أساطينه أكثر من مرة ، وها هو قسطنطين يلتقي في بغداد أولاً وفي حلب وانطاكية ثانية بابن بطلان وقد دخل هذا في خدمة أمير شيزر وهو جد أسامة الأول .

وكان ابن رضوان في القاهرة رئيس الطبابة فيها ، وكان سائراً على خطى أسلافه في علم التداوي والشفاء .

---

(١) راجع شمس العرب تسطع على الغرب ص ٢٩١ وما بعدها وراجع كذلك كتاب العلوم عند العرب للدوميلي ص ٤٢٨ وما بعدها .

وعندما بلغ قسطنطين الأربعين زار لأول مرة صقلية ، وكانت هذه الزيارة أول اتصال له بأرض الفرنجة ، واتصل بالقصر ، وكان هناك حديث طويل بينه وبين شقيق أمير سالرنو الذي كان طبيباً ... تحدثا خلاله عن أشياء كثيرة ، وتطرقا إلى موضوع الطب والعقاقير ، بل تناولا هذا الموضوع بالذات قبل أية موضوعات أخرى ، وأي عجب في هذا وصاحبنا كان تاجر أدوية له من التاجر تفكيره وحسه وطرقه ، وكان محدثه طبيباً له من الطبيب تفكيره وطموحه وفضوله ! وحدثه قسطنطين عما سمعه من معجزات الطب العربي وصاحبه منصت إليه مرهف السمع ، ووعد محدثه (بعد أن عرف ببصيرته الفارق الكبير بين الطب الإفرنجي والطب العربي) بأن يزودهم في سفراته القادمة بكنوز من الطب العربي إضافةً إلى العقاقير .

وعاد قسطنطين إلى مصر ليدرس الطب تدفعه رغبة ملحة جامحـــة . وبعد سنين من الكفاح المتواصل والدرس والتحصيل عاد مرةً ثانيةً إلى سالرنو وفي حوزته رزمـــة من الكتب ؛ وكانت سالرنو آنذاك في أيدي النورمنديين يحكمها الدوق روبرت جيسكارد Robert Guiskard .

وكان أول شيء قام به تعلمه للغة البلاد ومعارف علمائها ، ومن ثم أكب على العمل إكباباً كلياً يترجم المخطوطـــة تلو المخطوطة فتتناقلها الأيدي بإعجاب كبير .

كبر مقام قسطنطين ، وأصبح يشار إليه بالبنان ، واعتبر من أعاظم العلماء الذين لم تر مثلهم سالرنو من قبل . لقد أراد قسطنطين أن يعتزل لينصرف إلى الترجمة بكليته فاعتكف في الدير البندكتي بمدينة مونت كاسينو وانهمك تماماً في ترجمة ما تبقى معه من نفيس الكتب إلى اللاتينية مكملاً وسع جهده الثغرات التي سببها غرق بعض المخطوطات التي جلبها معه ، عند قدومه إلى سالرنو ، كما تقول الرواية . وقد وافاه الأجل ١٠٨٧ بعد أن عاش

سنتين اثنتين من بعد موت البابا غريغوريوس السابع الذي أطلق عليه أحد أصحابه الشيطان القديس Heiliger Satanas .

كانت اللغة اللاتينية التي كتب بها قسطنطين ترجمته ركيكة يصفها مايرهوف (١) بأنها لاتينية بربرية ؛ وقد استخدم تلميذه أتو Atto (٢) للوثوق من صحة ترجماته من وجهة النظر العلمية . وقد ظل العلماء طويلاً يفترضون أن من كتب قسطنطين ما هو أصيل ، وليس هذا بصحيح ، ولكن مما ساعد على هذا الرأي بلا ريب أنه يقدم كثيراً من كتبه دون التصريح بأنه ترجمة ؛ والكشف عن الأصول العربية وحده هو الذي سمح بالوقوف على هذه الحقيقة ؛ فقد تعرّضت شهرة قسطنطين للخطر في اللحظة التي قرر فيها في انطاكية الطبيب اللومباردي اسطيفان Stephan البيزاوي (الذي أوردنا ذكره سابقاً في إيجاز) أن ينقل بعضاً من كنوز العرب في الطب لشعوب أوربة المسيحية . نقول في هذه اللحظة دخلت شهرة قسطنطين في منطقة الخطر .

ابتدأ (٣) اسطيفان عام ١١٢٧ بنقل كتاب « كامل الصناعة » المعروف بالكتاب « الملكي » لهالي « Hali » أي (علي بن العباس) إلى اللاتينية ، وما إن نقل بعض صفحات منه حتى انتابه العجب وشعر بأنه أمام أشياء يعرفها من قبل . ترى ألم يقرأها من قبل ، ألم يمض من عمره سنوات ثلاثاً في درس أعمال الأستاذ قسطنطين في سالرنو ؟ ألم يسهر الليالي في درس ما جاء فيها وهو ما يراه في الكتاب العربي كاملاً منسقاً ؟ .

(١) راجع تراث الاسلام الجزء الأول ، بحث الترجمة .

(٢) راجع العلم عند العرب لدوميلي ص ٤٣٢ .

(٣) راجع شمس العرب تسطع على الغرب ص ٢٩٧ .

إذن ما نسبه قسطنطين لنفسه لم يكن من بنات أفكاره بل كان نقلاً عن عالم عربي ؛ وأيقن أنه أمام سارق كبير فشن هجوماً عنيفاً مقذعاً على مولف Liber Pantegni المزعوم .

وفي صقلية وجد المترجم دمتريوس Demetrius في كتاب قسطنطين عن البصريات De oculis كتاب حنين في أمراض العين ، ووجد في مخطوطة قسطنطين الهامة Viaticum كتاب زاد المسافرين لابن الجزار . ووجد في كتبه عن علم الحمية والبول والحمى ترجمات بتصرف لمخطوطات اسحق الاسرائيلي . وأما جراحة قسطنطين فهي في الواقع من صنع علي بن العباس ، وكيمياؤه من صنع الرازي . ولم يكن هناك إلا بضع مخطوطات لأبقراط وجالينوس لم يعبث بها ، وكان قد أخذ معه إلى إيطاليا ترجماتها العربية بقلم حنين ابن اسحق وابن اخته حبيش بن الأعسم دون أن يغير من أسماء مؤلفيها اليونانيين ، على عكس ما فعل تماماً بالمخطوطات العربية ، إذ لم يكن من يعرف أسماء مؤلفيها في أوربة فكان أن نسب كل مخطوط عربي إلى نفسه وتجاهل اسم مؤلفه ؛ فعل ذلك خوفاً من أن يقطف ثمار عمله سارق آخر غريب على حد قوله ، وهو في عمله هـــذا كاللص الداهية الذي ينادي أمسكوا السارق في حين أنه هو السارق بالذات .

وفي الحقيقة فان هذه السرقات لم يكن لها أهمية إلا عند نفر قليل من المثقفين ، لذا ظل اسمه على تلك المخطوطات ، إذ لم يكن الناس آنذاك شديدي الحرص والمحافظة على حقوق التأليف ؛ وكان له منافسون في السرقة لهم مركزهم العلمي والديني في زمنه . ألم يسبقه رئيس أساقفـــة سالرنو ألفانوس Alphanus إلى سرقة مخطوطة إغريقية ترجمها إلى اللاتينية ونسبها إلى نفسه ؟

ولكن مؤرخ الطب الفرنسي دارمبارغ Daremberg أبي إلا أن يقول كلمة شديدة اللهجة وعادلة في حق قسطنطين ، فقد وجه إليه انتقاداً مراً لاذعاً لسرقاته ، ولكنه شعر في قرارة نفسه أن قسطنطين هذا يستحق التكريم لفضله العظيم بنقل آثار العرب إلى أوربة وفي إيقاظ علم الطب الأوربي من سكونه الذي كان يشبه الموت فكان أن اقترح إقامة نصب تذكاري له على قمة الجبال المشرفة على سالرنو .

الكتب التي ترجمها قسطنطين [1] : ألمحنا سابقاً إلى الكتب التي ترجمها قسطنطين ونضيف أنه ترجم قسماً كبيراً من الكتاب الملكي لعلي بن العباس ، وكتاب زاد المسافرين لابن الجزار ، وكتاب طب العيون لحنين بن اسحق ، وترجم كثيراً من كتب إسحق الإسرائيلي في البول والحميات والحمية عن الطعام والأدوية المفردة .

وترجم قسطنطين من العربية أيضاً كتباً كثيرة إغريقية الأصل كانت توجد نصوصها في العربية مثل كتابي Aphorismes و Prognosticon ، ومثل Mikrotechne و Megatechne وغير ذلك من شروح أبقراط الكثيرة لجالينوس ، الخ .

وفي تأريخ بطرس دياكونوس Petrus Diaconus (المتوفى بعد سنة ١١٤٠) نجد كتابات قديمة عظيمة الدقة عن قسطنطين الإفريقي كما نجد قائمة للكتب التي صنفها .

---

(١) راجع العلم عند العرب للدوميلي ص ٤٣٢ .

تلامذة قسطنطين :

كان هناك رجلان ساعدا قسطنطين في ترجمته عن العربية إلى اللاتينية ، أولهما تلميذه الفتى العربي يحي بن عقلة الذي أنقذه معلمه من الفقر والعوز وقربه إلى نفسه فاعتنق المسيحية وسمى نفسه يوحنا أفلاسيوس Johannes Afflatius أو يوحنا الفاسي Johannes Saracenus وأصبح طبيباً شهيراً بعد وفاة معلمه وعمل على إدارة ما خلفه له .

وثانيها تلميذه أتو Atto الذي أصبح فيما بعد طبيب الامبراطورة اغناس Agnes [1] الخاص ، ونقل لها ترجمات أستاذه إلى الشعر الروماني .

أما تلميذه الثالث بارتلماوس Bartolomaus فقد نقل إلى الألمانية الفصحى والألمانية العامية والدانمركية كتابه Paractica الذي حمل مباشرة إلى الشعب في القرن الثالث عشر علم الشفاء العربي .

وفي عام ١٢٥٠ م ترددت أسماء عربية مع اسمي قسطنطين وبارتلماوس في خطب برتولد فون رجنبورغ التي كان يلقيها في أوربة ، ولم يكن كل هذا إلا قطرات من الماء تلمع في جو ربيعي عاصف ما لبثت أمطاره أن انهمرت فوق أرض أوربة المتحجرة فغسلتها من تحجر المتقدات وبعثت فيها ربيعاً يانعاً مثمراً .

إذن فقد كان أثر هذا السيل العرم من نتاج العرب عظيماً وبعيد المدى ؛ والواقع انه لم يكن هناك طبيب في سالرنو إلا وقد استقى علومه ومعارفه من مؤلفات العرب ، كما لم يكن هناك أي كتاب جديد في العلوم أو في الطب خاصة إلا وتأثير التفكير العربي واضح فيه .

(الموصل) الدكتور فيصل دبدوب

(١) شمس العرب تسطع على الغرب زيغرد هونكه ص ٢٩٩ .

التعريف والنقد

كتاب المعتمَد في أصول الفقه

تأليف : أبي الحسين محمــــد بن علي بن الطيّب البصري المعتزلي
المتوفّى ببغداد سنه ٤٣٦ هـ = ١٠٤٤ م

اعتنى بتهذيبه وتحقيقه محمد حميد الله ، بتعاون محمد بكر وحسن حنفي

الجزء الأول ، دمشق : ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م

والجزء الثاني ، دمشق : ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م

لا يخفى أن المعتزلة طائفة كبرى من المسلمين ، ويسمُّون أصحاب العدل والتوحيد ، ويلقبون بالقَدَرية ، وهم نفاة القدر القائلون بأن الله تعالى لا يعلم الأمور إلا بعد وقوعها . والذي يعمّ هذه الطائفة من الاعتقاد ، هو القول بأن الله تعالى قديم ، والقِدَم أخصّ وصف ذاته ، ونفَوا الصفات القديمة أصـــلاً ، فقالوا هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته ، لا بعلم وقدرة وحياة هي صفات قديمة ومعان قائمة به ، واتفقوا على أن كلامه محدث لمخلوق في محل ، واتفقوا على أن الإرادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته ، واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار ، في دار القرار . ومن أمعن النظر وتدبر كلام أئمة السنّة المشاهير في باب أسمائه تعالى وصفاته ، عَلِم عِلم اليقين أنهم كانوا أدقّ الناس نظـــراً ، وأعلمهم بصحيح المنقول ، وصريح المعقول ، وأن أقوالهم هي الموافقة لها ، ولهذا تأتلف ولا تختلف ، وتتوافق ولا تتفارق .

الإسلام يجمع الفِرَق ويعمّها

قال الإمام أبو الحسن الأشعري في أول مقالات اختلاف الإسلاميين : اختلف المسلمون بعد نبيهم في أشياء ضلل فيها بعضهم بعضاً ، وتبرأ بعضهم من بعض ، إلا أن الإسلام يجمعهم فيعمهم ، فهذا مذهبه وعليه أكثر الأصحاب ، وقال ابن تيمية في كتابه المعقول والمنقول : ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة ، وحسنات مبرورة ، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع ، والانتصار لكثير من أهل السنّة والدين ، ما لا يخفى على من عرف أحوالهم ، وتكلم فيهم بصدق وعدل وإنصاف (١) .

وقد ترجم ابن خلكان لأبي الحسين البصري المعتزلي مؤلف هذا الكتاب فقال : كان إمام وقته ، وله التصانيف الفائقة في أصول الفقه ، منها المعتمد ، وهو كتاب كبير ، ومنه أخذ فخر الدين الرازي كتاب المحصول ، سكن بغداد وتوفي فيها (سنة ٤٣٦ هـ) .

والحق انه كتاب ضخم فخم ، من أوسع كتب الأصول وأهمها ، فقد بلغت صفحاته في جزءيه ، ألفاً وخمسين صفحة ، عدا الفهارس المستقلة في آيات الاستشهاد الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، وفهرس عام لمواضيع الكتاب والأعلام والأماكن ، ومها تكــــرر اسم العَلَم في الصفحات والأسطر يشار إليه ، أو يدل عليه ، فقاضي القضاة عبد الجبار المعتزلي مثلاً قد أشير إليه بالأرقام المتعددة بما يقرب من مائتي مرة !!

هذا وإن من القواعد القرآنية الآتي بعضها ، والمبادي الكلية العامة التي اشتقت منها ، أخذ علماء الأصول قواعدهم ، وبنى عليها الفقهاء أحكامهم ،

---

(١) من «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» ص ١١٦ .

فالقرآن الكريم في هذا الباب هو أصل الأصول ، ومصـــدر التشريع والتفريع ، والاستنباط والتخريج ، وقد أسند فيه الإفتاء والقضاء إلى منزله ، فقال سبحانه : « قل الله يفتيكم » « فالله يحكم بينهم » وقضت به سنة النبي عليه الصلاة والسلام في النوازل والأحكام ، وسار على هذين الأصلين الصدر الأول ، ومن تبعهم باحسان ، أخذاً واستدلالا ، واجتهاداً وقياساً ، فتولّدت الفروع من الأصول ، وتنوعت فيها المآخذ والمدارك ، ودونت المذاهب على تراخي العصور ، ورتب الفقه هذا الترتيب الذي نراه في مصنفاته ، ففي أول سورة المائدة « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وهو أمر بالوفاء في كل عقد عقده المؤمن وارتبط به مع غيره ، ويدخل في هذا الباب العقد بالفعل ، كإعطاء المال لمن بيده تذاكر السفر في البواخر ، والمراكب البرية والجوية ، وقوله « وأوفوا بالعهد » فهو أمر بالوفاء بالعهود كلها ، وقال : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » فهذه الأدلة تثبت النظرية العامة في العقود ، ويدخل فيها جميع ما أورده الفقهاء في أبواب المعاملات التي عقدوها في كتبهم ، وما سكت عنه الشارع رحمة منه غير نسيان ولا إهمال .

ألا وإن الكتاب العزيز والسنة النبوية وافيان بالنصوص ، في العقود والعهود ، والشروط والواجبات والالتزامات ، وهي دالة على معانيها ومقاصدها ، بعموم ألفاظها لا بطريق الاجتهاد والاستحسان ، وقد ذكر الإمام ابن القيم طائفة منها في (أعلام الموقعين) هي في نفسها قواعد كلية ومبادي عامة ، مشتملة على المصالح والمطالب الشرعية ، معللة بعللها وأسبابها .

رتب كتاب « المعتمد » أبوابه على قواعد الأصول ، وبين الحقيقة والمجاز ، ووصف الحقائق الشرعية والعرفية ، وبحث في الأوامر والنواهي ، وعقد أبواباً للعموم والخصوص ، والمجمل والمبيَّن ، وتكلّم في الأفعال ، وفي الناسخ والمنسوخ ، وبه ختم الجزء الأول . وأما الجزء الثاني فقـــد بدأ

فصوله في الإجماع وكونه حجة بشروطه ، والأخبار المتواترة وغيرها ، وما يترجح به أحد الخبرين إذا تعارضا ، ثم الكلام في القياس والاجتهاد ، وفي الحظر والإباحة ، وأخيراً في المفتي والمستفتي ، وكتاب زيادات المعتمد ، وكتاب القياس الشرعي . وصوّر في نهاية الكتاب صفحات من نسخه الاستانبولية واليمانية التي طبع عليها .

وأثبت الأستاذ المحقق محمد حميد الله في آخر الكتاب مقدمته التي بلغت أكثر من أربعين صفحة باللغة الفرنسية ، ذكر فيها أن هذا الكتاب قد امتاز بخاصتين ثنتين ، وهما كونه في أصول الفقه ، وكون مؤلفه من علماء المعتزلة ، وشرح هاتين المزيتين بنحو تسع صفحات ، ثم كتب فصلاً بعنوان : محلّ هذا المؤلّف في تاريخ أصول الفقه ، وفصلاً آخر في صفات المؤلّف وخصائصه ، وآخر في الشهادات العليا لهذا « المعتَمَد » الأصولي ، وشذرات بالعربية والفرنسية في أماكن النُّسَخ الخطية من هذا الكتاب ، وتاريخ خطها ، أو وقفها ، وأسماء واقفيها أو مالكيها ، وهذا مثال من المكتوبات (ص ٣٦) : الحمد لله ، هذا من كتب الوقف منقولاً من ظفار ، بأمر مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله ، حفظه الله ، وأحيا به معالم الدين ، وأمر بوضعه في المكتبة العامة الجامعة لكتب الوقف ، بمحروس جامع صنعاء المقدّس التي أمر بعمارتها بأزاء الصومعة الشرقية ، بتاريخه (شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٨ هـ) ، وفي (ص ٣٨) : الحمد لله ، قد صار هذا المجلّد من جملة كتب مولانا العلامة سيف الإسلام وزير الخارجية عبد الله بن أمير المؤمنين ، المتوكل على الله ، يحيى بن محمد ، حفظ الله لنا أيامه ، (الحجة الحرام سنة ١٣٧٠) .

وفي هذه الصفحة زيدت زيادات ليست من العقل ولا من النقل في شيء ، وليت المحقق لم ينشرها ، إذ ليست من أصل الكتاب ، ولا من

مباحثه ، منها ما نصه : وروينا عنه صلى الله عليه وآله أنه نظر إلى الحسن والحسين عليهما السلام فبكا (كذا) ، فهابه أهله أن يسألوه عن بكائه ، فوثب الحسين عليه السلام ، فقال : ما يبكيك يا أبة ؟ قال : يا بني إني سررت بكم اليوم سروراً ، لم أسرَّ بكم قبله مثله ، فأتاني جبريل فأخبرني أنكم قتلاوان (كذا) مَصارعكم شتّى فقال : يا أبة ، فمن يزورنا على تباين قبورنا ؟ ، فقال عليه السلام : قوم من أمتي ، يريدون بذلك بري وصلتي ، إذا كان يوم القيامة أتيت إليهم . فأخذت بأعضادهم ، فأنجيهم من شدائدها وأهوالها ، وهذه الرواية ليس لها سند ، وهي مخالفة للواقع ، إذ أن الحسن عليه السلام لم يقتل ، وقال (قتلاوان) بدل (قتيلان) ، وبعد إيراد خبر ثان ، قال الكاتب : وأخبرنا رواية هذه الأخبار للأميرين الأوحدين السيدين يحيى ومحمد ابني أحمد ، تولا (كذا) الله تعالى توفيقهما ، ثم نوّه بالمعتمد ومزاياه ، وذكر مختصره وعزاه لمؤلفه ، وفي (ص ٤٠ و ٤١) ذكر كتاب تجريد المعتمد ، واسم من ملكه شراء ، ومن انتقل إليه من بعد .

وختم الأستاذ محمد حميد الله مقدمته بأداء واجب الشكر وعرفان الجميل ، إلى الأستاذ هنري لاوست لتقديمه دراسات قيمة ، حول هذا النص من مجموعة مصادر موجودة في المعهد الفرنسي العربي بدمشق (قال) وهو الذي يحمل إلينا دائماً أكبر وأثمن المساعدات .

النسخ ومعناه

إن اسم النسخ شائع في كتب أصول الفقه ، وقد كتب هذا الكتاب (المعتمد) فيه صفحات ، والنسخ : حقيقة الإزالة ، وله شروط معروفة في الأصول ، وقد سمّوا به ما ليس منه توسعاً وتسامحاً ، كتفصيل المجمل ، وبيان المبهم ، وتخصيص العام ، وكالاستثناء ، وقد أجمع علماء الأصول

وعموم المفسرين على أن الآية التي لا تتعارض مع غيرها تبقى على إحكامها ، وإن الناسخ والمنسوخ غير وارد إلاّ في الآيات القرآنية التي يتعذر الجمع بينها ، وجميع الآيات التي أوردت في هذا الباب ، يمكن الجمع بينهـا ، بدون إبطال الحكم في أية آية منها ، وإني مورد ثلاثة أمثلة لذلك بالكلم الوجيز .

١ — آية الدَّين (٢٨٢ — ٢٨٣) من أواخر سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنو إذا تداينتم بدَين إلى أجلٍ مسمى فاكتبوه » ثم قال : « فإنْ أمن بعضكم بعضا ، فليؤد الذي أوتمن أمانته وليتق الله ربه » فالظاهر من مجموع الآيتين أنه إذا أمن بعضهم بعضاً ، فلا تجب كتابة الدَّين ، وإلا وجبت .

٢ — وقوله تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما ، فتذكِّرَ إحداهما الأخرى ٢٨٢ » جعل تعالى المرأتين مكان الرجل الواحد في آيتي الأموال والديون وآجالها ، لأن الأصل في مثل هذه الأعمال هم الرجال ، أما ما يختص بهنّ فقد فرّق الرسول (ﷺ) بين رجل وامرأته بمجرد أن أخبرت امرأة موثوقة بأنها أرضعتها .

٣ — وقوله سبحانه : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » ، مع قوله : « لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ٢٨٤ — ٢٨٦ » يحاسبنا تعالى على ما يتأصل في نفوسنا من الصفات والملكات ، إن كانت خيراً أو شراً وسواء علينا أظهرناها أم أضمرناها ، أما الخواطر السوانح البوارح التي تمر بالانسان ، فيدفعها مستعيذاً بالرحمن ، فلا يحاسب عليها ، إذ هو لم يقصدها ولم يعمل بها « إن الذين اتقَوا ربهم إذا مسَّهم طائف من الشيطان ،

تذكروا فإذا هم مبصرون » فكلُّ آية باقية على إحكامها ، لا ناسخة ولا منسوخة .

وما يورده بعضهم من النسخ في آيات السِّلم ، وأن ليس لغير المسلمين إلا اعتناق الإسلام أو الحرب ، فهذا خطأ لا يحتمل الصواب ، بل الإسلام ، دين السلام ، لجميع الشعوب والأقوام ، وهو حرب على الأعداء اللئام ، « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » فالآية صريحة في قتال المعتدين ، لا في من ألقى إلينا السَّلَم وكفَّ عن الحرب ، ولا فيمن لم يقاتل من النساء والشيوخ والمرضى ، فآيات السلم والحرب كلها محكمة ، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ .

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

هذا وإنا نقدم أعطر الشكر ، وأطيب الثناء ، للأستاذ محقق الكتاب ومعاونيه ، وللمعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، الذي نهض بطبعه على حسابه ، وقدَّم نسخاً منه إلى المجمع العلمي العربي ، رئيسه وأعضائه ، راجين أن تزداد هذه الروابط العلمية بيننا على الدوام . وكنا نود لو نقلت مقدمته الفرنسية إلى العربية ، إذاً لكانت فائدتها أعم وأشمل ، والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .

محمد بهجة البيطار



تفسير القرآن الكريم

للإمام أبي عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي

المتوفّى سنة ١٦١ هـ = ٧٧٧ م

رواية أبي جعفر محمد ، عن أبي حذيفة النهدي عنه ، صحّحه ورتبه

وعلّق عليه : امتياز علي عرشي ، مدير مكتبة رضا

رامبور ، الهنـــد

طبع باعانة وزارة المعارف لحكومة الهند (١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م)

هذا الكتاب صفحة ناصعة من دراسة سلفنا للقرآن الكريم وفهمه ، فهو يفسره بأقوال الصحابة الكرام ، والتابعين ، ومن تبعهم باحسان ، ولو عُني سائر المفسرين عناية أولئك الأئمة السابقين بالذكر الحكيم ، لجدّدنا في عصرنا عهدهم ، وأعدنا لأمتنا مجدهم . قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات ، لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . فهذه هي الطريقة المثمرة التي تجدّد لنا عهداً بدراسة أولئك الأقطاب الذين استخلفهم الله تعالى في الأرض ، ومكن لهم فيها ، وأورثهم علوم الأمم وحضارتهم . وهـذا المنهاج القديم هو الذي يطبع الدارسين بطابع اللغة والإسلام والفضيلة .

والآن نوجز القول بوصف ما اشتمل عليه هذا التفسير الجليـــل مع تحقيقاته وتعليقاته .

فأوله مقدمة المصحّح في أربعين صفحة ، وقد أبانت التفسير في عهد النبي وصحابته ، والتابعين وأتباعهم ، فترجمة المؤلف منذ ولادته إلى حين وفاته ، ذكر فيها تحصيله للعلم وأساتذته وتلاميذه ، ومؤلفاته ، وما لقيه في سبيل الحق الذي كان يحافظ عليـــه ويدافع عنه ، وفي نهاية الترجمة (ص ٣٩ و ٤٠) مآخذ الترجمة ومصادرها ، ومعها أرقام الأجزاء والصفحات . ومما قيل في رثائه رحمه الله :

لقد مات سفيان حميداً مبرّزاً على كل قارٍ ، هجّنته المطامع

ومنهـا : « « « « « «

جعلتم فداءاً للذي صان دينـــه وفرَّ به ، حتى حوته المضاجع

ومنهـا : « « « « « «

فعيني على سفيان تبكي حزينـة شجاها طريدٌ نازح الدار شاسع

ومنهـا : « « « « « «

على مثله تبكي العيون بفقــــده على واصل الأرحام ، والخلق واسع

وقد وصف المصحح النسخة الوحيدة التي طبع عنها إذ لا يوجد غيرها ، وعرّفها تعريفاً وافيا .

وهذا التفسير جامع لتسع وأربعين سورة ، أولها البقرة ، وآخرها الطور ، وقد سقط من بينها تفسير سورة محمد وسورة الدخان ، كأن الثوري لم يكن عنده فيها شيء . هذا الكتاب الذي انتهى بسورة الطور ، كله روايات بالمأثور ، وقد بلغت ٩١١ رواية ، وأكثرها مروي عن مفسري مكة ، وفيها روايات رفعت إلى رسول الله ﷺ ، وروى المؤلف بالسند عن الصحابة كأبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وغيرهم ومن أمهـات المؤمنين عن عائشة وأم سلمـــة رضي الله عنهم أجمعين . وأكثر رواياته منقطعة رواها عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم .

ويكاد يكون هذا التفسير مما يُسمى تفسير غريب القرآن ، فهو تفسير للمفردات ، لا للسور والآيات ، وإليك أمثلة منها :

١ — سفيان ، عن أبي الهيثم ، عن سعيد بن جبير ، في قوله جلّ وعزّ : « أو كصيّب من السماء » قال : السحاب فيه المطر (١) (الآية ١٩) .

٢ — سفيان عن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قول الله جلّ وعزّ : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » قال : تطيعون (٢) — (الآية ٢١) —

٣ — سفيان عن مجاهد « فلا تجعلوا لله أندادا » قال : عدلاء ، « وأنتم تعلمون » يا أهل الكتاب ، تعلمون أنه واحد في التوراة والإنجيل (٣) ، (الآية ٢٢) .

هذه أمثلة من هذا السِّفر الجليل ، وقد ذكر المصحّح مراجع التفسير ، ونحن أغفلنا ما ذكره هذا المصحح الكبير من تراجم الرواة بالكلم الوجيز ، فقد سمّى مراجعها من المعاجم التاريخية مشيراً إلى أرقام الأجزاء والصفحات كما في عمل كتب التفسير . وقد بلغ هذا التفسير (٤٨٨) صفحة ، منها (٢٤٤) صفحة ، وهذا هو النصف الأول ، الذي بلغ سورة الطور ، وهي آخر التفسير ، وأما النصف الثاني ، فقد عنونه الأستاذ امتياز علي عرشي — وهو الذي صححه ورتبه وعلق عليه — بعنوان (الخاتمة) في تراجم

---

(١) روى الطبري ١ / ١١٤ عن سوار بن عبد الله العنبري ، قال ، قال سفيان الصيّب الذي فيه المطر ، وليراجع ابن كثير ١ / ٥٤ والدر ٣٣ .

(٢) رواه الطبري ١/١٢٤ عنه بزيادة « لعلكم » قبل « تطيعون » — وليراجع القرطبي ١ / ٩٦ والدر ١ / ٣٤ .

(٣) روى الطبري ١ / ١٢٦ عن الثوري ، عن رجل ، عن مجاهد ، وأنتم تعلمون أنه إله واحد ا هـ وليراجع ابن كثير ١ / ٥٨ والدر ١ / ٣٥ .

رجال الثوري . قال : وأدرجت فيها كل من له ذكر في هذه الأحاديث والآثار ، سواء كان ذلك في أسانيدها أو متونها ـ ورتبتهـا على الصحابة والتابعين وأتباعهم ، والتزمت في التراجم على اختصارها ، أن لا تقصر عن إظهار ما في الرواة من القوة والضعف عند أرباب الجرح والتعديل ، وذكرت من المآخذ والمراجع كل ما كان في يدي من المطبوعات والمخطوطـات ، إتماماً لفائدة من يريد أن يكتب على أحد منهم مستقلاً منفرداً . وقد بلغت هذه التراجم (٢٩٩) ترجمة ، وطريقته فيها أنه يترجم للراوي ملخص ما ذكروه ، مما تهمّ معرفته ، ثم ينوّه بالكتب التي لخصها منها سواء أكانت مطبوعة أو مخطوطة ، مع الدلالة على أرقام الأجزاء والصفحات .

وفي آخر الكتاب استدراكان مطوّلان ، أحدهما على الحواشي (أي التي على التفسير وهي النصف الأول من الكتاب) وثانيها على التراجم ، وهي النصف الأخير . وهذه المستدركات هي أسماء مراجع من كتب وأرقام لما فات المحقق ذكره في صفحاته ، مشيراً إليها ، ودالاًّ عليها ، ثم ختم الكتاب بأربعة فهارس ، أولها فهرس المآخذ والمراجع ، فعدّ منها (٢١) لكتب التفسير والقراءات ، وقد بلغت مع كتب الحديث والأصول والكلام (٥٦) ثم مع كتب التاريخ والسيرة والرجال (١٨١) ومع كتب اللغــــة والأدب (٢٠٥) . ثانيها فهرس الأشخاص والقبائل والأقوام ، هادياً إلى الأرقام ، مها تكررت هذه الأعلام ، ثالثها فهرس الأماكن والبـــلاد ، رابعها فهرس الكتب والألسنة . والحق أقول : إني لم أر كتاباً شرقياً أو غربياً أوسع استيعاباً ، أو أكثر عناية وإتقاناً من هذا الكتاب ، وتعليقات الأستاذ المصحح ليس عليها أثر للعجمة ، بل هي مثل رائع في فصاحتها ، ولعمري إن هذا ببركة القرآن المنزل الذي عرّب الأقطـار ، وبلغ بلغة العروبة ما بلغ الليل والنهار .

★ ★ ★

ملاحظة مهمة

ذكر المصحح في مقدمته (ص ٣٥) خصائص هذه النسخة الوحيدة في الكتابة ، كعدم كتابة الألف في بعض المفردات ، وكعدم كتابة الهمزة والواو في بعضها الآخر . وقد نبه على هذا الاصطلاح لكيلا يشكل على القارئ إذا رأى ذلك .

ب . ب .



[النسائيّات] من الأحاديث النبوية الشريفة

مبوَّبة مشروحة شرحاً موجزاً وافيا ، مع تراجم الصحابة
تحقيق وشرح فضيلة الأستاذ الشيخ محمد صالح فرفور
الناشر : المكتبة الحديثة بدمشق

جعل العليم الحكيم حق الولاية العام في الإسلام للرجال والنساء على السواء ، وهي ولاية النصح والتذكير ، والتوجيه والتحذير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال سبحانه : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر » ويدخل في هذا التضامن والتعاون على البر والتقوى ، وعظ النساء ، حتى للخلفاء ، والملوك والأمراء . وقد كان النساء يعلمن هذا ويعملن به كالرجال ، كما فعلت تلك التي ذكّرت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) في أمر المهور ، وهو واقف على منبر الرسول (ﷺ) ، فاعترف بخطئه ، ورجع إلى قولها عن قوله . النساء ربّات البيوت ومربيات الأطفال ؛ بل هن أميرات الداخل ، ومعاقل المنازل ، والإسلام هو الذي أنزلهن المنزلة اللائقة بهن ؛ إذ قد

منح المرأة حقوقها ، وعرّفها واجباتها ، وآية : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » قد ساوت بين الرجال والنساء ، في الحقوق والواجبات ، وخصت الرجل بدرجة الرئاسة الشورية (لا الاستبدادية) ، إذ لا بدّ لكل أسرة وجماعة من نظام ، ولا بدّ لكل نظام من رئيس منفذ ، والرجل أولى بتطبيق النظام المنزلي وتنفيذه .

وكتاب (النسائيات) لمؤلفه الأستاذ الجليل الشيخ محمد صالح فرفور جامع لما يجب للمرأة وعليها ، وقد فصّل القول في هذا الموضوع وجعله في ستة أقسام ، مُتَوِّجاً كل قسم بأحاديث نبوية ، مشكولة ومعزوة إلى رواتها من الصحابة الكرام ، وإلى مخرّجيها في الصحيحين وكتب السُّنَن ، مشروحة شرحاً واضحاً بالكلم الوجيز ، وفي طليعة الكتاب تراجم الرجال المخرجين من أئمة الحديث الذين ورد ذكرهم في (النسائيات) ، وعقب كل حديث شرحه الموجز ، وترجمة الصحابي الذي رواه أو الصحابية . وهذه الأقسام الستة أولها في فريضة العلم ووجوب طلبه وتحصيله ، والثاني في العبادات المفروضة ، والثالث المحرّمات في الإسلام في طريق الحياة الزوجية ، والرابع المحرّمات في طريق الحياة العامة ، والخامس في الأخلاق الحميدة والندب إليها ، والسادس في الزهد والتواضع والتقوى ، وتحت كل قسم أبحاث منوعة في موضوعه . وختم المؤلف كتابه بثلاث فهارس ، أولها في الأحاديث النبوية مع بيان موضوعها ، مقرونة بأسماء رواتها من الصحابة ، والثاني للأعلام وتراجمهم بأرقامها ، والثالث في مواضيع الكتاب ، وذكر المصادر والمراجع .

والكتاب في جملته يصلح أن يدرس في الثانويات وفي كليات الشريعة ، وأن يكون أساساً من أسس الحياة المنزلية ، وتربيـــة الآباء والأمهات ،

للأولاد بنين وبنات ، على أشرف الخصال ، وأفضل الفعال . أثاب المولى تعالى المؤلف ثواب العاملين المخلصين .

وهنا نستدرك الكلمات القليلة التي سها عنهـــا المؤلف في جدول الخطأ والصواب :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٢	٣	لتلبس ثيابها	لتلبَس
٥٣	٦	وقل	« قل »
٥٣	٩	إلا لبعولتهم	« لبعولتهن »
٥٤	٥	مع بعضهم	بعضهم مع بعض
٦٤	٩	عن بعضها	بعضها عن بعض
٧٢	١٣	النساء أن يسجدوا	أن يسجدن
٧٦	٢	العاس	العاص
٨٠	٧	لكنّ ... وإقدار	وأقداراً
٨٣	١٠	إن لكل أمة شيمةٌ	شيمةً
٩٨	١٦	من سلطانا	سلطانا
١٢٣	١	دعوى العرس	دعوة العرس
١٢٧	٩	وعلى شرّا	وعلى شرٍّ
١٤٦	٦	بشَماله	بشِماله
١٥٣	٧	والتخمةَ	والتخمةِ
١٦٢	١٢	ليكفرّها	ليكفّرَها
١٧٧	٨	ويلبِسون	ويلبَسون



التاريخ الحربي الإسلامي

في سلسلة من المؤلفات القيمة

صنع اللواء الركن محمود شيت خطاب

— ١ —

« إن تاريخ العرب المسلمين الحربي ، مفخرة من مفاخر تاريخ الحرب العالمي ، وهذا التاريخ إذا أحسن عرضه ونشره غني بالدروس والعبر لكل عربي ولكل مسلم ، بل لكل منصف من غير العرب والمسلمين ؛ فلماذا يستورد العرب والمسلمون الدروس والعبر من تواريخ الأمم الأخرى ويتركون تاريخهم العريق وراءهم ظهرياً ؟ وإلى متى يبقون عالة على الأمم وأمتهم بأمجادها الشامخة أحرى الأمم بالتقدير والإعجاب ؟ ! » .

هذه الفقرة التي سُلَّت من كلام طويل ، تتضمن دعوى ذات عرض بالغ ، إذ أنها تؤكد أن التاريخ الحربيّ للعرب المسلمين يعتبر مفخرة في تاريخ الحرب عند مختلف أمم العالم ، كما أنهـا تجزم بغنى ذلك التاريخ بالدروس القيمة والعبر المفيدة في بناء مستقبل زاهر لأمة العرب ذات المجد النابر والحضارة العريقة ، وهي تتضمن أيضاً ، حث علماء العرب والمسلمين على دراسة تاريخهم دراسة عميقة ، ونشر تراثهم نشراً علمياً يغنيان أمتهم عن اللجوء إلى تواريخ غيرها من الأمم ، أو إلى دراسات غيرهم من العلماء للاستعانة بكل ذلك في تحصيل الدروس واستلهام العبر .

فمن هو صاحب هذه « الدعوى » ؟ وهل « شروط الادعاء » متوافرة

فيه ؟ وما هي « البراهين » على صحة مدعاه ؟ وماذا صنع مما يدعو العلماء إليه ؟ وإلى أي حدٍّ وُفِّق فيما صنع ؟

من الأمور المبتوت فيها ، أن المؤرخين العرب والمسلمين – كما يقول الأستاذ محمد عبد الغني حسن ، في مقدمة كتابه القيم (علم التاريخ عند العرب) – تركوا « ذخيرة تعتز بها المكتبة العربية ، وتفاخر بها في الميدان العالمي ، وتباهي بها من ناحية التوثيق الإخباري الذي يستند إلى الرواية والسند ، راوياً عن راوٍ ، بما لا نجد له نظيراً في تواريخ الأمم الأخرى [1] » وقيمة هذه الذخيرة التاريخية ، لم تكن إلا بفضل الجهود الجبارة التي بذلها علماء العرب والمسلمين في تدوين التاريخ ، بعد أن وضعوا القواعد الدقيقة لهذا التدوين ، واشترطوا فيمن يتصدى لكتابة التاريخ شروطاً قاسية ، عبر عنها أحد كبار المؤرخين المسلمين ، هو الإمام تاج الدين السبكي صاحب كتاب (طبقات الشافعية) بقوله : « فلا بد أن يكون المؤرخ عالماً ، عدلاً ، عارفاً بحال من يترجمه ، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له ، ولا من العداوة ما قد يحمله على الغض منه . وربما كان الباعث له على الضعة من أقوام مخالفة العقيدة واعتقاد أنهم على ضلال ، فيقع فيهم ، أو يقصر في الثناء عليهم لذلك [2] » .

من هذا نجد أن المصادر الموثوقة لتاريخ الدولة العربية الإسلامية متوافرة في عصرنا هذا ، ولا عناء في دراستها واستنباط ذخائرها المفيدة في حياتنا المعاصرة ، بشرط أن تتوافر – فيمن يتصدى لذلك – الصفاتُ العلمية والخلقية التي تجعل منه أهلاً للبحث والنقد والاستنباط ، لأن التاريخ وهو في جوهره علم من أهم العلوم الإنسانية وأفيدها « يعوزه ما يعوز

---

(١) انظر ص ٣ ، طبعة القاهرة ١٩٦١ .
(٢) انظر المرجع السابق لمحمد عبد الغني حسن ص ٢٠٨ .

سائر العلوم الأخرى من طب وهندسة وفقه وغيرها وأنه لا بد لصاحبه من أن ينشأ نشأة علمية خالصة يتربى فيها على الشروط الفنية التى يقتضيها كل علم [١] ، كما أنه لا بد لمن يتصدى للاستنباط من التاريخ من « التضلع من الفلسفة والعلوم الاجتماعية والجغرافية للاستبصار بنورها والتذرع بوسائلها واستنتاجاتها في فهم الماضي وإيضاحه ، فلا بد للمؤرخ من فهم العقل البشري فهماً وافياً كافياً ، وعليه أن يتعرّف إلى المحيط الذي عاش أو يعيش فيه الإنسان من وجهتيه الجغرافية والمادية [٢] » . فإذا ما وُجد مثل هذا العالم أمكنه أن يبدأ ـ كما يقول الأستاذ أسد رستم ـ باستعراض الحقائق وإدراك كنهها ، وله أن يكوّن في نفسه فكرةً عنها أو نظريةً منها يؤمن بصحتها ، فيحمل لواء التبشير بها والدفاع عنها .



بعد هذه المقدمة التمهيدية ، نستطيع أن نعود إلى الفقرة التي توّجنا بها حديثنا هذا ، ونقول بأنها فقرة وردت في ثنايا تقديم كتاب أخرجته المطابع العربية في بغداد سنة ١٩٦٥ م [٣] ، وقد صنعه ضابط ولد في بيئة عربية صافية ، ونشأ في أسرة مسلمة متمسكة تقيم في الموصل شماليّ العراق ، فلما أتم تحصيله الثانوي ، كان سنة ١٩٣٧ م في عداد طلاب الكلية الحربية في بغداد ، حتى إذا ما تخرج ضابطاً في الجيش العراقيّ ، كانت الروح الحربية والعلوم العسكرية قد استحوذت عليه فراح وراءها ، ثم كان سنة ١٩٤٧ م ضابطاً في كلية الأركان وفيها أخذ يتبحر في العلوم

(١) انظر أسد رستم في كتابه « مصطلح التاريخ » المقدمة ، بيروت ١٩٥٥ .
(٢) انظر المرجع السابق ص ١٣٧ .
(٣) انظر مقدمة كتاب « الفاروق القائد » .

العسكرية ، على أيدي ضباط الجيش العراقي العظام ، ولما تخرَّج من كلية الأركان أخذ يتدرج في المراتب العسكرية حتى حصل على مرتبة الأمراء في الجيش العراقي ، وكان في جميع مناصبه يتابع الدراسات العسكرية والمؤلفات التاريخية ، ومما أخرجته له مطابع بغداد الكتب التالية : « القضايا الإدارية في الميدان » و « التدريب الفردي ليلاً » و « المشير فون رونشتد » .

وعكف الضابط العربيّ المسلم على دراسة التاريخ الإسلامي ، وقد دفعته دراسات كلية الأركان ، إلى الوقوف على أخبار الغزوات والحروب والارتواء منها ، وأخذ يتابع هذه الأخبار في جميع مصادرها ، في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، وفي كتب السيرة والتاريخ ، وفي معاجم البلدان وكتب الجغرافية ، وبين ثنايا كتب الفقه والنظم الشرعية المختلفة ، فإذا به ينتهي إلى نظرية آمن بها ، فجعلها « دعوى » لخّصها في الفقرة التي يدور حديثنا حولها ، ثم أخذ يحدد معالمها ويقيم البراهين على صحتها ويزود المكتبة العربية بما خطط له من مؤلفات ودراسات .



إن الضابط الذي نتكلم عنه ، هو اللواء الركن محمود شيت خطاب أحد أعضاء المجمع العلمي العراقي الجديد ، وقد طلع علينا خلال السنوات القليلة الماضية بسلسلة من المؤلفات المبتكرة في التاريخ الحربيّ الإسلامي ، دبجها بيراعة العالم المتتبع ، ورسم خطوطها رسم الخبير الضليع ، وإذا كان تدوين التاريخ الإسلامي تدويناً حديثاً يحتاج إلى عشرات العلماء المختصين ، فإن قيام ضابط بمفرده بالتصدي لحمل عبء الجانب الحربيّ من هذا التاريخ ، وهو جانب لعمري بالغ الأهمية جليل الفائدة ، يدل على شجاعة وإقدام فائقين ، وإذا كانت هاتان الصفتان غير مستغربتين في ضابط عربي ، فإن

ما أقدم عليه اللواء خطاب جدير بالإعجاب والتقدير ، لأنه بعمله ألقى ضوءاً جديداً على سائر جوانب التاريخ الإسلامي التي مازالت بحاجة إلى من يتفرغ لدراستها وعرضها عرضاً جديداً صادقاً يتفق وطموح العرب والمسلمين في نهضتهم الحديثة .

يذكر اللواء الركن محمود شيت خطاب البواعث التي دفعته إلى دراسة التاريخ الإسلامي قائلاً : « إن أنس فما أنس يوم كنت تلميذاً في الكلية العسكرية عام ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) وضابطاً في كلية الأركان عام ١٣٦٧ — ١٣٦٨ هـ (١٩٤٧ — ١٩٤٨ م) وكان تاريخ الحرب أحد المواضيع التي تُدرس في هاتين الكليتين العريقتين في العراق البلد الإسلامي ، فقد ملأ ذلك التاريخ عقول التلاميذ والضباط فيها بفيض غامر من أسماء القادة الأجانب ... والعجيب أن بعض تلك الأسماء هم قادة جيوش الاستعمار في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨ م) الذين أدخلوا الاستعمار إلى البلاد العربية ! ويكفي أن أذكر أن من محاضرات تاريخ الحرب المهمة في الكلية العسكرية موضوع : حرب العراق ، وهي الحرب التي استعمر بها البريطانيون وادي الرافدين ! .. ولم أسمع حين كنت تلميذاً أو ضابطاً في هاتين الكليتين محاضرة واحدة عن قائد عربيٍّ مسلم مثالاً للقادة الفاتحين ... [1] »

ويقول اللواء خطاب بعدئذ : « كانت أمنية غالية على القلب والعقل معاً ، تراودني منذ ما يزيد على العشرين عاماً خلت ، أن أتفرغ للكتابة عن تاريخ قادة الفتح ، الذين حملوا رايات الإسلام من الصين شرقاً إلى فرنسا غرباً ، إلى حدود سيبريا شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً .

(١) انظر مقدمة كتاب « الفاروق القائد » ص ١٠ .

لقد كنت أشعر شعوراً عميقاً بعظمة هؤلاء الرجال ، وأشعر بالحزن والأسى يحزّان في نفسي ، حين ألمس أن هؤلاء الرجال ـ على عظمتهم في آثارهم وفي تضحياتهم ـ لا نعرف حتى أسماء أكثرهم ، وما نعرفه عن بعضهم لا يتجاوز بعض المعلومات السطحية المشوشة التي يشيع فيها التناقض والاضطراب (١) » .

« وأخيراً ـ يقول اللواء خطاب ـ تيسّر لي التفرغ المنشود الذي كنت أتمناه على الله ، فعكفت على المصادر القديمة والحديثة : أجمع أخبار قادة الفتح من شتات كتب (السِّيَر) و (المغازي) و (طبقات الرجال) وكتب التاريخ والأدب ، وكنت كلما وجدت اسم قائد فاتح أبادر إلى تسجيله في سجل خاص وأشير إلى كل مصدر ومرجع يتحدث عنـــه ؛ وفي النهاية تجمّعت عندي مادة غزيرة عن بعض القادة وشذرات مقتضبة عن أكثر القادة .. (٢) » :

ولا يكتفي اللواء خطـــاب في بيان ما يتغياه من جهوده في تدوين تاريخ المسلمين الحربي ، بما ذكره في الفقرة التي نقلناها عنه في صدر هذا المقال ، بل تجاوز ما ألمع إليه من غايات عامة ، إلى التصريح بما يتوخاه ويرجوه من وراء جهوده قائلاً : « وكان من فضل الإسلام على العرب ، أنه وحد صفوفهم ، وجمع كلمتهم ، ووجههم للفتح ، فكان الإسلام بحق عقيدة منشئة بناءة ذاد عنها حماة قادرون ، هم العرب الموحدون الذين أصبحوا بفضل وحدتهم قوة جبارة ، ولن يعيدوا سيرتهم الأولى بغير الوحدة والتوحيد .... أقولها كلمة صريحة حاسمة موجهة لقادة العرب خاصة ولقادة

(١) انظر مقدمة كتاب « تاريخ فتح العراق والجزيرة » ص ٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٨ .

المسلمين عامة . إن التاريخ لم يخلد غير الذين وحدوا وجاهدوا : وحدوا الصفوف ، ولموا الشعب ، وكونوا قوة موحدة من قوى متفرقة ، وجاهدوا في سبيل مثل عليا لمصلحة أمتهم ، ولمصلحة الإنسانية ، فالحياة تافهة ، إذا خلت من مثل عليا ... إن القائد الذي يقدم على توحيـــد العرب وجهاد أعدائهم ، سيجد القلوب في الوطن العربيّ تهدي إليه ، وسيجد النفوس في دار الإسلام تبارك خطواته ، وسيجد الذين يقاومون جهوده يتهاوون تحت أقدامه كما تتهاوى أوراق الشجر في الخريف[1] » .

ولم ينس اللواء خطاب أن يشير إلى الروح التي سيطرت عليه في مؤلفاته فذكر في كتابه عن « الرسول القائد » قوله : « لقد درست حياة الرسول العسكرية بروح علمية محايدة ، توخّيت منها إظهار الواقع العملي من قيادة محمد ﷺ ، ذلك الواقع الذي يستحق التقدير كل التقدير .

ولم أنس المواقف التي تستحق التقدير من أعمال المشركين ، لأن قيادتهم وقواتهم قامت بأعمال ذات قيمة عسكرية في قتالها ضد المسلمين ، مما يجعلنا ندرس ما لاقاه الرسول ﷺ من مصاعب في القضاء على المشركين[2] » .

★ ★ ★

إن هذه المقدمة لا بدّ منها – في رأينا – لأنها تمهد لنا عرض ما صنعه اللواء الركن محمود شيت خطاب حتى اليوم مما حمّل نفسه عبء التبشير به والدفاع عنه ، وأمامنا الآن خمسة مؤلفات هي :

(يتبع)　　　　عدنان الخطيب



(١) انظر ص ٢٢ من كتاب « الرسول القائد » الطبعة الثالثة .
(٢) انظر ص ١٢ من كتاب « الرسول القائد » الطبعة الأولى .

الشذرات

كتاب عدد صفحاته (٣٢٠) صفحة من القطع المتوسط
أخرجتـــه (دار الكتاب الجديد) في لبنان عام ١٩٦٦
تأليف الأستاذ الأمير مصطفى الشهابي
رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

الأستاذ الأمير مصطفى الشهابي غني عن التعريف ، فهو من أكبر الشخصيات العلمية في الشرق العربي في عصرنا هذا ، وهو مع ما ناله من الألقاب العلميـــة حتى الآن ، صاحب أكبر مجموعة من معاجم الألفاظ والمصطلحات العلمية التي يصعب تقدير نفعها وتحديد فائدتها ، حتى لقد عد صاحب الاختصاص الأوحد في هذه الناحية من نواحي المعرفة .

ولسنا بسبيل إحصاء مؤلفات الأستاذ وتعداد آثاره لولا ظهور كتاب جديد له ، هو من أحسن الآثار الأدبية التي ظهرت في هذه الأيام ، ولعل ما يلفت النظر هنا أن هذا الكتاب يختلف عن كتب الأمير الأخرى السابقة التي تناولت الشؤون اللغوية والمصطلحات العلمية لأن كتاب اليوم « الشذرات » الذي نقدمه للقارئ قد اشتمل على « مقالات ومحاضرات في الأدب والعلم والفلسفة » كما أشير إلى ذلك في عنوان الكتـاب المثبت في صفحته الأولى .

ومما يغري بقراءة هذا الكتاب أن يجد القارئ فيه ناحية جديدة كل الجدة ، طريفة كل الطرافة ، وهي ناحية الكتابة الأدبية الصرفة التي تصوّر أخلاق بعض الناس ، وترسم لك بعض المواقف والهواجس عند الكثير ممن عرفهم الأستاذ الكبير ؛ مما يمكن أن يدخل في عداد الكتابات الأدبية التي سميت في المصطلح الحديث « الفن للفن » فهي كتابة فنية حقاً

تعنى بتصوير الآراء ورسم الأفكار ، ولا ترمي إلى إثبات نظرية أو تحقيق مفهوم علمي غامض .

هذا اللون من الكتابة يعتبره النقاد أرفع ألوان الأدب لأنه أقرب إلى الشعر الذي يُلتفت فيه إلى الصورة والنغمة واللمحة الخاطفة الأخاذة يتخلل كل ذلك ظرف ظاهر ، ونقد سافر ، فيه كل المتعة والجمال .

والأستاذ الأمير في كتابه هذا يطلعك على ناحية هامة غير هذه ، هي النظرة الواسعة الشاملة ، والإنسانية التي تنتظم حياة الإنسان وما حولها ، ولو قرأت الموضوع الأول من الكتاب « الأزهـار المدوسة » لأحسست بشفقة الكاتب ورحمته للأزهار التي داسها جاره وتركها « ذابلة ملقاة في الطريق » دون أن يستشعر الرحمة والعطف عليهـا .

ولو قرأت الموضوع الثاني « غرائب المصانعين » لأعجبك ما فيه من فكرة نفاذة ولفتة أخاذة ، تحصي على الناس أخطاءهم وتعرف دخائل نفوسهم ، فلا يعجزها أن تعددها وأن تثبتها في مقال رائع .

ولو اطلعت على موضوع « حديث بغل وحمار » لضحكت ملء فيك للنكتة البارعة الموفقة ، والوصف الذي يختار اللفظ وينتقيه فعل اللغوي المتبحّر والأديب المتخصص ، ولأذكَرَكَ هذا « الحديث » ما مرّ بك من قصص « كليلة ودمنة » وآثار لافونتين في حكاياه عن الحيوان .

وبعد فان هذا الكتاب الجديد الجميل إنما هو عدد من المقالات الأدبية والفلسفية والاجتماعية اختير من مقالات كثيرة ومحاضرات عديدة في شتى الموضوعات ، كتبت منذ سنين عديدة ونشرت في أهم المجلات والصحف كالمقتطف والهلال والرسالة وغيرها ، وهو خلاصة طيبة ونخبة صالحة مما كتبه الأمير في أوقات فراغه من أعمال الدولة يوم كان موظفاً من كبار موظفي الحكومة ، وهو من أجدر الكتب بالقراءة والاطلاع .



أحمد الجندي

فن الترجمة في الأدب العربي

كتاب عدد صفحاته (٢٣٨) صفحة من القطع الصغير
من منشورات « الدار المصرية للتأليف والنشر » في القاهرة عام ١٩٦٦
تأليف الأستاذ محمد عبد الغني حسن

هذا كتاب فريد في بابه ، جديد في نوعه ، فإن فن الترجمة « لم يعالج في الإنتاج الفكري العربي بكتاب واحد » كما قال مؤلف الكتاب الأستاذ محمد عبد الغني حسن ، بصراحة ووضوح .

والأستاذ المؤلف شاعر وكاتب ومؤلف ، عرفته المجلات العربية منذ سنوات طويلة ، فقد جال قلمه في ميادين الفكر والفن جميعاً وكان في كل ذلك موفقاً مستحقاً للإعجاب والإطراء . ونعتقد انه لقي في هذا الكتاب « فن الترجمة » من الجهد والصبر ما لم يلقه في كتاب آخر من كتبه الكثيرة ، لطرافة هذا البحث ، وقلة المراجع فيه ، وصعوبة العثور على الضوء الذي يقود المؤلف إلى الحقيقة إن أعوزه النور .

ولقد حاول المؤلف منذ أول صفحة في الكتاب حتى آخر صفحة منه أن يقدم للقارئ بحثاً علمياً عن الترجمه ، فبحث الموضوع لغوياً ، ثم تعرض للمشتغلين في هذا البحث منذ الجاحظ حتى عصرنا الحاضر ، كما تعرض لموضوع يمكن أن نسميه من باب التجوز « فلسفة الترجمة » فكتب عن شروط الترجمة ، والترجمة بين الإغراب في اللفظ والوضوح؛ والترجمة بين الزيادة على النص والحذف منه ، والترجمة من حيث ترجيح المعنى على اللفظ وبالعكس ، إلى غير ذلك من نواحي الترجمة التي يصعب الوصول فيها إلى نتيجة خالصة سالمة من النقد ، وكان عمل المؤلف في إخراجها وكتابتها عملاً شاقاً صعباً .

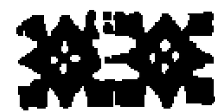
وقد كنا نتمنى لو أن المؤلف خص « تاريخ الترجمة عند الشعوب » أو عند العرب بفصل خاص ، بدلاً من أن تترك المعلومات التاريخية عن الترجمة مبثوثة في موضوعات مختلفة العناوين متعددة الاتجاهات ، كما أن لنا رأياً في ترجمة الشعر نسير فيه مع الجاحظ الذي قال بـ « عدم استطاعة الترجمة نقل الشعر ، أو المادة الشعرية ، من لغة إلى لغة أخرى لأن السر كل السر في الشعر كائن في تقطيعه ونظمه ووزنه ، مما لا يمكن نقله ، فاذا حول كل ذلك ذهب حسن الشعر وسقط موضع التعجب منه » .

والشعر العربي ، خاصة ، يمتاز بصعوبة قد لا نلقاها في شعر أمة أخرى حين نتعرض لترجمته أو نقله ، لأن الشعر العربي ذو لفظ ظاهر الجرس ، بارز الواقع ، ترتبط فيه الكلمات برباط النغمة والموسيقى الصوتية ، قبل أن ترتبط بالمعاني والأفكار ، والترجمة مهما نبغ أصحابها لا يمكنها أن تنقل إلا الفكرة ، أما بقية عناصر الشعر التي تعتبر الفكرة واحدة منها ، فلا يمكن نقلها ، وهكذا فان الشعر العربي إذا نُقل ، نُقل مشوهاً محطماً ناقصاً .

ويمكن أن نلجأ إلى الترجمة الشعرية أحياناً ، تجنباً لما سماه الأستاذ : « حرمان كبير للتراث الأدبي من كنوز يجب أن لا يحجر عليها » على أن يقصد من هذه الترجمة إلى (عدم الحرمان) من الاطلاع على آداب الأمم الأخرى ، وأن يكتفي فيها بنقل بعض الأفكار التي كتبت شعراً في اللغات الأخرى لكي لا يحرم منها من لا يعرف لغتها الأصلية وعلى أن يسمى هذا الجهد اسماً آخر غير « النقل » وغير « الترجمة » .

رغم هذه اللاحظات التي مرت بك فان كتاب « فن الترجمة » يعتبر بحق فريداً في بابه ، بل لعله فاتحة جريئة لكتب أخرى تتناول هذا الموضوع الهام عند أصحاب الثقافة العربية الحديثة . ولعل للأستاذ محمد عبد الغني حسن فضل السبق في ريادة هذا الموضوع ، أو هو رائده الأول في كتاب .

أ . ج .



صور قروية

كتاب من القطع الصغير عدد صفحاته (١١٠) صفحات
من مطبوعات دار الكتـــاب اللبناني في بيروت عام ١٩٦٦
تأليف الأستاذ رياض المعلوف

هذا كتاب صغير الحجم أثبت فيه صاحبه الأديب والشاعر اللبنـــاني المعروف رياض المعلوف بعض « الصور القروية » التي كتبها « بسواد العين » على حد تعبيره لأنه أحب لبنان حباً جماً وخاصة بلدته زحلة التي عاد إليها بعد أن زار عدداً من بلاد العالم لم يجد فيها الجمال والألفة التي أحسها في بلده القديم .

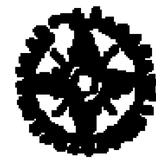
والقارئ يجد أن موضوعات الكتاب هي أقرب إلى الصور واللمحات منها إلى البحوث والمقالات ، فمضمون الكتاب منطبق على عنوانه وموافق لما قصد إليه المؤلف ، فاذا قلبت هذه الصفحات الصغيرة الأنيقة عثرت على عناوين مغرية تذكرك بلبنان وتحمل إليك صورة عنه متعددة الخطوط والألوان ، من مثل : السنونو والربيع ، حانوت الضيعة ، الصيف ، بيوتنا في الجبل ، جرن الكبة ، والعنوان الأخير هذا يكاد يكون عنواناً لزحلة ذاتها فهي أشهر بلدة في الشرق بصنع هذا اللون الشرقي من الطعام ، كما أشار الكاتب في كتابه إلى حبه العميق للطيور فصور لنا عدداً منها ولو أن بعض هذه الطيور لا يعيش في لبنان كالطاووس والكناري .

ولا ندري السبب الذي جعل الكاتب يختار لكتابه « الصغير » هذا الحرف الكبير الذي جعله أشبه بالكتب التي تؤلف لقراءة الاطفال في

المدارس . كما لفت انتباهنا قصر هذه الصور التي لم يتجاوز أطولها الصفحات الثلاث أو الأربع من الكتاب الصغير .

على أن بعض هذه الصور قد بلغ حدّ التوفيق في اللغة والتصوير كما رأينا في « أنشودة الغيم » التي تحدث فيها الأستاذ المؤلف حديث الشاعر عن سماء زحلة فوصف غيمها وصفاً لا ينقصه غير الوزن والقافية حتى يصير شعراً غنائياً جميلاً . يضاف إلى ما سبق لغة صحيحة ، وألفاظ رشيقة ، وبيان مشرق .

أ . ج



البيت في حياة العرب

كتاب في (٩٧) صفحة من القطع المتوسط

طبع عام ١٩٦٦

تأليف الأستاذ عبد القادر عياش المحامي

الأستاذ عبد القادر عياش يمكن أن يعد بين المختصين البارزين في البحث عن مظاهر الفن الشعبي في بلادنا وآثار هذا الفن ، وهو لكفاءته هذه انتخب عضواً في لجنة الفنون الشعبية لدى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بدمشق . وقد أصدر كتباً عديدة ، كما أن له مجلة خاصة هي « صوت الفرات » ، ينشر فيها بين الحين والآخر مقالات وبحوثاً مستفيضة حول الفن الشعبي الذي يستغرق اهتمامه ويفتح الميدان فسيحاً أمام قلمه .

أما الكتاب الجديد الذي أهدانا نسخة منه ، فيتعلق بموضوع يلفت النظر حقاً إلى بحث لا نعرف أن أحداً تطرّق إليه أو وقف عليه كتاباً بأسره ، فقد تحدث المؤرخون القدامى والمحدثون عن البيت في حياة العرب عرضاً ، ومرّ بهم البيت مروراً سانحاً فلم يتركوا له بحثاً خاصاً ، أو كتاباً منفرداً قبل كتاب الأستاذ عياش .

هــــذه مزية هامة ، وللكتاب مزايا أخرى منها أنه كتب بلغة سهلة وبتفصيل لا يتعب المتتبع لهذا البحث الذي يهم أصحاب التاريخ والجغرافية والاجتماع على السواء ، أما أبحاث الكتاب فثلاثة عشر بدئت بالإهداء وانتهت بالمنازل والطلول في الشعر .

ونحن نعتقد أن كتاب الأستاذ عبد القادر عياش قد سدّ ثغرة في حياتنا الثقافية وفي أدبنا الشعبي .

أ . ج



آراء وأنباء



المرحوم عز الدين علمُ الدين التنوخي

نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

(١٨٨٩ — ١٩٦٦ م)

عز الدين علم الدين التنوخي

نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

(١٨٨٩ — ١٩٦٦ م)

فجع مجمع اللغة العربية بدمشق صباح يوم ٢٤ حزيران سنة ١٩٦٦ بزميل كريم، وعلامة كبير، وركن من أركان اللغة العربية، وعامل مخلص في دعم صرحها والذود عن سلامتها، وهو المغفور له عز الدين التنوخي الشهير بـ (شيخ السروجية) نائب رئيس المجمع، وهو آخر الأحياء الذين أسسوا المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية الحالي)، وممن عملوا جاهدين في رفع شأنه ووفرة إنتاجه. كان رحمه الله حجة في اللغة العربية وقواعدها وآدابها، يُرجع إليه في حل معضلاتها، ويُستفتى عن غوامضها، ما ضنَّ بعلمه على مستفسر أو مستفيد، يزودهم بإرشاداته، ويستزيدهم بتواضعه. وكان معلماً حيثما وجد، في المدرسة، أو في داره، أو مقر عمله. سلك في حياته سبيل السلف الصالح، يعمل مخلصاً لربه وأمته، زاهداً بالشهرة، متجنباً آفاتها. وقد أنشأ على مقاعد التدريس جيلاً عاملاً، يشيد أبداً بفضله، ويترنم بذكره العاطر.

ولد رحمه الله سنة ١٨٨٩ م. ختم القرآن بدمشق في المدرسة الابتدائية السباهية، ودرس مبادئ العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية في المدرسة الرشيدية — الابتدائية والعالية — ثم انتقل بعد أخذ الشهادة الرسمية التركية إلى مدرسة الفرير الفرنسية، ثم ذهب إلى مصر وطلب العلم في الجامع الأزهر، ثم ذهب إلى فرنسة مع البعثة العلمية الأولى الدمشقية.

مكث في فرنسة ثلاث سنوات في مدرسة زراعية ، وبعد عودته عين ببيروت معلماً لزراعة مركزها الزراعي ، ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى ، دُعي لخدمة العلم ، وعندما شعر بسوء نية الأتراك وعزمهم على الغدر بشباب العرب والتخلص منهم ، فرّ من الجيش التركي بحلب والتحق بثورة الملك حسين ، وعين في دولته وزيراً للزراعة ، وعاد إلى دمشق بعد أن دخلها الجيش العربي .

وفي دمشق ألفت وزارة المعارف مجلساً للمعارف كان من أعضائه الأولين . ثم تحوّل هذا المجلس إلى المجمع العلمي العربي ، وبعد العدوان الفرنسي واحتـــلال دمشق هاجر إلى العراق وعين أستاذاً للأدب العربي في دار المعلمين الأولى ثم دار المعلمين العالية ببغداد .

ثم عاد إلى دمشق فعين أميناً لسر المجمع العلمي العربي وأشرف على إصدار مجلته زمناً ، ثم عين مدرساً للأدب العربي في بعض المدارس الثانوية ، ثمفتشاً للغة العربية ، فمديراً لمعارف محافظة السويداء ، فأستاذاً في كلية الآداب بجامعة دمشق ، فنائباً لرئيس مجمع اللغة العربية .

وهذا ثبت الكتب التي ألفها أو ترجمها أو حققها :

١ — الفتح المبين في شرح عينية ابن سينا الرئيس .

٢ — دروس في صناعة الإنشاء .

٣ — مبادئ الفيزياء جزآن .

٤ — قلب الطفل « .

٥ — تحقيق (كتاب المنتقى من أخبار الأصمعي) للإمام الربعي .

٦ — « (تكملة إصلاح ما تغلط به العامة) .

٧ — « (بحر العوّام في ما أصاب فيه العوام) .

٨ — شرح (الإيضاح) للقزويني .

٩ — إحياء العروض .

١٠ — تحقيق كتاب (الإبدال) لأبي الطيب اللغوي جزآن .

١١ — تحقيق كتاب (المثنى) لأبي الطيب اللغوي

١٢ — تحقيق كتاب (الإتباع) 〃 〃

١٣ — تحقيق (مقدمة في النحو) لخلف الأحمر .

١٤ — شارك في وضع (المعجم العسكري) بقسميه (الفرنسي ـ العربي والانكليزي ـ العربي) .

رحم الله الفقيد وأجزل ثوابه .



الشيخ محمد رضا الشبيبي(1)

(١٨٨٨ — ١٩٦٥ م)

نعت أنباء العراق في شهر تشرين الثاني ١٩٦٥ م علماً من أعلام اللغة العربية وهو العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي رئيس المجمع العلمي العراقي. وقد شق نعيه على زملائه وصحبه لمكانته العلمية والوطنية، ولما كان يتحلى به من أخلاق رصينة. افتقدت بوفاته اللغة العربية رائداً من روادها وحامي ذمارها وشاعراً من كبار شعرائها، وكان رحمه الله منذ نشأته وطنياً مخلصاً، وفياً لوطنه وعروبته، مناضلاً عن حقوق بني قومه وسيادتهم.

ولد المرحوم في النجف الأشرف سنة ١٣٠٦ هـ، ودرس فيها العلوم العربية على الطريقة المألوفة في كتبها المعروفة، وعلى هذا النحو تلقى المسائل العقلية والشرعية، ثم مال إلى الدرس الحر والتفكير المجرد من تأثير المعلم والمربي واتجه إلى درس الفلسفة ومذاهب أهلها، والتمرس بالفنون والآداب وحصل منها جميعاً نصيباً وافراً انتفع بها ونفع الناس بثمراتها. واعترافاً بفضله وتقديراً لعلمه:

(١) له ترجمة وافية بقلمه نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي المجلد الثامن صفحة ٤٩٤ بمناسبة انتخابه عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

١ — انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق في سنة ١٩٢٣ .
٢ — انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة في سنة ١٩٤٧ .
٣ — انتخب أول رئيس للمجمع العلمي العراقي في سنة ١٩٤٨ .
٤ — انتخب رئيساً للمجمع العلمي العراقي الجديد بعد ثورة ١٤ رمضان من عام ١٩٦٣ .

آثاره :

للمرحوم آثار كثيرة مطبوعة منها :

١ — ديوان الشبيبي .
٢ — مؤرخ العراق ابن الفوطي في مجلدين .
٣ — أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية .
٤ — رحلة إلى المغرب الأقصى .
٥ — رحلة في بادية السماوة .
٦ — أصول اللهجة العراقية .
٧ — إحصاء العلوم للفارابي (تحقيق) .

وله مقالات وأبحاث ومحاضرات كثيرة نشرت في كبريات المجلات العربية .

تغمد الله الفقيد برحمته وجزاه كل خير عما أسداه إلى أمته ولغته ودينه من نفع وخدمات جليلة .



القائف والأضخومة (١)

أبدى أعضاء لجنة المجلة الزملاء الأفاضل رأيهم في بعض من مصطلحاتي الجدد المنشورة في المجلد ٤٠ — الجزء ٢ — ص ٥٢٥ منها كلمة (قائف) لما يقابل Archéologue وكلمة (أضخومة) لما يقابل Corset .

وإني أشكرهم لملاحظاتهم ، فقد أتاحت لي فرصة إعادة النظر في الكلمتين الافرنجيتين أولاً ، فالاهتداء ثانياً ، إلى مصطلح جديد لما يقابل (الكورسه) أحسب انهم يستحسنونه لما فيه من معنى يحقق التصحيح الذي نشدوه من (الشدّ) ويتفق مع المقصود من الكلمة الافرنجية على السواء .

١) — القائف : (الذي يتتبع آثار الأقدام ويعرفها أي آثار الأقدام الخ ما ورد في الملاحظة) .

قلت : أليس (الاركئولوغ) كذلك يتتبع آثار القدماء المندفنة تحت الأرض بتقادم العهد ويقوم بشتى الدراسات فالحفريات ويكشف عنها ويتعرف عليها ؟ فمصطلحي ـ في اليوم الحاضر ـ يوافق المقصود من الكلمة الافرنجية ويدل على الغرض .

٢) — (الكورسه) : قلت ، لم أجد في شرح الكلمة الافرنجية في معجم لاروس (ذي المجلدين) ما يشير إلى (الهيف والنحول) وإنما يذكر (تعديل القامة pour maintenir la taille) .

ويغلب على الظن أن نساء العرب في القديم لم يكنَّ ذوات عجيزات فبدا لهن تعظيم العجيزة وتضخيمها ليروق منظرهن في عين بعولتهن .

---

(١) تحترم لجنة المجلة آراء الكتاب الشخصية وتترك البت فيها لمل القراء الكرام . (لجنة المجلة)

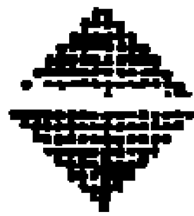
فهن إذن يقوّمن اعتدال قامتهن بهذه الاعظومات ... وانعكس الأمر الآن فنجد أكثرهن عظيات العجيزات ، فيلجأن إلى (الكورسه) لضغط العجيزة بعض الشيء لتعديل القوام ... فاذا كانت (الاضخومة) لتعظيم الأرداف قديماً ، واليوم لم تعُد تصلح للتعديل والتضييق ، فلنقل أذن (أنحولة ، من النحول) أو ما هو أدل على المعنى من هذه ، كلمة (أردوفة ، من الرِّدف وهو الراكب خلف الراكب ، وأردفه أركبه خلفه) فالأردوفة ، على هـــذا ، ما تُركبها السيدة خلفها . وفيها معنى (ما يحقق للأرداف الغاية المطلوبة) .

فهل توافق اللجنـــة المحترمة على هذا المصطلح الجديد (للكورسه) المطابق للمعنى والواقع على قدر الإمـكان ؟

أما أن يُحاوَل إيجاد كلمة أو مصطلح ينطبق تمام الانطباق على معنى الكلمة الافرنجية ، حذو القذة بالقذة ، فهو محاولة المحال إلا فيما هو أندر .

هذا وأقدّر دقة الملاحظة التي أبداها الزملاء الكرام أعضـاء اللجنة وحرصهم على تحري الصواب والأصلح فشكراً لهم جميعاً مرة ثانية .

الكواكبي



أمثلة

من الأغلاط الواقعة في لسان العرب

— ٨ —

(٧٨)

مادة غ ز ل — غَزِلَتْ .

ورد في الكامل « غزِلَتْ أمّ حبيب » أي أحبّت أن يُتَغَزَّل بها لا يذكر اللسان هذا المعنى .

★ ★ ★

(٧٩)

مادة ص ل ع — صلّعَ .

ورد في الكامل لنصر بن حجاج البيت الآتي وفيه « صلّعَ » :

فصلّعَ رأساً لم يُصلّعْه رَبّهُ يرِفّ رفيفاً بَعْدَ أسودَ جاثِلِ

صلّعَ الرأسَ = أزال شعرَهُ . أفقده الشعر ، صيّره أصلع .

هذا المعنى لم يذكرْهُ ولكنّهُ ذكر وكرّر : « وصلّعَ الرجُل إذا أعذر (تبرّز) والتّصليع السُّلاح (النجْو) وقد صلّع إذا بَسَطه (فرش سلحَهُ) قال ابن برّيّ صلّع الرجل إذا أحدث (تغوّط) ويُقال للعِذْيَوط (الذي إذا أتى امرأتَهُ سلح) إذا أحدث عند الجماع صلّع » .

★ ★ ★

(٨٠)

مادة ع ر ض — ط و ل — ق ص ر .

قال مفسّراً : « العرض خلاف الطول » .

« القِصَر خلاف الطول »

فالنتيجة العَرْض هو القِصَر - وعلاوة على هذا : لم يفسّر شيئاً لأنّ التفسير بالنقيض والخلاف وبألفاظ من المادة عينها لا يجلو المعنى وهذه السقطة متكررة في اللسان آلاف المرّات .

★ ★ ★

(٨١)

مادة ذ ك ر — أ ن ث .

قال مُوضحاً « الذكر خلاف الانثى »

« والأنثى خلاف الذكر من كل شيء »

★ ★ ★

(٨٢)

مادة رأى — رِئة .

قال : الرِّئة موضع النَّفَس والرِّيح من الإنسان وغيره ولم يفسِّر أفي موضعٍ واحدٍ هما أم لكلٍّ موضعه ؟..

★ ★ ★

(٨٣)

مادة أ س ر — أَسْرى .

قال « وفَعْلى جمع لكلّ ما أصيبوا به في أبدانهم وعقولهم مثل مريض مرضى وأحمق حمقى وسكران سَكْرى » ولكن إذا كان وزن فَعْلي جمعاً لما أُصيبوا به وجب أن يكون جمع مَرَض وحُمْق وسكر — فكان عليه أن يقول « لكل من أصيب في بدنه وعقلِه » .

* * *

(٨٤)

مادة م ج ج — مَجَّ .

قال : « مجّ الشرابَ والشيءَ من فيهِ رماهُ » .

رماه تؤدّي معنى مجّ في قولِه مستشهداً : « وأخذ حُسْوة ماء من الدّلو فمجّها في بئر ففاضت » . وفي قولهم مجازاً « هذا كلام تمجّه الأسماع » ولكن متى وصلنا إلى قول الشاعر :

« ولا ما تمُجّ النحل من متمنّع فقد ذقتُهُ مستطرفاً وصفا ليا »

وقول ابن أبي ربيعة :

« يمُجُّ ذكيَّ المسك منها مفلَّجٌ رقيق الحواشي ذو غروبٍ مؤَشَّرُ »

رأينا أن رمى لا يُؤدّي معنى مَجَّ .

* * *

(٨٥)

مادة أ س ر .

قال الجمع أُسراء وأَسارى وأُسارى وأسرى — قال ثعلب ليس الأسر بعامة فيجعَلَ أسرى من باب جرحى في المعنى ولكن لمّا أصيب بالأسر صار كالجريح واللديغ فكُسِّرَ على فَعْلى كما كُسِّر الجريح .

ظاهرٌ بوضوح تام أو (كما كانَ يُقال في سورية على عهد الأتراك) آشكاره بللى ، أن المصنّف كتب عاهة فحوّلها الناشر إلى عامة وغفلت عنها عين المصحّح ، على أن الطالب قد يفهم أن عامة جمع عائم كما أن قائف (من قاف يقوف) جمعها قافة وسائد جمعها سادة فتصير الجمـلة بلا معنى ، هي مطبعية ولا شك ولكن أيها « المراجعون » ضرر الغلطة المطبعية مثل ضرر الأصلية

★ ★ ★

(٨٦)

مادة أ س ر — أَشَّرَ ، مُؤشَّرٌ .

ورد لابن أبي ربيعة :

وحبسي على الحاجات حتّى كأنّها بقيّة لوح أو شِجارٍ مُؤشَّرِ

مُؤشَّر اسم مفعول من أشَّر للتكثير أو المبالغة في أسَرَ بمعنى ربط ، واللسان الذي يذكر كسَّر مبالغة في كسر لا يذكرُ أشَّر — و « الناقلون » نقلوا عنه عدم ذكر أشَّرَ .

★ ★ ★

(٨٧)

مادة أ س ر .

روى للعجاج :

فأصبحا بنجوة بعد ضَرَرْ مُسلَّمَيْنِ من إسارٍ وأسَرْ

ففسَّر « أصبحا بنجوة » [ولا يُطلَب من صاحب المعجم أن يفسِّر كلمة في غير بابها] بقولهِ : « شُرَّفا من ضيق » [بضم الشين وتضعيف الرّاء] . ولكنَّهُ لا يذكر شُرِّفَ ، مجهول الصورة الثانية من الرباعي القياسيّ ، في مادة ش ر ف ولا المعلوم شَرَّف بالمعنى الذي أرادَهُ عنـــدما قال : « شُرِّفا من ضيق » فالطالب مضطر إلى الاستنتاج أنَّ شَرَّفَهُ = جعَلَهُ يعلو ، رَفعَهُ ، وذلك لأنَّهُ يقول تشرَّفَ المربأ = عَلاهُ وتشرَّف مطاوع شرَّف مثل كَسَّرهُ = جعَلَهُ يتكسَّر : شرَّفَهُ = جعَلَهُ يتشرَّف أي يعلو أللاستنتاج وُضع المعجم ؟

★ ★ ★

(٨٨)

مادة و م د .

قال « والوَمَد لثْق (ثاء ساكنة) وندًى يجيء من جهة البحر إذا ثار بخاره وهبَّت بهِ الريح الصَّبا فيقع على البـــلاد المتاخمة لهُ مثل ندى السماء وهو يُؤذي الناس جدًّا لِنتْن رائحته » ..

(١) قال « لثْق » بسكون الثاء — وفي مادة ل ث ق يورد لَثَق بفتح الثاء تسع مرات ويؤكد الفتح بقوله « لَثَق بالتحريك » .

٢ — إذا كان البحر غربيَّ البلاد المتاخمة لهُ كالبحر الأحمر والشواطىء العربية فهل تكون الريحُ الهابّةُ بالوَمَد ريحَ الصَّبا ؟

٣ — تهبّ الصّبا في الحجاز وسورية ولا تجيء بالوَمَد — وعندما خاطب ابن الفارض ريحَ الصَّبا بقولهِ .

أيْ صَبا أيَّ صَبا هِجتِ لنا سَحَراً من أينَ ذيّاكَ الشَّذَيْ

هل عنى بالشّذَيْ نَتْنَ الرائحة ؟

سبب الخطإ تعميم المخصَّص — ابن منظور نقل عن الأزهري وأبو منصور (الأزهري) خصّصَ البحرين وأما الناقل فعمَّم فأخطأ والناقلون لم يقعوا في الغلط هذا لأنهم نقلوا هذه المادة عن الفيروزابادي بالحرف الواحد .

★ ★ ★

(٨٩)

مادة و د ع : مودوع .

قال : مودوع : « سكينة ووقار ، مصدر على وزن مفعول مثل ممسور وميسور الخ ومودوع : ذو سكينة ووقار ، اسم مفعول ولا فِعْل لهُ كقولك مُدَرْهَمٌ كثير الدراهم ولا تقول دُرْهِمَ فلان ، ومفؤود مُصاب في فؤادهِ ولا تقول فُئِدَ . »

أيّد قولَهُ « ولا فِعل لهُ » بمثالين : مُدَرْهم ولا تقول دُرْهِم . وفي مادة د ر م (حيث يضع « درهم » كأنها مشتقة من د ر م) يقول قال أبو زيد « ولم يقولوا دُرْهِمَ » وقال ابن جنّي « لكنّهُ إذا وُجد اسم المفعول فالفعل حاصل » .

شهادة أبي زيد شهادة بالنفي وهي شهادة مردودة . فأبو زيد لم يسمع أنهم قالوا كذا ، ولم يصل إلى علمِهِ أنهم قالوا ولكن هل سمع أبو زيد كلَّ ما قالوهُ ؟ وهل انتهى إلى علمِهِ كلّ ما قيل ؟

وشهادة ابن جني شهادة العقل المفكر الذي لا يدّعي أنّه وعى كل شيء بل يبني قولَهُ على أحكامٍ أساسيّة لا تخالف النواميس العامة ولا تنافي روح اللغة إذا وُجِدَ اسم المفعول فالفعل حاصل .

قد يكون الفعل المشار اليه قليل الاستعمال ولكن القول بعدم وجودِهِ مناقض للوضع الأساسي وهو أنّ اسم المفعول يُشتقّ من الفعل .

ولابن جنّي قول آخر : « يجوز للشاعر أن ينطق بما يُنتجُهُ القياس وإنْ لم يُرِد به سماع » — هذا ليس تجويزاً للشاذّ بل هو تقديسٌ للأُصول . وما جوّز الشواذ إلاّ السماع لأنَّ السماع بُني على الرّواية والرواية أُصيبت بالنسيان والتبديل والحذف والزيادة عن غير عمد وبُليت بالكذب المقصود أيضا ، وابن جني لم يخصص الشاعر بالجواز قصدَ نفيهِ عن الناثر بل قال يجوز للشاعر لأن معظم الأدب العربي كان شعراً .

والمثال الثاني « مفؤود ولا تقول فُئِدَ » هذا قولُهُ في مادة و د ع ولكنّهُ في مادة ف أ د يقول « فأدَهُ يَفأدُهُ فَأداً أصاب فؤادَهُ » . فكيف يتفق هذا وقولُهُ ولا فعل لَهُ أو ولا تقول فُئِدَ .

هذا بشأن المثالين وأما مودوع فإنّهُ قال فيها « مصدر على وزن مفعول » وكلهم خلا سيبويه قالوا هذا القول ، والصحيح أنّهُ اسم مفعول استعمل مصدراً واستعمالُهُ شاذ فلذلك حُصِرَ في ألفاظ بعينها ، وهي ألفاظ قليلة الاستعمال وقال أيضاً « ذو سكينة ووقار اسم مفعول لا فعل لَهُ » وكلام العرب دَعْ ويَدَعُ ولا يأتي منه الماضي ولا المصدر (وَدْعٌ) ولا اسم الفاعل» .

الماضي : ابن منظور يقدّم شواهد على ورود الماضي منه شذوذاً والواقع أن الوارد هو القياسيّ وأن قولَهُ هو الشاذّ . فيذكر الآية : « ما ودّعك ربُّكَ وما قلى» . (سورة الضحى ٣) أي لم يقطع الله الوحيَ عنك — [وابن عبّاس يقول في تفسيره « ما تركك منذ أوحى إليك » . ولفظة

ودعك غير مشكّلة — والطبعتان العثمانية والمصرية تقولان ودّعك بتشديد الدّال] على أن ابن منظور يقول « وعليه قرأ بعضهم (ومنهم عُرْوة بن الزبير) « ما ودَعَكَ رَبُّكَ » بتخفيف الدال . فبموجب هذه القراءة (ولا تناقض في المعنى بين القراءتين) الفعل الماضي وَدَعَ موجود في الاستعمال .

ثم أورد بيتاً لأبي الأسود الدّؤلي :

ليت شعري عن خليلي ما الذي　　غالَهُ في الحبّ حتى وَدَعَهْ

روى مثلَهُ عن الأصمعي لأنس بن زُنَيم :

ليت شعري عن أميري ما الذي　　غالَهُ في الحبّ حتى وَدَعهْ

وروى لشاعرٍ :

وكان ما قدّموا لِأنفسهم　　أكثرَ نفعاً من الذي وَدَعوا

وروى عن ابن برّي لسُويد بن أبي كاهل .

سَلْ أميري ما الذي غيَّرَهُ　　عن وصالي اليومَ حتى وَدَعَهْ

وأنشد لآخر :

فسعى مسعاتَهُ في قومهِ　　ثم لم يُدْرِك ولا عجزاً وَدَعْ

ونقل عن ابن الأثير (النهاية) « وقد جاءَ في غير حديث حتى قُرِئَ به » . فبناءً على شواهدهِ : الفعل الماضي الثلاثي موجود أو حاصل كما أصابَ ابنُ جني .

المصدر : أورد ابن منظور من حديث ابن عباس ان الرسول قال لينتهيَنَّ أقوامٌ عن وَدْعِهم الجُمُعاتِ أي عن تركهم إياها . فالمصدر موجود وقد رُوِي عن أفصح العرب .

اسم الفاعل : وأورد بيتين فيها وادع بمعنى تاركٌ .

عن الفارسي : فأَيُّها ما أتبعَنَّ فانَّني　　حزين على ترك الذي أنا وادعُ

لمعن بن أوس : عليه شريبٌ ليِّنٌ وادعُ العصا　　يساجلها حَمّـائهِ وتساجلُهْ

فاسم الفاعل موجود أيضاً .

وكما أن الماضي من يدع بمعنى ترك موجود رغم قول بعض النحاة بعدم وجوده ، لنا أن نستنتج ان الفعل الماضي من هذه المادة ، بمعنى جعلَه ذا سكينة ووقار موجودٌ أيضاً .

يقول : مودوع ذو سكينة ووقار . ولا فعل لَه .

وابن جنّي يقول « اسم المفعول موجود فالفعل موجود » — والفعل الذي اشتُقّ منه اسم المفعول يجب أن يكون متعدّياً .

الفعل اللازم ورَد : ودُع وَدَاعة أو دَعَةً . كان ذا سكينة ووقار .

فهل في طبيعة اللغة أن يُقال وَدَعَه أي صيَّره ذا سكينة ووقار ؟

لنأخذ مثالاً قياسياً (غير نادر) : مَنُعَ مَنَاعة كان حصيناً عزيزاً

(محارمك امنَعْنها من القوم انني أرى جفنة قد ضاع فيها المحارم)

مَنَعَهُ حماه وصيَّرَهُ حصيناً عزيزاً .

فالماضي من مودوع موجود أمّا كثرة استعماله أو قلته وإقبال الشعراء والكتّاب عليه أو إيثارهم سواه فأمور متعلّقة بعلم البلاغة أو بعلم المعاني والبيان .

★ ★ ★

(٩٠)

مادة هـ ل ع — أهلع .

في مادة جَزِع يذكر تعدية هذا الفعل بالهمزة : « وأجزعَه غيرُه » .

ولكنّه لا يذكر في مادة هلعَ تعديتَه بالهمزة كأنّ أهلع غير موجود .

روى المبرّد للرّياشي (وقدْرُ ابنِ المكرّم للمبرّد معروف)

حتّى إذا انقطعت عنّي وسائلُه كفَّ السؤال ولم يُولَعْ بإهلاعي

★ ★ ★

(٩١)

من مظاهر عدم مبالاة الناشر بالمراجعة والضبط ما يأتي :

جاء في بداية الأول : « وُلد في المحرّم سنه ٦٩٠ وتوفي سنة ٧٧١ » .

وفي ختام الجزء : « ولد سنة ٦٣٠ في المحرّم ومات في شعبان سنة ٧١١ » .

★ ★ ★

(٩٢)

الألف في الجزء الأخير في باب الألف (وهي الحرف الثامن والعشرون ، الحرف الذي لا يُبتدأ به ولا يقبل الحركات مطلقاً والذي يحتاج إلى حرف مفتوح يُكتب قبلَه) قال : « الألف تأليفها من همزة ولام وفاء وسُمِّيَتْ ألفاً لأنها تألف جميع الحروف » .

غريب إقبالهم على الأخذ بالظواهر ، بهيأة الكلمة ، وأعجب منه إقدامهم على الاستنتاج من الشكل الخارجيّ . أوَلَمْ يقل الجَدُّ إنَّ أصل اسطرلاب أنّ رجلاً اسمُه لاب كتب أسطراً في الفلك ؟ » أولم يَرِد في القاموس وفي اللسان أن أصل « المد » [لفظة موروثة في الأُم الشاميَّة] أن يمدّ الرجل يديه فيملأ كفَّيهِ طعاماً » « ومِلْء كفَّي الإنسان المتدل إذا ملأها ومدَّ يدَه بها [أي مدَّ يدَه بكفَّيهِ — هذا تعبير يحتاج تفسيرُه إلى معجم كبير] ومثلها أمثال كثيرة .

سُمِّيَتْ الألف ألِفا لأنَّ الذين وضعوا الأبجدية سَمّوها « أوْلفْ » وعنهم ورثناها وتصرفنا في لفظها موافقةً لطبعنا .

★ ★ ★

(٩٣)

مادة هـ ر ر — تعقّرُ .

في آخر مادة « هرّ » يورد بيتاً للمؤرّج .

يا لكِ مِنْ قُنْبُرَةٍ وقُنْبُرِ كنتِ على الأيامِ في تعقُّرِ

ويفسّر كلمة تعقّر في مادة هرّ (وهو ليس مطلوباً منهُ) بقولهِ أي « الصبر والجلادة والله أعلم » ، وجميلٌ جدًّا إظهاره التقوى واتّضاعهُ أمام عِلم الله تعالى .

لو قرأ طالبٌ هذا البيت في كتابٍ ما ولم يفهم معنى تعقّر فأين يطلب الكلمة ؟ هل يطلب تعقر في هرّ ؟ بل يطلبها في عقر فيقرأ تسع صفحات أكثرها لوكٌ ، ولا يجد ما هو طالبُه — وان كان المصنّف مكتفياً بقولهِ تعقّر الشحمُ اكتنز كل موضع من الجسم شحماً لِيَخْرُجَ التفسيرُ بالمجاز والمقابلة فلماذا فسّر في هرّ بالصبر والجلادة ؟

★ ★ ★

(٩٤)

مادّة ح ن ن — مُسْتحِنّ .

استشهد بالبيت الآتي :

لقد تركت فؤادكَ مُسْتَحِنّاً مُطَوّقةٌ على الغُصْنِ تَغَنّى

فقال في التفسير المُسْتحِنُّ الذي استحنّهُ الشوقُ إلى وطنِـهِ .

(١) فسَّرَ المستحنّ بفعل استحنّ وهذا ليس بمستغرَب فإنّهُ آفة علمائنا في القرن العشرين أيضاً إذْ نَرى الكبير منهم يفسّر فعل اقتدى بقولِهِ هذا من الاقتداء .

(٢) في البيت مستحِنٌ اسم فاعل ، صفة للفؤاد فيكون الفؤاد هو فاعل الاستحنان .

وفي التفسير يحوّل الفؤاد إلى الذي وقع عليه الاستحنان والذي فَعَل هو الشّوق . فالتناقض بين الوضع في البيت والوضع في التفسير جليٌّ . والبيت صحيح والتفسير غير صحيح — وابن منظور نفسُه يوردُ هذا الفعلَ فعلاً لازماً بقولِه استحنّت الريحُ واستحنّ استطرب كما فعل المجد بقولِه استحنّ مثل حنّ حنيناً — على أنّهُ في تفسيرِه البيت حوّلَهُ إلى فعل متعدٍّ .

★ ★ ★

(٩٥)

مادة غ ف ل — اغتفال .

لا يذكر فعلَ اغتفال — وهو واردٌ في الكامل ومعناهُ « اغتنم غفلةَ ... » « حذِرٌ سؤولٌ فأنا آمنُ أن يُغْتفَلَ » .

★ ★ ★

(٩٦)

مادة ج س و — جَساوَة .

لا يذكر لفظة جساوة — ومعناها الصلابة .

وردت في الكامل : « ومن غلبت عليه الجساوة وكان طبعُهُ إلى القساوة فقد اختلط كلٌّ بِكُلٍّ » .

★ ★ ★

(٩٧)

مادة أ ر ز — أَرُزٌ ، رُزٌ ، رُنْز ، أُرْز كلُّه ضرب من البُرّ .
وهو الذي يقول برز البُرّ الحنطة والبُرّ أفصح من قولهم القمح والحِنْطة .

★ ★ ★

(٩٨)

مادة أ ر ز — الأرز .

قال اللسان : « قال أبو عبيدة الأرز شجر الصنوبر » .

« الأرز العرعر شجر بالشام ويُقال لثمره الصَّنَوبر » .

« وقال أبو حنيفة أخبرني الخَبِير أن الأرز ذكر الصنوبر » .

لا أبو عبيدة ولا أبو حنيفة ولا ابن منظور رأى شجرة أرز أو شجرة صنوبر فتوهم أبو عبيدة واتكل أبو حنيفة على « خَبِير » وعنها نقل ابن منظور فأخطأوا ، وفهمنا لماذا أخطأوا — ولكنَّ مُعْجَمِيّي القرنَين الأخيرين التاسع عشر والعشرين ، [والثلاثة أبنـــاء لبنان — الثلاثة عاشوا بين الأرز والصنوبر] كان الواجب عليهم ولو في هذه النبذة فقط أن يرتفعوا عن النقل الأعمى . ففي محيـط المحيط وأقرب الموارد والبستان الأرز هو الصنوبر أو ذكر الصنوبر .

★ ★ ★

(٩٩)

في مادّتي حلا وحكى يَكْتُب سِئْلَ : [الهمزة في الوسط ومتحرِّكة تُرْسم على حرف حركتها] ـ تحرَّكت بالكسر فكتبت على ياء . هذا رسم الهمزة

على قاعدة . وفي مادة سأل يقول والمضارع يَسْأل : الهمزة في الوسط وحركتها فتحة فكتبت فوق ألِف . وهذا على القاعدة ذاتها . ولكنَّهُ عندما يكتب تَسْئَلُ في الشاهد (مادة حلا) فهل في استطاعته كان أو في إمكان أحد أن يضع قاعدةً لرسم همزة مفتوحة ومتوسطة وما قبلها ساكن على ياء ؟ وإن كان في استطاعتهِ أن ينُصَّ فلماذا رسمها في باب سأل يَسْأل على ألف ؟ قد لا يكون المخطىء ابن منظور فليُجِبِ الناشر .

★ ★ ★

(١٠٠)

الخفّة في النقل .

قال في مادة أ ث ر : وأَثْرُ السيف (المثلثة ساكنة) تسلسلُهُ وديباجتُهُ .

فإني إنْ أقَعْ بكَ لا أُهلَّكْ كوقع السيف ذي الأَثْرِ الفرِنْدِ

روى الراوي الثاءَ بالفتح فقام ثعلب [وكانَ نِدَّ المبرِّد] وقال إنما أراد ذي الأَثْر (بالسكون) فحرَّكه للضرورة . وقول ثعلب خلط بل عالك إن صحَّ أنّه قال ، إذ لا ضرورة هنا في الوزن — ومع أنَّ ابن سيده قال « لا ضرورة » أصرَّ ابن منظور على نقل كلام ثعلب .

★ ★ ★

(١٠١)

مادة خ ض ع — اختضع .

قال : « اختضع ذلَّ — خضع الرجل رقبَتَـــهُ فاختضعت — يظلّ مختضعاً أي مطأطىءَ الرأس — والاختضاع المرُّ السّريع — والاختضاع سُرْعة سير الفرَس . »

خمس مرّات يذكر فعل اختضع وهو فيها كلّها فعلٌ لازم ولا يُورده متعدّياً ـ والقاموس مثله حتى انه لما قال اختضع خضع (وخضع يأتي متعدّياً ولازماً) زاد مستدركاً كاخضوضع (ووزن افعوعل لا يكون إلا لازماً باستثناء اعروری واحلولى) خوفاً من أن يفسّر اختضع بخضع لازماً ومتعدياً .

لكنّه في مادة د ل ف ، يفسّر الدالف بقوله « الكبير الذي اختضعته السنّ » فهنا جعل خضع متعدّياً ، وعلى فرض مجيء اختضعَ متعدياً ، فلماذا لم يذكر ذلك حيث يجب ذكره مفصّلاً بل أبقاه لدلف فورد عرَضاً .

★ ★ ★

(١٠٢)

مادة ث ن ي — اثنين .

قال : « والألف في اثنين ألف وصل فإذا كانت مقطوعة في الشعر فهو شاذّ كما قال قيس بن الخطيم :

إذا جاوز الإثنين سرٌّ فإنّه ‏ ‏ ‏ ‏ بنَثٍّ وتكثيرِ الوشاة قمينُ

(١) هو نفسُه يقول في باب الألف : « الألف على ضربين ليّنة ومتحرّكة فالليّنة تُسمّى ألفاً والمتحرّكة تُسمّى همزة . » معناه أن الألف القديمة التي كانت قبل الإصلاح العربي المظيم ، أي ألف السريان والفينيقيين واليهود ، قسمها العرب إلى قسمين : التي لا تُستعمل إلا لتمديد صوت الفتحة ولا تقبل الحركات عليها مطلقاً أي لا تتحرك ولذلك لا يصح تسميتها المتحركة — أمّا التي كانت تُهمَز في الأمم الشامية وتحرّك كما لا يزال السريان والعبران يهمزونها ويحركونها ، فسُمّيت همزة ووُضعت لها علامة وصارت الهمزة الحرف الأول والألف صارت الثامن والعشرين فلا يجوز لأحد بعد الإصلاح أن يعود إلى الخلط القديم فيسمّي الهمزة ألفاً .

(٢) قال « فإذا كانت مقطوعة ... » كلمة مقطوعة ضلّلت كثيرين لأنهم فهموا أن القطع هو ذلك الصوت الحلْقي القاسي الذي عناه الرسول بقوله لا تنبر اسمي لما ناداه أحدهم أيها النبيء . ولكن القطع في الهمزة شيء آخر كما سيجيء وقسم العرب المصلحون الهمزة إلى همزة أصل كما في أخذ وسأل وقرأ وهمزة فصل كالتي في أكرم وهمزة وصل — ثم أطلقوا « همزة قطع » على القسمين الأوّلين فشملت التسمية همزة الفعل المهموز وهمزة الاستفهام وهمزة المضارعة وهمزة الزيادة وهمزة القلب أو البدل . وسمّيت « همزة قطع » لأنها تقطع ما قبلها عمّا بعدها في القراءة فتُلْفَظ لفظاً واضحاً وإن سبَقها مقطع فكلمة همزة تدل على نبر الصوت وكلمة قطع تدل على وظيفة الهمزة ، فهي بموجب وظيفتها قاطعة غير مقطوعة . كذلك همزة الوصل فوظيفتها أن تكون واصلة ما قبلها بما بعدها فما قبلها موصول بما بعدها أو ما بعدها موصول بما قبلها لذلك تسقط لفظاً لا خطاً حيث يقع الإلتباس وتسقط لفظاً وخطاً حيث يُؤمن اللّبْس — ولكنّها تثبت في الابتداء أي في أوّل الجملة أو في الكلمة المنفردة : أي تثبت خطاً ولفظاً .

فبموجب الإصلاح العربيّ الفريد الذي لا مثيل له في لغة أخرى أغربية كانت أم شرقية ، كان على المصنّف أن يقول : « والهمزة في اثنين همزة وصل فإن أبدِلَتْ منها همزة قطع في الشِّعر فهو شاذ » .

ثم يقول بعد الشاهد الثاني :

ألا لا أرى إثنينِ أحسنَ شيمةً على حَدَثانِ الدهرِ منّي ومن جُمْلِ

« وقد « قطعها » الشاعر على التوهم » — ونقل المعجميّون عنه مع إيضاح على التوهم فقالوا « على توهم الأصالة » أي أن الشاعر توهم أن همزة الوصل همزة أصل ، وهذا لا معنى له لأن الشاعر مهما كان لا يتصور مثل هذا التصوّر . ولكن الشاعرَين استعملا همزة القطع (شذوذاً) مكان همزة الوصل

محافظةً على الوزن لأنَّكَ إذا وصلتَ الزاي المفتوحة أو الراءَ المفتوحـــة (في المثالين أعلاه) اختلَّ الوزن وإذا قطعت الراء والزاي عن اللام والثاء بلفظك الهمزة صحّ الوزن .

والمزج بين الألف والهمزة بعد الإصلاح ليس محصوراً في ابن منظور بل هُوَ عامّ — وابن فارس الذي فاخر بأن العرب أوّل من همز يمزجها أيضاً فكأنه ضربٌ من « الإسكيزوفرنيا » [ولم أطلع على الاسم الذي وضعته مدارس الطب العربية لهذه الحالة العقلية] : مفاخرة بالإصلاح وحنين إلى القديم المطـَّرَح .

★ ★ ★

(١٠٣)

في مادة س ن ر يقول قال أبو عبيدة ... وأنشد :

سَهِكينَ من صدإِ الحديد كأنَّهم تحت السَّنَوَّر جُبَّةُ البَقَّار

[بضمّ جيم جُبَّة رفعاً للشك]

ولم يذكر لمن البيت — فيكون قد شبَّهَ الجيش بجُبَّة بائع البقر فلأنَّه كلام بلا معنى فقول إن فيهِ غلطةً من الناشر — ولكن صاحب البستان نَقَلَه كما هو ولو كان بلا معنى : كفاه أنَّه « هكذا ضبطه اللسان » كما يقولون .

وفي مادة س ه ك يستشهد اللسان بهذا البيت مرة ثانية ويقول قال النابغة (يعني الذبياني) ... تحت السَّنَوَّرِ جِنَّةُ البَقَّار .

فصار للبيت معنى : كأنهم الجِنُّ القاطنون في بقَّار (اسم موضع).

★ ★ ★

(١٠٤)

مادة هبق — الهبْرِقيّ .

قال الهَبْرَقيّ من الثيران المسنّ الضخم واستمارَهُ صخر الغَيّ للوعل المُسِن ، فقال يصف وَعْلاً [وقد استعار له اسم الهبرقي] .

بهِ كان طِفْلاً ثم أَسْدَسَ فاستوى فأصبح لَهْماً في لهـــوم

ولكن أين الشاهد ؟ وأين تتمة البيت ؟ أين الهبرقي .

المصحّح اكتشف أن البيت ناقص فكتب على الهامش « كذا بالأصل وهو ناقص فليحرّر » ولكنه لم يرَ أن لَهْماً بفتح اللام خطأ وأن الصحيح اللِّهْم بكسر اللام .

هذا البيت أولاهُ المصنّف في مادة ق ر ب — قرهب — وفي مادة ل ه م تاماً وبلام لِهْم مكسورة . فأصبح لِهْماً في لُهُومٍ قَراهبِ — ولكن أين الشاهد على الهَبْرقي ؟

★ ★ ★

(١٠٥)

مادة س ب ب .

يذكر سبّ وسابّ واستسبّ ولكنهُ لا يذكر استبّ مع أنه استشهد بقولٍ فيهِ هذا الفعل ، في مادة ب س ت ق :

ولم يُستبّ ساكنها عشاءً

وفي الكامل قال أبو العباس « وفي مجلسِهِ لا يستبّ اثنان » .

★ ★ ★

(١٠٦)

مادة ﻫ ب ل .

قال مستشهداً : « وقال الهُذَلي .

لا تَقِهِ الموتَ وَقِيَّاتُهُ خُطَّ لَهُ ذاكَ في المهبلِ

البيتُ فيه فلسفة الهذلي في القدَر ولو قال « لا تدفع الموتَ » لكانت لغتُهُ صحيحة وما تغير شيء من نظره . ولكنَّهُ تطرَّف فقال « لا تقِهِ » للمجانسة بين الفعل والفاعل وإذْ لم يسمح لهُ الوزن برفع المضارع جزَمَهُ في غير نهيٍ فبدلاً من (لا تقيهِ) قال لا تقِهِ ، أي أنهُ فضَّل قشرة المجانسة على لُباب القاعدة ، واللسان روى هذا الإخلال غير معترضٍ وعن اللسان روى البستان فزاد على الإخلال إفساد المعنى وكسر الوزن بقولِهِ .

خُطَّ لكَ ذلك في المهبـــل

★ ★ ★

(١٠٧)

الفساد الحاصل من التساهل في اللغة مثل الفساد الحاصل من التساهل في الشرائع .

الخطأ مرفوض فلا يخرَّج عليه خطأ ثانٍ ولو نطق بها كبيرٌ — العين ، عضو البَصَر ، لفظة مؤنثة ، فلا يجوز تذكيرها بالحمل على بَصَر ولا على طَرْف . والشاعر الذي يُخِلُّ بالأصول من أجل الوزن أو القافية ليس شاعراً من الطبقة التي يستشهد بها في اللغة . وإن جاز أن يُذكر قوله في مبحث فلسفي .

قال في مادة صرد — صرخد : « وقال الراعي .

ولَذٍّ كطعم الصَّرْخَديِّ طرحتُه عشيَّةَ خِمْسِ القومِ والعينُ عاشقَهْ

واللذّ النوم قال ابن برّي ورواه ابن القطّاع و « العين عاشقَهْ » (بفتح القاف) قال والضم أصح لأنّ قبلَه .

وسِرْبالِ كتّانٍ لبست جديدَهُ على الرَّحل حتى أسلمته بنائقُهْ

والهاء في عاشِقَهْ تعود على النوم وذكّر العين على معنى الطَّرف كقول طفيل « والعين بالإثمد الحاريِّ مكحول » فبناءً على هذا التخريج بالحمل على معنى كذا يجوز أن يُقال أذناهما طويلان » على معنى مِسْمَعَيْها — أفمن أجل بنائق يقول والعين عاشق ويثبتُه اللسان حجة لمن يريد العَبَث بل العَيْث .

★ ★ ★

(١٠٨)

مادة ص خ د . الصُّخُد .

قال صخرة صيخود صمَّاء راسية شديدة — اللساء الصُّلبة لا تحرّك من مكانها ولا يعمل فيهـــا الحديد : « حمراء مثل الصخرةِ الصيخودِ » قال ذو الرُّمة « يتبعن مثل الصخرةِ الصيخودِ .» وفي حديث علي « ذوات الشناخيب الصُّمّ من صياخيدها .

استشهد بعليّ وذي الرُّمّة وآخر لم يُسَمِّهِ ، فما بقي عليه كان إلا أن يورد بيت مُحكَم الشعراء وشيخ عكاظ .

بتكلم لو تستطيع كلامَهُ لدنت له أروى الهضاب الصُّخَّدِ

وبعد رواية البيت أن يُفسِّر الصُّخَّد أي أنه يفسح لها في اللسان .

★ ★ ★

(١٠٩)

مادة ق ذ ع — قاذَعَ .

بمعنى الشتم ، يذكر قَذَعَ (ويُنكرهُ الأزهري) وأقذعَ والصفات : مُقْذِع وقَذَعٌ وقذيع وقَذِع وأقذعُ بمعنى فاحش . ولكنه لا يذكر فعل قاذَعَ بمعنى شاتم أو هاجى ، وهذا الوزن (مبادلة الشتائم) وارد في شعر الذبياني :

فقبلَكَ ما شُتِمْتُ وقاذعوني   فما نَزُرَ الكلامُ وما شجاني

القاموس يذكرهُ : قاذعَهُ = فاحشَهُ وشاتمهُ .

★ ★ ★

(١١٠)

مادة ن ك ح — مرض الاسترخاء هو آفة المصابين بداء « هكذا ورد » ولو خالف المبادئ .

قال وفي حديث معاوية « لستُ بنُكَحٍ طُلَقَةٍ » أي كثير التزويج والطلاق — والمعروف أن يُقال نُكَحَة لأن فُعَلَة من أبنية المبالغة لمن يكثُرُ منهُ الشيء ولكن هكذا رُوِي — انتهى .

أفلا شجاعة فيقولَ أخطأ الراوي أو أخطأ معاوية ؟ !

★ ★ ★

(١١١)

مادة ن ي ب — ناب .

قال « الناب المسنة من النوق ولا يُقال للجمل (المذكَّر) ناب » . ثم قال « أعطاهُ ثلاثة أنياب جزائرَ » . هذا تناقض فثلاثة لا تكون إلا مع المذكر وأنياب جمعٌ لمؤنث . أمطبعية ؟ فأين الناشر ؟ هذا مُعجَم ! هذا مَرْجِع !

★ ★ ★

(١١٢)

مادة ذ ك ر .

قال امرأة ذكِرة ومذكَّرة ومتذكّرة = متشبّهة بالذكور .

استعمال متشبّهة صحيح لأنّ المرأة عاقلة — ويقول أيضاً وناقة مذكَّرة متشبِّهة بالجمل في الخَلق والخُلق . أما هنا فاستعمال متشبّهة خطأ لأن الناقة لا تمارس فعل الإرادة والاختيار فتتشبّه بالجمل في الخَلْق والخُلُق . فالناقة المذكَّرة إنما هي الشبيهة بالجمل ولا يجوز الاعتذار بأنّهُ حمل الناقة على المرأة لأنّ هذا الحملَ هو الخطأ بعينِهِ .

★ ★ ★

(١١٣)

مادة ف هـ س — فِهْرِس .

قال { عن الليث : الفِهرس = الكتاب الذي تجمع فيهِ الكتب .
وعن الأزهري : ليس بعربيّ محض ولكنّه معرّب .

عبارة الأزهري فيها حشو — فقولُهُ « ليس بعربي » كافٍ — وقولُهُ « معرّب » يفيد الشيء ذاتَهُ ومحض لا تفيد شيئاً .

وأما جملة الليث فلا يفهم منها شيء — لنفرض أننا رأينا « فِهْرِس الكتاب » وأردنا أن نفهم معناها من المعجم — لنضع بطريقة إبدال مساوٍ بمساويهِ كما في علم الجبر ، حدّ الليث لفهرس مكان فِهْرِس في « فهرس الكتاب » فالنتيجة تكون : الكتاب الذي تجمع فيه كتب الكتاب . فهل يتقدم عاقل على إعادة طبع اللسان وذا الهذيان فيه ؟

★ ★ ★

(١١٤)

مادة ن ص ر .

قال : نَصَّرُ صنم وقد نفى سيبويه هذا البناء في الأسماء .

قال الأصمعي إنما هو [أي نبوخد نصّر الذي استولى على اورشليم] بُوخَتَنْصَّر — وبُوخَتُ ابن ونَصَّر صَنَم وكان وُجد عند الصَّنم ولم يعرف له أب فقيل هو ابن الصنم .

متى كان الأصمعي عالماً باللغة البابلية ؟

نبو : اسم إله ومعناه العليّ .

خدّ = الحد

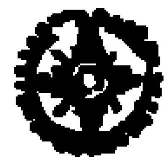
نصّر = أعان — حمى — فالاسم معناه : نبو يحمي الحدود .

يتبع : (سنپولو) توفيق داود قربان



تصحيح تاريخ وفاة

نشرت مجلة مجمـــع اللغة العربية بدمشق في الجزء الأول من المجلد الحادي والأربعين الصادر بتاريخ (كانون الثاني ١٩٦٦ م = رمضان ١٣٨٥ هـ) بحثاً بعنوان « قاسم بن ثابت السرقسطي وكتابه في غريب الحديث المسمى بالدلائل » للأستاذ التنوخي ، وقد جاء في حاشية الصفحة الرابعة من المجلة المذكورة أن النضر بن شميل كانت وفاته في سنة ٥٨١ هـ سهواً ، فقد ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان وابن خلكان في وفيات الأعيان أن وفاته كانت سنة ٢٠٣ هـ أو ٢٠٤ هـ ، وقد نبه المجمع العلمي إلى هذا الخطأ الاستاذ علي الفقيه حسن ، ولذلك ينشر المجمع هـــذا التصحيح التاريخي لإفادة القراء ، وليجزل للأستاذ الفاضل الشكر والثناء .



الجزء الرابع المجلد الحادي والاربعون

مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٦٦م جمادي الآخرة سنة ١٣٨٦هـ

الموسوعة العربية الميسرة

مقدمة :

الموسوعة مصطلح عربي حديث لما يسمى بالفرنسية Encyclopédie أي جملة المعارف ، أو الكتاب الذي يتناول أسس جميع العلوم ، أو الذي يتناول جميع أجزاء علم من العلوم ، كقولنا أنسيكلوبيدية حقوقية أو زراعية وهكذا .

ومن المصطلحات العربية الحديثة لهذه الكلمة الفرنسية « المَعْلَمة » ، ومنها « دائرة المعارف » . فهذه ثلاثة مصطلحات معروفة لمسمى علمي واحد مشهور . وهذا الأمر دليل من الأدلة الكثيرة على حاجتنا إلى توحيد المصطلحات العلمية ، وهي الحاجة التي طالما بحثنا فيها .

والظاهر أن الشيخ ابراهيم اليازجي كان أول من سمى هذا النوع من المؤلفات بكلمة « موسوعات » ، ذاهباً إلى أن طاشكبري زاده استعمل هذه الكلمة في كتابه « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » . ولكن ما جاء في كتاب طاشكبري المذكور هو كلة « موضوعات » ، أما كلة « موسوعات » التي رآها اليازجي فهي مصحفة ، على ما كان أثبته أحمد تيمور باشا والأب أنستاس الكرملي (١) .

وكلة موسوعة التي هي اسم مفعول من وَسِعَ الشيءَ لا وجه علمي لها ، فهي لا تدل على أنها تسع العلوم ، وهي حديثة كما قلت لم أرها في معجم قديم ولم أصادفها في كتاب من كتب الأدب القديمة حتى في مثل قولهم موسوعة الأشياء لا العلوم .

أما « المَعْلَمَة » فقد وضعها الأب أنستاس الكرملي . وهي أصلح بكثير من « الموسوعة » ، فالعلمة على وزن مَفْعَلة ، صيغت قياساً من كلة « عَلِمَ » الثلاثية ، وهي تدل على المكان الذي تكثر فيه العلوم . ومثل هذا المكان قد يكون أداةً أو يكون وعاءً ، فالعلمة وعاء العلوم . ويجوز كسر ميمها لأن الوعاء ربما حُمل على أنه آلة للحفظ .

وأما اصطلاح « دائرة المعارف » فقد كان المعلم بطرس البستاني أطلقه اسماً لسفره الجليل الذي يعاد اليوم تأليفه وطبعه في بيروت في حلة جديدة . وكان هذا الاصطلاح اسم علم لذلك المؤلف ، ثم صار اسم جنس لكل معجم جامع للعلوم . ولهذا كان الأستاذ محمد فريد وجدي قد سمى معجمه العلمي الموجز « كنز العلوم واللغة » ، وسماه بعد أن وسّعه « دائرة معارف القرن العشرين » الميلادي ، أو « دائرة معارف القرن الرابع عشر » الهجري . ونرى الذين ترجموا الأنسكلوبيدية الإسلامية قد سموها « دائرة المعارف الإسلامية » .

---

(١) من بحث لأحمد تيمور باشا في هذه المجلة (المجلد الثالث سنة ١٩٢٣ ص ٥٦) .

والكلمة الفرنسية من أصل يوناني . وهي مؤلفة من ثلاث كلمات بمعنى « في دائرة المعارف » ، فمصطلح « دائرة المعارف » هو إذن أصلح المصطلحات الثلاثة من حيث المعنى ، ولكنه مؤلف من كلمتين . ومن الأصلح أن يكون المصطلح كلمة واحدة تيسيراً للنسبة إليه ، فهل نختار « المعلمة » أم نختار « الموسوعة » ؟ فالأولى لها وجه علمي صحيح كما قلت ، وهي تستعمل في العراق والشام . أما الثانية التي لم أر لها وجهاً علمياً فهي شائعة في مصر خاصة . وقد بدأت تشيع في غيرها . ويكفي لإشاعتها أن تجيء اسماً لمثل المعجم العلمي الذي نتكلم عليه [1] . وقد فتشت في « المعجم الوسيط » عن المصطلحات الثلاثة فلم أجدها . ولا أدري هل أقر مجمع اللغة العربية في القاهرة أحدها ، أم أقر غيرها ، أم لم يقر للكلمة الفرنسية مصطلحاً عربياً ما حتى الآن وهو ما أظنه .

ما هي « الموسوعة العربية الميسرة » ؟

للولايات المتحدة الأميركية ، في البلاد العربية ، خطة سياسية ترمي إلى بث ثقافتها بالانفاق على ترجمة كتب أميركية إلى لساننا . وقد تُرجمت حتى الآن كتب كثيرة مفيدة . وآخر ما اطلعنا عليه منها هذه المعلمة التي نُشرت في سنة ١٩٦٥ .

وأداة النشر هي « مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر » ، فهي التي أنفقت على إنجاز قسم من المشروع ، كما أنفقت « مؤسسة فورد » الأميركية على

(١) صدر في سنة ١٩٦٥ م في بيروت معجم سمي « الموسوعة في علوم الطبيعة » . وصدر في بيروت أيضاً معجمان أحدهما سمي « المرجع » ، والثاني « الرائد » ، ولعلنا نتمكن من إبداء رأينا فيها .

إنجاز قسمه الأكبر . وقد اتخذت معلمة أميركية أساساً للعمل ، وهي « موسوعة كولمبيا فايكنج دسك » ذات المجلد الواحد .

ومن الطبيعي القول بأن فائدة الأميركيين في مثل إصدار هذه الموسوعة بالعربية إنما هو تعريفنا برجالاتهم من علماء وسياسيين ، وتعريفنا بتاريخ بلادهم وجغرافيتها وغير ذلك ، ونحن لا ننكر الاطلاع على ثقافة الشعوب الأجنبية أياً كانت بشريطة أن لا يؤثر ذلك تأثيراً مضراً في ثقافتنا العربية .

أما فائدتنا من مثل هذه الموسوعة فهي أنها تطلعنا على مجمل معارف عصرية مختلفة ، عدا أنها تتيح لنا أن نضم إليها الكثير من معارف بلادنا العربية في القديم والحديث .

فمنذ بضع سنوات تألف في القاهرة مجلس سمي مجلس المديرين مهمته إصدار هذه الموسوعة مستعيناً بعدد من الخبراء الاختصاصيين بمختلف العلوم .

وكان زميلنا في مجمع القاهرة المرحوم محمد شفيق غربال رئيسَ هذا المجلس . وفيه سبعة عشر عضواً ، معظمهم مصريون ، وكلهم من العلماء والأدباء المعروفين بسعة معارفهم . أما الخبراء فعددهم يقارب المائة . ومعظمهم مصريون أيضاً . وكل منهم اختصاصي بمادته العلمية .

صدرت الموسوعة سنة ١٩٦٥ م ، وقامت على أساس اطراح التفصيلات التي لا تهمنا في الموسوعة الميسرة الأميركية الملمع إليها ، وعلى إضافة ما له صلة بنا من المعلومات في العلوم المختلفة ، فجاءت المعلمة في مجلد واحد ضخم يشتمل على ألفي صفحة كبيرة ونيف .

ومن الطبيعي أن لا يجيء هذا العمل الشاق خالياً من الأغلاط والهفوات والنواقص والزوائد ، وهذا ما أدركه القائمون عليه فقالوا في المقدمة : « إنها (أي الموسوعة) تطمع في أن تتلقى عشرات بل مئات من الملاحظات

والنقد الأمين المخلص الذي يتطلع إلى الكمال ، لا الذي يتلمس النقص أو يتصيده . إنها ترجو أن تكون هذه الطبعة المحدودة العدد بمثابة التجربة الأخيرة من تجارب الطبعة ، تعرض على القراء ليشاركوا بدورهم في أن تكون طبعتها المقبلة أقرب إلى الكمال » .

وفي آخر المقدمة قالوا : « وكلنا أمل في أن تكون هذه الموسوعة العربية الميسرة مجرد البداية الطيبة المتواضعة في سبيل الموسوعة العربية الكبرى التي نأمل ألا تطول أعوام انتظارها » .

إن كلاماً مهذباً كهذا الكلام يقوله واضعو المقدمة قد حداني على تقليب صفحات من الموسوعة وإبداء ملاحظات موجزة جداً على ما استوقف نظري فيها .

ملاحظاتي على الموسوعة العربية الميسرة :

١ — جميع مواد الموسوعة غير مشكلة . وهذا نقص كبير أرى ضرورة تلافيه كلياً أو جزئياً ، ولا سيما في أسماء الأعلام الأجنبية وأسماء الأعيان المعرَّبة .

٢ — من الضروري في نظري أن تكتب بحروف لاتينية أسماء الأعلام الأجنبية كأسماء الأشخاص وأسماء البلاد والمدن والمواقع الجغرافية ، وكذلك الأسماء العلمية للنبات والحيوان ، فقد جاءت كلها بحروف عربية غير مشكلة ، ولم تذكر بحروف لاتينية ، ولهذا أمسى من الصعب جداً معرفة صحة عدد كبير من تلك الأسماء . ولنضرب كلمة مُغاث مثلاً فالمغاث معروف في مصر . وجاء اسمه في الموسوعة بالتاء ، والصحيح بالثاء . ثم جاء اسمه العلمي هكذا « جلوسستيمون بروجيوري » فهل يستطيع غير العارف بهذا الاسم أن يحزر ما هي صحته ؟ وهو بالحروف اللاتينية Glossostemon Bruguieri . ولنذكر أيضاً الخيار مثلاً ، فقد ذكروا أن اسمه العلمي « كيوكيوميس ساتيفس » ،

والصحيح « كُوكوميس ساتيفوس » لأن الاسم العلمي ليس انكليزياً ، وهو بالحروف اللاتينية Cucumis sativus . ومثل ذلك كثير .

٣ — خبراء الموسوعة بالعلوم الزراعية المختلفة متفاوتون في معرفة مصطلحاتها العربية ، فمنهم من استعملوا مصطلحات صحيحة أو راجحة ، ومنهم من خبطوا في المصطلحات خبط عشواء ، فتراهم يستعملون كلمات عامية بدلاً من الكلمات الصحيحة كقولهمْ مثلاً السنامكي والحبهان والكراوية والحمام الزاجل والصحيح السنا المكي وحب الهال والكرويا وحمام الزاجل . وفي مادة دفيئة قالوا الخضروات والصحيح الخضراوات . وفي مادة خرنوب ولوبياء قالوا إنهما من الفصيلة البقلية والصحيح من الفصيلة القرنية . وفي مادة الكراث المصري قالوا إنه من العائلة الزنبقية ، والصحيح من الفصيلة الزنبقية . وفي مادتي الفول والفول الرومي ذكروا أن الأول من الفصيلة القرنية والثاني من الفصيلة البقلية ! وجعلوهما نوعاً واحداً هو فيسيافابا Vicia faba . وفي مادة « سراييفو ، جامعة » قالوا الأحراش ، والصحيح الأحراج . وفي مادة نعناع قالوا الزعتر والصحيح السعتر والصعتر . وفي مواد أخرى استعملوا كلمات المتك والمتاع والحسلة ، والصحيح المثبر والوزيم (أو المدقة) والنُّوَيّة . وأطلقوا « عيش الغراب » على جميع الفطور السامة والتي تؤكل . والذي نعرفه أن هذا الاسم العامي في مصر يطلق خاصةً على الناريقون الزراعي الذي يؤكل ، ولا يجوز استعماله بمعنى الفطر عامةً .

ولم يتحروا في معجم الألفاظ الزراعية أو في غيره الأسماء العربية لبعض الفصائل النباتية بل ارتاحوا إلى سهولة التعريب . فالفستق عندهم من الفصيلة الأناقردية ، والصحيح الفصيلة البطمية ، والقلقاس من الفصيلة الأراسية ، والصحيح الفصيلة القلقاسية (أو اللوفية) . وأذن الحمار من الفصيلة البوراجينية ، والصحيح الحُمحمية وهكذا . ولا يجوز الاكتفاء بالأسماء المعربة .

ولم يُذكر نوع الضأن ، بل قالوا الغنم ، ولا نوع الخيل ، بل قالوا الحصان . وسواء في هذا النوع من الحيوان أو ذاك جعلوا سلالاتها أنواعاً ! الخ . الخ .

والخلاصة أن مواد العلوم الزراعية ولا سيما مواد النباتات الزراعية جاءت كثيرة الأغلاط ، فلعل القائمين على الموسوعة يختارون للطبعة القادمة بضعة علماء زراعيين قادرين على تمييز الصالح من المصطلحات ، (وكذلك في سائر العلوم) فالموسوعة لم تصنف للعامة بل للمثقفين ، ولغتها يجب أن ترفع لغة العامة لا أن تهبط إليها ، ومن المؤسف أن هذه الحقيقة لا يراعيها كثير من المؤلفين بالعلوم الزراعية في البلاد العربية .

٤ — من الأمور الصعبة التي يجب الانتباه إليها تحديد الأعلام الجغرافية التي يفيد نقلها من الموسوعة الأمريكية إلى الموسوعة العربية ، وتحديد الأعلام الجغرافية العربية التي يفيد إضافتها إلى هذه الموسوعة العربية . فقد لاحظت مثلاً أنهم ذكروا نهر كوكا في أمريكة الشمالية ، ولم يذكروا نهر الخابور في سورية . وذكروا في مادة «ربوة» أنها تل في الولايات المتحدة ، ولم يذكروا ربوة دمشق حتى ولا غوطتها الشهيرة . وذكروا من المدن الصغيرة التي لا شأن لها بلدة شالون سور سون في فرنسة ، وبلدة أسكي شهر في تركية (وقد عرفتها) ، ولم يذكروا في سورية بلدة درعا ولا بلدة الحسكة وكل منها مركز محافظة . ومثل ذلك كثير (١) .

٥ — لم يتبعوا في بعض شؤون المصطلحات قرارات مجمع اللغة العربية في القاهرة .

---

(١) للأستاذ الشيخ حمد الجاسر أحد أعضاء مجمعنا المراسلين مقال ثمين عنوانه «الموسوعة العربية الميسرة» نُشر في عدد الثامن عشر من ذي الحجة سنة ١٣٨٥ والثامن من أبريل «نيسان» سنة ١٩٦٦ من صحيفة «المدينة» التي تصدر في جدة ، ولا بد أن يكون القائمون على الموسوعة قد اطلعوا على ذلك المقال .

فمن جملة تلك القرارات مثلاً : « لا مجال للنحت ولا للتركيب المزجي في تصنيف المواليد الثلاثة ، ولا حاجة إليها » . وعلى الرغم من ذلك نجد في الموسوعة مثل قولهم : « بَطْنُ قَدَمِيَّات » و « رأس قدميات » بدلاً من « بطنيات الأقدام » ، و « رأسيات الأقدام » . ومثل هذه الرطانات التي اقتبسوها غير قليل .

٦ — الشؤون التاريخية والجغرافية والقومية في كل قطر عربي لا يجوز أن يكتب فيها إلا علماء اختصاصيون من ذلك القطر ، ومن المشهود لهم بالمعرفة والتدقيق ، وإن يكن عددهم صغيراً ، ولو راعى القائمون على الموسوعة ذلك لما قالوا في مادة « الاستقلال العربي ، حزب » :

« قامت في سورية الكتلة الوطنية (١٩٢٨ — ١٩٤٨) برياسة خالد العظم » ! ولما كتبوا ما كتبوه من الخلط في مادة « حوران » كقولهم إن غالبية سكانها من الدروز ، وقولهم : « سادها الدروز اليمنيون وبنو حمدان وآل الأطرش » فتأمل ! .

٧ — رمزوا في الأعلام الأعجمية إلى الحرف اللاتيني (g) والحرف اليوناني (γ) بالحرف العربي (ج) . ورمزوا إلى الحرف (j و dj) بحرف جديد أوجد في مصر حديثاً ، وكاد يشيع فيها ، ثم أخذ استعماله يقل ، وهو الحرف (چ) بثلاث نقط فترى في الموسوعة مثلاً :

چورچ أبيض بدلاً من جورج أبيض ، وچنيف بدلاً من جنيف . وعلى العكس من ذلك مثل « جاربو ، جريتا » ، ومثل جازولين ، وجلاسجو ، وجليسرين وأمثال ذلك من الرمز إلى الحرف الأعجمي (g) بالحرف العربي (ج) .

وسبب ذلك معروف وهو أن سكان القاهرة والوجه البحري ينطقون بحرف الجيم العربي غير معطش أي مثل الحرف (g) ، على حين أن سكان الصعيد في مصر وثمانية أعشار البلاد العربية الأخرى على الأقل تنطق به

معطشاً أو مخففاً (أي مثل dj أو z بالفرنسية) ، وهذا هو النطق الصحيح به في القرآن الكريم أيضاً . ولذلك لا يجوز في تعريب الأعلام الأعجمية أن ينقل الحرف (g) اللاتيني والحرف (γ) اليوناني إلا بأحد حرفين : إما بالغين كما فعل علماؤنا القدماء جميعاً ، وكما نفعل اليوم في سورية ولبنان وغيرهما ، وإما بحرف جديد نضعه لهما وأصلحه في نظري حرف الكاف له خطان معترضان بدلاً من خط واحد (گ) ، وهو المستعمل بالفارسية والأردو والتركية التي تكتب بحروف عربية . وقد قلت في كتاب المصطلحات العلمية في اللغة العربية (ص ١٧٣) : « أما اعتبار الحرف العربي (ج) رمزاً للحرف اللاتيني (g) في المعرَّبات فهو غير صحيح ، ومن الغلط أيضاً وضع ثلاث نقط في وسط الحرف (چ) وعده جيماً معطشة في مثل كتابة جيولوچية التي نراها أحياناً في القاهرة ، فان معنى ذلك عند سكان الصعيد وسكان سائر الأقطار العربية أن الجيم الشجرية أو المعطشة في القرآن وفي المؤلفات العربية قد أصبح لها حرف جديد هو الحرف (چ) بثلاث نقط . وبعد يؤمل أن ينتبه مديرو الموسوعة إلى هذا الموضوع الهام[1] .

٨ – لا أدري لماذا جعلت الموسوعة في مجلد واحد مع العلم بأنها تتألف من ألفي صفحة رقيقة ونيف . فالمجلد الواحد نقله صعب ، وهو ثقيل الحمل على أمثالي من الشيوخ ، وما الحكمة في عدم جعل هذا المصنف مؤلفاً من جزأين أو من ثلاثة أجزاء مثلاً ؟

٩ – الأغلاط المطبعية كثيرة ولا سيا في الأسماء العلمية المعربة للنباتات والحيوانات . ثم إنني قلبت صفحات خمس نسخ من مجلدات الموسوعة فوجدت في

(١) انظر موضوع الحرف اللاتيني (g) في الطبعة الثانية لكتاب « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » (ص ١٧٢ ـ ١٧٤) .

ثلاث منها صفحات بيضاً لم تطبع ، ومع ذلك أدخلت تلك الصفحات في النسخ المذكورة فجاءت ناقصة .

١٠ — لم تذكر بعض المواد في مواضعها ، ففي مادة « الشهابي » مثلاً ذكروا أربعة أشخاص من أسرتنا هذه ، ولكنهم ذكروا غيرهم في مواد أخرى كالرئيس فؤاد شهاب فقد ذكروه في مادة فؤاد ، وكحيدر الشهابي فقد جاء ذكره في مادة حيدر .

وقد لاحظ الأستاذ حمد الجاسر في مقاله الذي أشرت إليه ملاحظات أخرى من هذا القبيل ، فمن الضروري الانتباه إلى مثل ذلك .

الخلاصة : — هذه أهم ملاحظاتي على « الموسوعة العربية الميسرة » ، وعندي ملاحظات أخرى لم يتسع الوقت لإبدائها . وهناك رأي قديم لي نشرته منذ عدة سنين وهو أن تصنيف معجم إفرنسي عربي ومعجم انكليزي عربي للمصطلحات العلمية يجب أن يسبق تصنيف الموسوعة العربية ، وذلك لكي لا تجيء هذه الموسوعة مملوءة بمصطلحات عربية سقيمة أو مرجوحة أو غير صحيحة (١) .

وبعد إن المعلمة التي نتكلم عليها مفيدة في جملتها ، على الرغم مما اشتملت عليه من أغلاط وشوائب . وعمل كبير كهذا العمل لا يمكن أن يجيء في بادىء الأمر أي في أول طبعة خالياً من الهنات . ولنا ثقة بأن العلماء الذين يتولونه سيحرصون كل الحرص على أن تجيء الطبعة الثانية أصلح من الطبعة الأولى .



مصطفى الشهابي

(١) أنظر الطبعة الثانية من كتاب « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » (ص ١٤٧) .

لكل عصر لغة

إذا لم يكن تحوّل اللغة على اختلاف العصور أعظم خصائصها فإن هذا التحوّل ، ولا ريب في ذلك ، أوضح هذه الخصائص ، فلا نكاد نمرّ بعصرٍ من العصور إلاّ وجدنا لكل عصرٍ لغة خاصّة وأساليب خاصّة ، فقد تشيع في زمنٍ ألفاظ ثم تبطل هذه الألفاظ في زمنٍ آخر ، وقد تستفيض فيه أساليب ثم لا نجد لهذه الأساليب أثراً بعده ، وقد يكون تحوّل اللغة في بعض الأحيان آية من آيات قوّتها وحياتها ، فاللغة الجامدة التي لا تستجيب لبعض الحاجات قد يقلّ صلاحها للحياة على تراخي الأحقاب ، ففي كل عصرٍ تولد أشياء وتموت أشياء ، ولا بدّ لهذه الأشياء التي تولد من ألفاظٍ تعبّر عنها ، فالإسلام حوّل ألفاظاً في أوّل عهده عن وجهٍ إلى وجهٍ ، والنحو استعمل ألفاظاً على غير المألوف من معانيها ، وما يقال في الإسلام والنحو يقال في العلم والفلسفة والأخلاق والاجتماع وما شابه ذلك ، ففي هذه الآفاق نجد ألفاظاً ومصطلحات لم يكن لها من قبل المعنى الذي أراده واضعوها .

الخلاصة إن لكل عصرٍ لغة خاصّة ، فقد تعيش طائفة من مفرداتها فيه ثم تموت في عصرٍ آخر ، إني لا أحتاج إلى الإكثار من الشواهد في هذا الباب ، فكل واحدٍ منّا قد مرّ في خلال مطالعاته بقليلٍ أو كثيرٍ من هذه الشواهد ، وإذا كان لا بدّ من الاستشهاد فاني أقتصر على اليسير منه .

كنت أطالع معجم الأدباء فوجدت في أخبار أسعد بن المهذّب المماتي هذه العبارة : « فلمّا رأوا أنني لا وجه لي قيل لي : تحيّل ونجّم هذا المال

عليك في نجوم ... » . لست أخجل من الاعتراف بأني لم أفهم معنى نجّم ونجوم في هذا المقام ، ولمّا رجعت إلى القاموس المحيط علمت أن نجم المالَ ، مخفّفة ، ونجّمه ، مشدّدة ، أدّاه نجوماً ، والنجوم جمع نجم ومعناه الوقت المضروب ، فمن الذي يستعمل في عصرنا هذا نجّم على النحو الذي استعملت عليه في القرنين السادس والسابع ، أو في القرون السابقة ؟ فنحن نقول في يومنا إذا ركب أحدنا دين ولم يستطع دفعه مرّة واحدة : قسّطه ، بدلاً من نجّمه ، ونقول : الأقساط بدلاً من النجوم ، فالتنجيم بمعناها الأول قد خفيت في عالم الاقتصاد والمال ، وهي لا تعيش إلاّ في عالم معروف ، فالمنجّم هو الذي ينظر في النجوم بحسب مواقيتها وسيرها ، أو الذي يستخـــرج من هذا النظر التخرّص والأحاديث الملفّقة التي أشار إليها أبو تمّام في قصيدته الخالدة :

أين الرواية ، بل أين النجوم وما صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذب
تخرّصاً وأحاديثاً ملفّقـــة ليست بنبع إذا عُدّت ولا غَرَب

من هذا كله يتبيّن لنا أن التنجيم بمعنى التقسيط قد عاشت في عصرٍ من العصور ثم بطل استعمالها في عصرٍ آخر . ولست ألجأ إلاّ إلى مثل آخر في هذا الباب ، ففي أخبار المثّاني الومأ إليه وقع نظري على هذه العبارة : « وإنما كان مقصودي أن أدعك تعيش خائفاً ، فقيراً ، ممجّجاً في البلاد .... » . لقد أصابني في فهم الممجّج ما أصابني في فهم نجّم ، ولما استعنت بالقاموس المحيط وجدت أن قولهم : أمجّ زيد معناه : ذهب في البلاد . وقد ورد في معجم الأدباء مجّج بدلاً من أمجّ . وسوآء أكانت هذه المادّة أمجّ أم كانت مجّج إنّ معناها القديم : ذهب في البلاد ، شرّد ، ولم تبق لهذه المادة حياة في عصرنا ، وما أكثر الشواهد في هذا الباب .

إلاّ أن هذه الموادّ التي شاعت في حِقْبة من الحقب ، ثم بطل استعمالها على ممرّ الأحقاب قد نستطيع أن نرى لأكثرها تفسيراً في معجمات اللغة ، مثل تفسير نجَّم وأمجَّ وغيرهما ، أمّا المصيبة في عصرنا فانّنا نمرّ بتعابير لا نفهمها ونحن نعيش مع أصحابها ، ولست أبالغ في قولي إذا قلت إن أكثر هذه التعابير المستحدثة إذا وقفت عليها فاني أسأل عن معانيها فريقاً من أصدقائي الذين يتصلون بالحياة العامة وبمطالعة صحف هذا العهد أكثر مني ، وما أكثر هذه التعابير وما أكثر الذين لا يفهمون معانيها . رجعت وأنا أكتب هذا المقال إلى دفتري الذي أدوّن فيه لغة هذا العصر فوجدت في جملتها قولهم : محاولاً مسح الماء عن وجه الزعيم الروديسي ... وقد استعملت هذه الجملة على المجاز ولم تستعمل على الحقيقة ، ولو استعملت على الحقيقة لما أشكل عليّ معناها ، إلاّ أن استعمالها على المجاز قد غمَّض معناها ، فاذا كنت أعيش في العصر الذي شاع فيه هذا التعبير ولم أفهم معناه فما قولنا في العصور الآتية ، كيف يستطيعون أن يفهموا بعد خمسين سنة أو مائة سنة أو أكثر معاني ما يستحدث من التراكيب ، ولا نرى معجماً من معجمات العصر يشرح معاني هذه التراكيب ، فما هي نتيجة هذا كله ؟ إن العصور الآتية يتعذّر عليها فهم طائفة من لغة الحاضر ، فاذا كان تحوّل اللغة على ممرّ الأحقاب قد يدلّ في بعض الأحيان على قوة هذه اللغة وحياتها فان هذا التحوّل إذا أفرطوا فيه واشتطّوا قد يؤدي إلى غموض اللغة بحيث يدقّ على الأذهان فهم أكثرها .

وإذا كان لكل عصرٍ لغة تتحوّل من زمنٍ إلى زمنٍ أفلا نجد للعصور كلها لغة تكاد تكون ثابتة ؟ أفلا نجد أن اللغة السهلة ، البسيطة ، هي لغة العصور كلها ، الخالدة على وجه الدهر ، ولا أدلّ على هذا الخلود من بقايا الفصاح التي لا تزال تعيش في أيامنا على أفواه العامّة وقد مرّ عليها

ألف سنة أو أكثر . فاذا كنت مولعاً بهذه البقايا ، حريصاً على التقاطها وجمعها ، فالسبب في هذا الولع وهذا الحرص سهولتها وبساطتها من جهةٍ ، ثم دلالتها على أمورٍ كثيرة من أمور العمران والاجتماع وغير ذلك .
فمن هذه البقايا قولنا في لغتنا العامة : رجع لونه ، نجد في أخبار إسحاق ابن إبراهيم الموصلي في معجم الأدباء أنه وقع بينه وبين إبراهيم بن المهدي شيء من التشاتم ، وقد استخف كل واحدٍ بالآخر ، فرفع الأمر إلى الرشيد وقال له إبراهيم بن المهدي : يا أمير المؤمنين ! شتمني وذكر أمي ، واستخفّ بي ، فغضب الرشيد ، وسأل خادميه عن القصة وكانا حاضرين ، فجعلا يخبرانه ووجهه يربدّ إلى أن انتهيا إلى ذكر الخلافة ، وقد كان الموصلي قال لإبراهيم بن المهدي : أرجو ألاّ يخرجها الله تعالى ، أي الخلافة ، عن يد الرشيد وولده ، وأن يقتلك دونها ، فلمّا انتهى الخادمان إلى هذا القول سرّي عن الرشيد ورجع لونه ...

إن مثل هذا التعبير ، رجع لونه ، شائع في لغتنا العامّة ، فهو حيّ ، قويّ ، لم يذهب من حياته وقوته شيء على طول السنين ؛ فكثيراً ما يساور أحدنا بعض الغضب أو بعض الخوف وما ماثل ذلك فيربدّ وجهه ويصفرّ ، ثم يهدأ صاحب هذا الوجه وتدخل الطمأنينة عليه فنقول : رجع لونه ، فهذا التعبير من التعابير الثابتة في كل زمنٍ ، لم يتحوّل معناه عن وجهٍ إلى وجه ، وهو سهل ، بسيط ، ليس في استعماله انحدار عن أفق البلاغة ، إن رأس البلاغة إنما هو البساطة ، فالذين يميلون في عصرنا إلى تراكيب معقّدة ، لا تفهم معانيها ، إنما يبعدون عن البلاغة ، ويبهم كلامهم فلا يفهمه من يأتي بعدهم في مستقبل الأيّام ، فاذا كان لبقايا الفصاح مزيّة فان من بعض مزاياها السهولة والبساطة .

ومن هذا القبيل قولنا اليوم في عاميتنا : طار نومه ... فقد جاء في ترجمة الوزير الصاحب في معجم الأدباء كلام لأبي حيّان على الصاحب ، فقد قصّ أبو حيّان قصة طريفة لا سبيل إلى تلخيصها ، وردت فيها هذه العبارة : « فما زاغ الرجل عن باب ركن الدولة حتى وصل ودخل في ذلك الوقت الفائت إليه ، فقيل لابن عبّاد ذلك ، فطار نومه وقال: أي شيطان هبط علينا . . . . » . فقد عاشت جملة أبي حيّان: طار نومه ، حتى يومنا هذا ، أفيستطيع أحدنا أن يقول في مثل هذه الحالة التي يغلب فيها علينا القلق أو الاضطراب ولم ينم في الليل أبلغ من هذا القول : طار نومي .

على أن لبقايا الفصاح وجهاً آخر غير السهولة وغير البساطة ، فقد نجد في بعضها ما يصوّر لنا ناحية من نواحي العمران والاجتماع وغير ذلك ؛ إني لا أستعين الآن على توضيح هذه الفكرة إلاّ بثلاث موادّ : برّاني ، جوّاني ، طرّاحة .

كنت أطالع قبل كتابة هذا المقال كتاب معجم الأدباء ، فوقع إليّ في ترجمة المماتي ما سمّاه ياقوت : نوادره الحادّة ، قال :

« وكان له نوادر حسنة ، حادّة ، منها ما حدّثني به الصاحب القاضي الأكرم ، قال : ركبنا وخرجنا يوماً نسير بظاهر حلب ، فكان خروجنا من أحد أبوابها ، ودرنا سور البلد جميعه ، ثم دخلنا من ذلك الباب ، فقال : اليوم تسييرنا تدليك ، قلت : كيف ، قال : من برّا ، برّا ... » . إني لا ألتفت إلى هذه النادرة مقدار التفاتي إلى هذه اللفظة : برّا ، برّا ؛ إنّا نقول اليوم في لغتنا العامّة : برّا ، أي أخرج ، وقد جاء في القاموس المحيط : من أصلح جوّانيه أصلح الله برّانيه ، وتوسّع الشارح في حاشيته في شرح هذه الجملة واستند إلى منْ فسّرها على هذا الوجه : من أصلح

سريرته أصلح الله علانيته ، أخذ من الجوّ والبرّ ، فالجوّ كل باطن غامض ، والبرّ المتن الظاهر . وسواء أكان هذا الكلام من كلام المولّدين أم كان من كلام فصحاء العرب في البادية إني لا أدخل في هذا الاختلاف ، فالذي يهمني إنما هو لفظ : برّاني ولفظ : جوّاني ، وقد عاش هذا اللفظ في عصرنا ، فالبرّاني في لغتنا العامّة معناه : الخارج ، والجوّاني معناه : الداخل ، فنقول : الجرح برّاني ، أي في ظاهر جسم الإنسان ، والجرح جوّاني ، أي في باطن جسمه ؛ وفي دمشق حارة يسمونها : البحصة البرّانية والبحصة الجوّانية ، إلاّ أنّا نلفظ الجوّانية بضم الجيم ، وهي بالفتح ، وبعض دور دمشق القديمة التي كان يملكها طبقة من الوجوه والأغنياء تحتوي على برّاني وجوّاني ، فالبرّاني يستقبل فيه صاحب الدار ضيوفه من الرجال في الصباح أو المساء ، وهو ينفصل عن الجوّاني الذي تقيم به النساء ، فهذا البرّاني يدلّنا على نمطٍ من عيشة طائفة من الموسرين والوجوه في دمشق قبل خمسين سنة أو أقل أو أكثر ، فقد كانوا يجلسون فيه ، فيتحدّثون ويسمرون بدلاً من جلوسهم في المقاهي أو المجالس العامّة ؛ أمّا في العمران الحديث فقد بطل هذا البرّاني ، فالدور كلها تشتمل على قسم واحدٍ لا غير ، فيه بهو للضيوف غير منفصل عن أصل الدار .

هذا ما يتعلّق بالبرّاني والجوّاني ، أمّا اللفظة الثالثة فهي : الطرّاحة ، فقد جاء لياقوت في ترجمة إسماعيل بن الحسين بن جعفر الصادق المروزي ما يلي : فلما وقف عليه نزل عن طرّاحته وجلس على الحصير وقال لي : اجلس على هذه الطرّاحة ، فأعظمت ذلك وخدمته .... » . وورود الطرّاحة في هذه الجملة يدلّ الإجلاس عليها على نوع من التكريم ، لم أجد في القاموس المحيط ذكراً للطرّاحة ، والذي نعلمه أن الطرّاحة

إنما هي نوع من فرش البيت ، تبسط على الأرض للجلوس عليها ، وقد تكون مربّعة أو مستديرة أو مستطيلة ، يحشونها بالقطن أو بالصوف : يجلسون عليها في حالة التبذّل ، لما في الجلوس عليها من راحة ، وقد كنّا في دمشق نستعملها في دورنا القديمة ، في الصيف نضعها في المساء في صحن الدار ونجلس عليها ، وفي الشتاء نضعها بالقرب من المدافىء التي نتحلّق حولها فنجلس عليها أو قد نسند ظهورنا إلى مخدّات على الحيطان ، فالطرّاحة كانت تدخل في أصل فرش الدار ، أمّا اليوم في العمران الحديث فأكثر الجلوس يكون على الكرسي ، أو على ما يسمونه : الديوان أو الكنباية ، فليس في الدور الحديثة صحون دار يجلسون فيها في الصيف على الطرّاحات ، وقد تشتمل بعض هذه الدور على غرفة يسمونها : غرفة القعود ، وقد توضع الطرّاحة في هذه الغرفة .



أفرأينا كيف ان طائفة من بقايا الفصاح التي تعيش على أفواهنا في عصرنا هذا تفصح لنا في بعض الأحيان عن نمطٍ من أنماط العمران أو الحياة الاجتماعية وأشباه هذه الأمور ؟ فإذا شئت أن أختم هذا المقال فلست أختمه إلاّ بما يلي : إذا كان لكل عصر لغة خاصة ، وأساليب خاصة قد يذهب بعضها بذهاب العصر الذي ظهرت فيه فان اللغة التي تصلح لكل العصور إنما هي اللغة السهلة ، البسيطة ، مثل قولنا : رجع لونه ، وطار نومه ، ونظير هذه الطبقة من بقايا الفصاح .

شفيق جبري



أدب الفقهاء

- ٨ -

الأخلاق والآداب :

وشعر الأخلاق والآداب أو الوصايا والحكم في أدب الفقهاء ينبوع ثرّ ، ومعدن غني بالأعلاق النفيسة والجواهر الكريمة ، إذ كانوا هم مصدر الآداب ومُقعّدي قواعد الأخلاق ، ما بين شرعية وسياسية . فالمتشرعون منهم يستمدون من الأصلين العظيمين اللذين اشتملا على أحسن الهَدْي ، وهما الكتاب والسنة . والمتفلسفون يأخذون خير ما عند أصحاب التعاليم وعلماء الأخلاق ، مما يتوافق ومبادئ الدين الحنيف الذي يقول رسوله الأكرم ، ﷺ : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وبذلك يكون الشعر الصادر من الفقهاء في هذا الباب من أمثل هذا الشعر من حيث المضمون ، لاحتوائه على زبدة ما جاءت به الشريعة وأيّدته الحكمة من قواعد السلوك ومعاملة الناس بعضهم لبعض ، وأما من حيث الشكل فهو على ما سنرى وما رأيناه في غيره ، حُسنَ بناء وإحكامَ صنعة .

ولعل خير ما نؤيد به قولنا هذا هو شعر الفخر الذي قاله فقهاؤنا رحمهم الله ، فهو يسير على وتيرة غير التي يسير عليها فخر الشعراء الذي يستحيل في بعض الأحيان إلى بهلوانية أدعى ما تكون إلى السخرية منها إلى الإعجاب ، وذلك بما يتضمنه من الادعاء الفارغ والتطاول الذي لا حد له ، في حين أن فخر العلماء ينحو منحى تهذيبياً ويمثل الاعتزاز بالعلم والهمة العالية

والخلق الكريم ، ولذلك أدخلناه في الشعر الحكمي ولم نجعله باباً مستقلاً كما هو في شعر الشعراء غير الفقهاء .

ولنستمع إلى ما يقوله الإمام الشافعي في هذا الصدد :

عليّ ثياب لو يُباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو يقاس ببعضها نفوس الورى كانت أجل وأكبرا
وما ضر نصلَ السيف اخلاقُ غمده إذا كان عضباً حيث وجهته فرا

فهو يفخر بنفسه ويعتز بها ويقارنها بنفوس من يرى من البشر المتنافسين في الدنيا المتهالكين على الأطماع ، فترجح بها وتسمو عليها ، لأنها ليست من بابتها ولا من واديها ، إذ بينما هذه مطلبها الكمال وتطلُّعها إلى معالي الأمور ، إذا بتلك إنما تستهويها المادة وليس لها مطلب غير الدينار والدرهم اللذين تتوصل بهما إلى قضاء مآربها الوضيعة ، والظهور بمظاهر العظمة الكاذبة من لباس فاخر وزينة متناهية ، لم يكن للشافعي رحمه الله منها إلاّ ثياب بسيطة تُراد للستر لا للمباهاة بحيث لو عرضت للبيع في السوق لما تجاوز سومُها الفلس الواحد من بخس ثمنها ووكس قيمتها . ولكن متى كانت قيمة الشافعي وأمثاله فيما يلبسون أو يأكلون أو يسكنون ؟ وأين هم الآن أولئك الذين عايشوه من أهل الثراء الواسع ، والمآكل والملابس ، والدور والقصور ، والخدم والحشم ، والرياش والأثاث ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟

إنها ملايين النفوس وأعداد الذر من الناس ، لا نعرف لهم اسماً ولا نقف منهم على أثر ؛ تمتعوا بزينة الحياة الدنيا وكانت هي غاية مرادهم ، فذهبوا ولم يتحدث عنهم رائح ولا غاد ؛ والشافعي في ثيابه الرخيصة ونفسه الغالية ، ما يزال على مر العصور وتعاقب الأجيال ، خالد الذكر ، عالي القدر ، ملء سمع الدنيا وبصرها .

فهذا فخر يقترن بالتوجيه ، ويوحي بمعانٍ من السموّ والعظمة لا يعرفها إلاّ أهل العلم ، ولذلك جعلناه من أمثلة شعر الأخلاق والآداب .

ومن شعرهم السائر الذي بلغ الغاية في الاعتزاز بالعلم وترفّع حمَلته عن الابتذال ، قول القاضي أبي الحسين علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه :

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكنّ نفسَ الحر تحتمل الظما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيّرته ليَ سُلّما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأُخدَما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة إذن فاتباع الجهل قد كان أحزَما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعُظّما
ولكن أهانوه فهانوا ودنّسوا محياه بالأطماع حتى تجهّما

تمثل هذه الأبيات قمّة شعر الفخر في أدب الفقهاء سواء من حيث المعنى أو الأسلوب ، فهي تعبر بأحسن عبارة عن أعمق المشاعر التي يحس بها من أكرمهم الله بالعلم فأغناهم عن كل مطلب سواه ، وصاروا بحيث لا يغريهم المال ولا يغرهم المنصب ، لأن الأجواء التي يحلقون فيها تتكشّف لهم عن عوالم في منتهى الروعة والجمال ، تملأ نفوسهم غبطة وسرورا ، وتغمر قلوبهم رضاً وطمأنينة ، فما المال وما المنصب بازاء السعادة التي يجدونها في الانقطاع إلى العلم وحياته الهنية ؟

والناس يرون عزوفهم عن تجمعاتهم اللاهية ، وعدم خوضهم فيما يخوض فيه غيرهم من الأباطيل ، فيصفونهم بالانقباض والشذوذ ، والحال أن وقار العلماء يمنعهم من النزول إلى حضيض الابتذال ، فإذا كان غيرهم من ذوي السلطة والنفوذ يتصنع ويتكلف للمهابة والتوقّر ، فإنّ سمْت العلم

قد أحاطهم بهالة من التعظيم والاحترام تنحسر عنها الأبصار . وإذا كان هذا شأن العلماء الحقيقيين ، فإن غيرهم من المدعين لا نصيب لهم من هذا الشرف ، لأنهم لم يصونوا العلم ولم يعظموه ، ورضُوا أن يكونوا مطية للجبابرة وأعواناً للمتسلِّطين لقاءَ ما ينالونه من فُتات موائدهم ، فهم قد حُرِموا لذةَ العلم وحُرِموا معها عزتَه ، وهؤلاء هم الذين يعنيهم القاضي الجرجاني في البيتين الأخيرين من القطعة ، اللذين هما مغزى نخره ، وصرح به ليكون أبلغ في التوجيه والإيحاء .

ومن هذا المعنى قول أبي الحسن النُّعَيْمي البصري أحد مشيخة القرن الخامس :

إذا أعطشتك أكفُّ اللئام كفتك القناعةُ شِبْعاً وريّا
فكن رجلاً رجلُه في الثرى وهامةُ همته في الثريا
أبيّاً بنفسك عن باخل تراه بما في يديه أبيا
فإنّ إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيّا

وهي أبيات قليلة النظير في الحض على علو الهمة وشرف النفس وعدم التشوّف لما في يد الغير وصيانة ماء الوجه من أن تكدره أو تستنزفه الحاجات والأطماع ، ولعل شاعراً غيرَ فقيه لا يستطيع أن يأتي بمثل هذه الأبيات في بلاغة معناها وجزالة مبناها ، لأن رصيد الشعر مليء بالسؤال والرجاء والأمل ، فلا يتفلّت من يكون هو رأس ماله من تأثيره فيه والإنفاق منه إذا اضطر ذلك ، بخلاف الفقيه الذي يعرف حكم الشريعة في السؤال ، ويروي قول الرسول (ﷺ) : « لأَنْ يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيع فيأكل خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ، وقوله : « لا يزال الرجل يسأل الناس حتى يبعث يوم القيامة وليس في وجهه مُزْعَةُ لحم » .

فإنه يستقي من ماء غير آسن ، وإذا قال شعراً في وجوب الاحتفاظ بالكرامة الشخصية فلا يكون إلا هكذا .

وحكى السبكي في الطبقات أن البرقاني كان يقول في صاحبنا النُّعَيمي : « هو كامل في كل شيء لولا بأوٌ فيه » . ونحن نقول حبذا البأوُ الذي يُملي على صاحبه هذه الأبيات الرائعة ...

ومن شعر عبد المهيمن الحضرمي وهو من شيوخ ابن خلدون ، وكان كاتب العَلامَة للسلطان أبي الحسن المَريني قوله ، وفيه لزوم على ما لا يلزم :

أبت همتي أن يراني امرؤٌ على الدهر يوماً له ذا خنوع
وما ذاك إلا لأنّي اتّقيت بعز القناعة ذلَّ القُنوع

القنوع السؤال ، ومما حبّب لنا رواية هذين البيتين هنا أن صاحبها كان في حياته العملية عند قوله هذا ، ولم يكن متبجحاً بكلام لا ظل له من الحقيقة كما هي عادة الشعراء غالباً ﴿ألمْ تَرَ أنهم في كل وادٍ يهيمُون وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ فقد حدث أن السلطان أبا الحسن المَريني الشهير أغلَظ له القول ذات يوم ، وهو يلي كتابةَ عَلامَتِه ، فأخذ عبد المهيمن القلمَ وكسره أمام السلطان وقال : « هذا الجامع بيني وبينك » ، وقام مغاضباً له ، فخجل السلطان وندم على ما صدر منه وترضّاه وأفضل عليه :

وهكذا صدّق فعلُه قوَله وطابقَ سلوكُه فخرَه ، وتلك هي أخلاق العلماء .

ونعرض للشعر المخصوص بالوصايا والحكم مكتفين بهذا القدر من شعر الفخر ، وللشافعي في الباب أبيات عامرة منها قوله في الإخوان المثاليّين :

أُحبُّ من الإخوان كلَّ مُواتِ وكلَّ غَضيضِ الطرف عن عثراتي
يوافقُني في كل أمر أريده ويحفظني حيّاً وبعد مماتي
فمَن لي بهذا ليتَ أني أصبتُه فقاسمتُه مالي من الحسنات
تصفحتُ إخواني فكان أقلُّهم على كثرة الإخوان أهلُ ثقاتي

ومنها في النصح العام :

دعِ الأيامَ تفعلُ ما تشاء وطب نفساً بما حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلاً على الأهوال جلْداً وشيمتك السماحة والسخاء
ولا حزن يدوم ولا سرور ولا بؤس عليك ولا رَخاء
ورزقك ليس ينقصه التأني وليس يزيد في الرزق العَناء
إذا ما كنتَ ذا قلب قَنوع فأنت ومالِك الدنيا سواء

ومنها في الحث على السفر :

ما في المُقام لذي عقل وذي أدب من راحة فدعِ الأوطان واغترب
سافر تجد عِوَضاً عمن تفارقه وانصَبْ فان لذيذ العيش في النصَب
إني رأيت وقوفَ الماء يُفسده إن سار طاب وإن لم يسرِ لم يطب
والأُسْد لولا فراقُ الغاب ما افترست والسهمُ لولا فراق القوس لم يُصب
والتِّبْر كالتُّرب ملقىً في أماكنه والعُودُ في أرضه نوع من الحطب
فان تغرَّب هـذا عزَّ مطلبُه وإن تغرَّب ذاك اعتزَّ كالذهب

إن هذه القِطع من شعر الشافعي أشهر من أن تُعرَّف فهي تجري على كل لسان ، وذلك لسهولتها وسلامة منطقها ، فالناس يتمثلون بها في كل مناسبة ، وتلامذة المدارس يستظهرونها لأنها مما يُلَقَّنونه في محفوظاتهم ، ولذلك اقتصرنا عليها وإلا فان الأمر كما قال في الطبقات الكبرى : « ولا معنى للإكثار من ذكر شعر الشافعي رضي الله عنه وهو شيء قد طبَّق الأرض » .

ومن شعر أحمد بن المعدَّل السائر مسرى الأمثال :

ولستُ بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر
وإني لذو صبر على ما ينوبني وحسبك أن الله أثنى على الصبر

ومن شعر عبد الرحمن بن القاسم صاحب الإمام مالك . وقد شد الرحلة إلى لقاء الإمام بالمدينة من بلده مصر ، وهو كثير الإنشاد بين أهل العلم :

أقول وزَمَّتْ للرحيل ركائبي أعِدّي لفقدي ما استطعتِ من الصبر

أليس من الخسران أن لياليًا تَمرُّ بلا نفع وتُحسَب من عُمْري

ومقطعات العلماء في غرض الأدب والحكمة كثيرة ، بل إن منهم من لم يكن ينظم الشعر إلا في هذا الغرض ، كمنصور الفقيه وقد ترجمنا له وذكرنا نماذج من شعره ، ومحمود الوراق وهو ممن أكثر وأطاب في هذا الباب ، وكان من أهل العلم والرواية ، أخذ عنه ابن أبي الدنيا ، وتوفي في خلافة المعتصم ، ولإحسانه ، وشرف منزعه يكاد لا يخلو ديوان من دواوين الأدب من إنشاد مقطعاته الجميلة ، ونحن لموافقة المقصد نورد منها بعض العيون تقديرًا لعَمَلِه الأدبي الجليل وإشاعةً لِنُصحه الخالص المثيل .

فمن ذلك قوله في التحذير من التتابُع في الذنوب :

يا ناظرًا يرنو بعينيْ راقد ومشاهدًا للأمر غيرَ مشاهد

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي دَرك الجنان بها وفوْزَ العابد

ونسيتَ أن الله أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنب واحد

وقوله وهو من الأمثال السائرة :

تَعصِي الإلهَ وأنت تُظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقًا لأطعتَه إن المحب لمن يُحب مطيع

وقوله في مداراة الأصدقاء :

دارِ الصديق إذا استشاط تغضّبًا فالغيظ يُخرج كامنَ الأحقاد

ولربما كان التغضب باعثًا لمثالب الآباء والأجداد

وقوله في معنى كاد الفقر يكون كفرا :

لبستُ صروف الدهر كهلاً وناشئاً وجربتُ حالَيْه على العسر واليسر
فلم أرَ بعدَ الدين خيراً من الغنى ولم أرَ بعد الكُفر شراً من الفقر

وقوله في معنى إنما الأعمال بالخواتم :

أخاف على المحسن المتــــقي وأرجو لذي الهَفَوات المُسِي
فذلك خوفي على محسن فكيف على الظــــالم المتدي
على أنّ ذا الزيغ قد يستفيق ويستأنف الزيغَ قلبُ التقي

وقوله في الحض على الإنفاق :

تمتع بمالك قبـــــل الممات وإلاّ فلا مال إن أنت متا
شقيتَ به ثم خلفتـــــه لغيرك بُعداً وسُحقاً ومَقتا
فجادُوا عليك بزُور البكاء وجدتَ عليهم بما قد جمعتا
وأرهنتهم كل ما في يديك وخلّوْك رهناً بما قد كسبتا

وقوله في عدم عيب الفقر :

يا عائب الفقر أما تزدجرْ عيبُ الغنى أكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى لو صحّ منك النظر
أنك تعصى كي تنــال الغنى ولستَ تعصى الله كي تفتقر

وبعد هذه النبذة من شعر الشيخ محمود الوراق نتعرض للون آخر من شعر أصحابنا الفقهاء في المواعظ والنصائح ، وهو ما يوجهونه إلى أبنائهم خاصةً وإن كان مضمونه عاماً يصلح للجميع . إن هذا البحث يجب أن يأخذ بأطراف الموضوع وإن لم يستوعبْهُ كلّ الاستيعاب . فمن الضروري أن نلم بهذا النوع من الشعر الحِكمي ايضاً .

فما اخترناه منه قولُ يَمُوت بن المزَرّع النحوي الأديب الراوية المشهور ، ابن اخت أبي عثمان الجاحظ ، يوصي ولده المُهَلْهِل :

مهلهلُ قد شربتُ شطور دهري (١) وكالخني به الزمن العَنوتُ
وجاريت الرجال بكل ربْع فأذعن لي الحُثالة والرُّتوت (٢)
فأوجعُ ما أجُنّه عليه قلبي كريم عضه زمن بَغُوت
كفى حزناً بضيعة ذي قديم وأبناء الطريف لها التُّخوت
وقد أسهرت عيني بعد غمض مخافة أن تضيع إذا فنيت
وفي لطف المهيمن لي عزاء بمثالك إن فنيت وإن بقيت
وإن يشتدُّ عظمك بعد موتي فلا تقطعْك جائحة سَبُوت (٣)
تَجنَّبْ في الأرض وابغ بها علوماً ولا تلفتك عن هذا الدُّسوت
وإن بخل العلم عليك يوماً فذلّ له وديدنُك السكوت
وقل بالعلم كان أبي جواداً يقال فمن أبوك فقل يَموتُ
تُقرُّ لك الأباعد والأداني بعلم ليس يجحده البَهُوت

ومنه قول الشيخ أبي اسحق ابراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي ينصح ابنه أو ابن أخيه على ما قيل :

أبا بكر دعوتُك لو أجبتَا إلى ما فيه حظك إن عقلتا
إلى علم تكون به إماماً مطاعاً إن أمرت وإن نهيتا
ويجلو ما بعينك من غشاها ويهديك السبيل إذا ضللتا
ينالك نفعه ما دمت حياً ويبقى ذخره لك إذا (٤) ذهبتا
وتحمل منه في ناديك تاجاً ويكسوك الجميل إذا اعتريتا
هو العَضْبُ المهنّد ليس ينبو تصيب به المقاتل إذا (٥) ضربتا

(١) أي جربته وعرفته .
(٢) الرؤساء .
(٣) قاطعة .
(٤) و (٥) لعلها « أن » ليستقيم الوزن . (لجنة المجلة)

وكنز لا تخاف عليه لصاً خفيف الحمل يوجد حيث كنتا
يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص إن به كفاً شددتا

إلى أن يقول :

وإن أوتيتَ فيه طويلَ باع وقال الناس إنك قد سبقتا
فلا تأمنْ سؤال الله عنه بتوبيخ : عليمْتَ فهل عَمِلْتا ؟
فرأس المال تقوى الله منا وليس بأن يقال لقد رأستا
وأحسن ثوبك الإحسانُ لا أن ترى ثوبَ الإساءة قد لبستا
إذا ما لم يُفدك العلم خيراً فخير منه أن لو قد جهلتا
وإن ألقاك فهمك في مهاوٍ فليتَك ثم ليتك ما فهمتا

وهي قصيدة طويلة نجتزئ منها بهذا القدر ، وتلاحظ أنها مع وصية يموت ابن المزرع تعبر عن أُبوة حانية واهتمام شديد بمستقبل الولد الناشئ ، وحرص على حيازة جميع الخير له وجعل طلبه العلم هو أول ما يهتم به الناشئ ، ولعل ذلك مما تمتاز به عن نصائح الشعراء لأولادهم ، فان العلم في الإسلام من أهم الواجبات ، ولهذا يأخذ به المشائخ أولادهم ، وذلك إلى ما تُركِّز عليه النصحَ من تقوى الله والعمل بالعلم وعدم الافتتان بالدنيا ، وقد خلصت هذه الروح إلى عصرنا هذا فتأثر بها من قال شعراً في وصية ابنه من أهل العلم كالمرحوم عبد الله باشا فكري في أبياته المشهورة :

إذا نام غِرٌ في دجى الليل فاسهر وقُم للمعالي والعوالي وشمر

وأخيراً نومئ إلى مطوّلات أصحابنا الفقهاء الأدباء في الوصايا والحكم ، التي ضاهَوْا بها أحسن مطولات الشعراء وفاقوها بما مزجوا به نصائحهم من مبادئ التربية العالية التي تحرص على تهذيب النفوس وإحياء الضمائر وفتح القلوب الغُلْف لما جاء به الإسلام من خير وبِرّ وإحسان .

وفي طليعة هذه المطولات نونية أبي الفتح البُستي الرائعة التي لا كفاء لها في الحسن والجمال ، فقد جمعت إلى النصائح الغالية والآداب الرفيعة متانة الأسلوب والتفنن في الأداء مما يجعلها فريدة في بابها . وكان البستي من مشائخ العلم والرواية فضلاً عن رسوخ قدمه في الأدب ، سمع الكثير من ابن حبّان وروى عنه الحاكم وغيره ، وكان صديقاً لأبي سليمان الخطابي الذي سبقت ترجمته .

ونحن لا نروي مطولة أبي الفتح كلها لاشتهارها وعدم خلُو أيّ ديوان أدبي منها ، ولكنا نحب أن نضع اصبع القارئ على أبيات منها تثبت ما قلناه صدرَ هذا البحث فيما يمتاز به شعر الفقهاء الحكمي من كونه يحوي زبدة الآداب والأخلاق التي أتى بها الشرع وحسّنها العقل ، وإن كان جميع ما قدمناه من كلامهم يدور في هذا الفلك . فمنها المطلع الذي يقول فيه :

زيادةُ المرء في دنياه نقصان ... وربحه غيرَ محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لا ثبات له ... فان معناه في التحقيق فقدان

إن التزهيد في الدنيا من مقاصد الدين ، أيّ دين كان ، ولكن عَرْضه في شكل عملية حسابية كهذه الصورة التي قدمها لنا البستي في مطلع مطولته هو من نتائج الفكر الفلسفي ، وبذلك يكون مزج بين التعاليم الشرعية والوضعية ليخرج هذا المطلع البارع .

ويتمادى صاحبنا في مزج الحكم الفلسفية بالنصائح الدينية فيقول :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... وتطلب الربح فيما هو (١) خسران
أقبِلْ على النفس فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ويأتي بعد ذلك بجملة من الأبيات تتضمن حكماً عمليــــة في السلوك

(١) لعلها : فيه . (لجنة المجلة)

والأخلاق يتمثلها بقوله من يفعل كذا يلق كذا فتذكرنا أبياته هذه بنظيرتها في معلقة زهير الذي حكم له عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنه أشعر الناس لتلك الأبيات التي يقول فيها ومن ومن . وكُنا حريّين أن نعقد مقارنة بين أبيات زهير وأبيات صاحبنا لولا مراعاة الأدب اللازم لمقام الخليفـــة الثاني وحُكمه .

ثم يقول البُستي جامعاً بين قولهم (رأس الحكمة مخافة الله) والآية الكريمة : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ في بيت واحد محكم البناء حسن التصوير :

هما رضيعا لِبانٍ حكمةٌ وتُقى   وساكنا وطنٍ مالٌ وطغيانُ

ويُلمّح إلى الوصية التقليدية وهي العلم والعمل فيقول في إيحاء جميل :

يا أيهـا العالم المرضيُّ سيرتُه   أبْشِرْ فأنتَ بغير الماء ريّانُ

ويا أخا الجهل لو أمسيت في لجج   فأنت ما بينها لا شك ظمآن

ويختم بهذا البيت الفذّ الجامع :

وكلُّ كسْرٍ فان الدين يجبُره   وما لِكَسرِ قناة الدين جُبْرانُ

وهناك مطولة ثانية سارت كل مسار واشتهرت أي اشتهار ، وهي لأحد أدباء الفقهاء أيضاً نعني به القاضي عمر بن الوردي ، وتعرف بلامية ابن الوردي أو بأول كلمة منها وهي (اعتزل) لأنها تبدأ هكذا :

اعتزل ذكر الأغاني والغزَل   وقُلِ الفَصْلَ وجانب مَن هزل

ويغلب على هذه المطوّلة طابَعُ الحكمة العربية المُطعَّمة بتعاليم الدين ، فهي بعد هذا المطلع الذي يبين عن نظرة فقهية إلى الغناء وما يليه ، تؤكد على الإعراض عن حياة اللهو والمجون وتحذر من الاستهتار في الهوى والتصابي ، وإن كان قد لوحظ على ابن الوردي أنه في بعض أبيات هذا القسم يُعَدُّ مُغريًا ببعض ما حذّر منـــه أكثر منه مُحذّراً . ثم تنهج المطولة نهج

الحكمة العربية في الاعتبار بالماضين وإتيان الموت على الأولين والآخرين :

كَتَبَ الموتَ على الخلق فكم ... فلَّ من جيش وأفنى من دول
أين نمرودُ وكنعانُ ومن ... ملك الأرض وولّى وعزل

وتُعرّج بعد ذلك على الوصية بطلب العلم والتفنن فيه ، والاشتغال بالأدب وعدم ابتذاله وتقول :

أنا لا أختار تقبيل يد ... قطعُها أجمل من تلك القُبَل
مُلك كِسرى عنه تغني كِسْرة ... وعن البحر اجتزاء بالوَشَل

ثم تنبه على سخافة الافتخار بالأصل والفصل في هذه الأبيات المعبّرة :

لا تقل أصلي وفصلي أبداً ... إنما أصل الفتى ما قد حصل
قد يسود المرء من غير أب ... وبحسن السبك قد يُنفى الزغل
قيمةُ الإنسان ما يحسنه ... أكثرَ الإنسان منه أو أقل

ثم تشير إلى مسؤولية الحكم وتُنفّر منه بهذين البيتين السائرين :

لا تلِ الحكم وإن هم سألوا ... رغبةً فيك وخالف من عذل
إن نصف الناس أعداء لمن ... ولي الأحكام هذا إن عدل

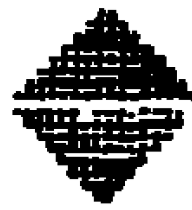
وبعد وصايا أخرى عامة يختم ابن الوردي مطولته بهذه الأبيات متحدثاً عن شخصه :

أيها العائب قولي عبثاً ... إن طيبَ الورد مُودٍ بالجُعَل
عدِّ عن أسهم لفظي واشتمل ... لا يُصيبنَّك سهم من ثُعَل
لا يغرنّك لين من فتى ... إن للحيات ليناً يُعتزل
أنا كالخيزُور صعب كسره ... وهو لَدْن كيفما شئت انفتل
غيرَ أني في زمان مَن يكُن ... فيه ذا مال هو المولى الأجل
واجبٌ عند الورى إكرامُه ... وقليلُ المال فيهم يُستقَل
كلُّ أهل العصر غُمْر وأنا ... منهم فاترك تفاصيل الجمل

وهذا حكم خطير واعتراف أخطر منه . ونشير إلى أن لامية ابن الوردي بالخصوص تعطي صورة غير مرضية عن عصره ومجتمعه ، وبما أن هذا الجانب لا يهمنا فإننا لم نتعرض له .

وبجمل القول فان ما أوردناه في هـــذا الباب من شعر الفخر وشعر الآداب والأخلاق ، كله مما يشهد لأصحابنا الفقهاء بقوة العارضة في الأدب ، ورسوخ الملكة في الشعر ، ويجعلهم يقفون في صف كبار الأدباء والشعراء من غير طبقتهم ولا يترك مجالاً لانتقادٍ يميز كلامهم من كلام عامة أهل الأدب وقالة الشعر إلا انتقاداً مغرضاً لا نصفةَ فيه .

عبد الله كنون



نظرات في المعجم الوسيط

-١٥-

عاشراً : تعريف الملل والنحل والمذاهب المختلفة (*)

الكلمة	تعريفها في المعجم الوسيط	الملاحظـــات
المِلَّة	الشريعة أو الدين ، كملَّة الإسلام والنصرانيـة ؛ وهي اسمٌ لما شرعَ الله لعباده بوساطـة أنبيائه ليتوصلوا به إلى السعادة في الدنيا والآخـرة . و ـــ الدِّية . (ج) مِلَلٌ .	هذه التعريفات وردت في المعجم الوسيط ، وهي إلى جانب عدم تنسيقها كوحدة تستعمل في موضوع واحد ، ترد عليها ملاحظات عديدة أهمهـا : ١ ـــ المِلَّة في العربية : السُّنة والطَّريقة ، ومن المجاز المِلَّة : الطريق المسلوكة ، ومنه : مِلَّة إبراهيم عليه السلام خير الملل ، ومن ذلك كلّه : المِلَّة : الشريعة أو الدين ، وصاحب

(*) ليس المقصود من نظراتنا في هذه النبذة ، نقد التعريفات الواردة في المعجم الوسيط فحسب ، بل المقصود جمع ما وقع نظرنا عليه من تعريفات متعلقة بموضوع واحد ليتمكن الناقد من ملاحظة الاختلاف في تعريف الكلمات المتماثلة ، من حيث الصياغة ، أو من حيث انتقاء ألفاظ كل تعريف منها ، وذلك بسبب النقل عن معجمات مختلفة ، أو بسبب تعدد واضعي التعريفات ، ولملاحظة النقص الواجب تلافيه ، أو الزيادة الممكن الاستغناء عنها في الطبعة القادمة ، ومن كان صنع المعاجم في العصر الحديث ، بعد التخطيط لها بحسب نوعها والغاية منها ، تعاون عدد من العلماء المختصين كل حسب اختصاصه ، في وضع التعريفات المختلفة ، ثم انفراد الواحد منهم في الإشراف على تنسيق التعريفات المتعلقة بالموضوع الواحد ، ليكون العمل دقيقاً متكاملاً ومنسجما بعضه مع البعض الآخر .

القاموس يشير إلى ترادف الكلمات الثـــلاث ، أما الراغب فقال : المِلّة : اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه ليتوصلوا به إلى جواره ، والفرق بينها وبين الدّين ، أن المِلّة لا تضاف إلا للنبي الذي تستند إليه ولا تكاد توجد مضافة إلى الله تعالى ولا إلى آحاد الأمة ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها .

من هذا نجد أن المعجم الوسيط أغفل بعض معاني الكلمة الأصلية ونقل شرحاً يمكن الاستغناء عنه . ولقد كان من المستحسن أن يكون التعريف كما يلي :

المِلَّة : السّنة والطريقة أو الطريق المسلوكة .
و ـــ الشّريعة أو الدّين . و ـــ الدّية .
(ج) مِلَلٌ .

٢ ـــ النِّحْلَةُ في الأمهات : الدَّعْوى ، والدّيانة ويقال ما نحلتك أي ما دينك ؟ والنِّحلة : المذهب ، يقال ـ كما في المعجم الوسيط ـ انْتَحَل مذهبَ كذا : أي انتسب إليه ودان به .

النِّحْلَة .. الدّينُ والعقيدة ؛ يقال : ما نِحْلَتُك ؟

لقد أغفل المعجم الوسيط بعض معاني هذه الكلمة ، وكان من المستحسن أن يكون تعريفها كما يلي :

النِّحْلَة ... الدَّعْوَى و ـــ الدِّينُ والعقيدة والمذهب .

الدِّين ما يتديَّن به الإنسان . و — اسم لجميع ما يُعبد به الله . و — المِلَّة . و — الإسلام
. . . . . .

٣ — كلمة (دين) في العربية ذات معانٍ كثيرة وكلّها — كما يقول ابن فارس — ترجع إلى جنس من الانقياد والذلّ ، وقد فات المعجم الوسيط إثبات بعضها ، رغم أنه أشار إلى أكثرها ، إنْ في تعريف الكلمة أو في تعريف كلمة (دينة) أو عند الكلام على فعل (دان) ، ومن ذلك المعاني التالية ،

الدِّين . . . الغَلَبة . و — القَهْر . و —
الإكراه . و — الدّاء . و — الذّلّ .
و — الجزاء . و — العبادة . و —
الطاعة . و — الاستعلاء . و —
المواظب من الأمطار أو اللين منها .

الشَّرْعُ الطريقُ . و — ماشرعه الله تعالى ....

الشَّريعة ما شرَعه الله لعباده من العقائد والأحكام . .

٤ — نقل المعجم الوسيط تعريف الشَّرْع والشَّريعة عن المعجمات القديمة ، وكان من المستحسن أن يضاف إلى التعريف المعنى الذي آلت الكلمات إليه ، فيصبح تعريفها كما يلي :

الشَّرْعُ : الشَّريعة . و — الطريقُ . . .
الشَّريعةُ : ما شرَعه الله لعباده ، و —
مجموعة القواعد والأحكام الملزمة .
و — علم على الشَّريعة الإسلامية...

المَذْهَبُ الطريقة . و ـــ المعتقد الذي يُذْهَبُ إليه . و ـــ (عند الفلاسفة) : مجموعة من الآراء والنظريات العلمية والفلسفية ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً يجعلها وحدة منسقة . (مج) .

٥ ـــ أحسن المعجم الوسيط باثبات تعريف حديث لكلمة (مذهب) ، غير أن التعريف المذكور لا يرد عند الفلاسفة فحسب ، فالمذاهب معروفة في العلوم والفنون على اختلافها ، لذا فمن الدّقة لو أبدل المعجم بقوله : (عند الفلاسفة) القول : (عند العلماء) أو (في العصر الحديث) .

الطَّرِيقَةُ الطَّريق . و ـــ السِّيرَةُ . و ـــ المذهب ...

٦ ـــ في تعريف كلمة (الطَّريق) أثبت المعجم الوسيط المعنى التالي : مسلك الطائفة من المتصوّفة ، وكان من المستحسن أن يثبت في تعريف كلمة (الطَّريقة) أنها : و ـــ إحدى الطرق الصّوفيّة .

الفِرْقَةُ الطائفة من النـاس ؛ يقال : فِرْقَةُ التمثيل ، وفِرْقة الألعاب ، وفرقة المطافئ ...

٧ ـــ تعريف كلمة (الفرقة) تنقصه الدّقة . وكان من المستحسن أن يكون كما يلي :

الفِرْقَةُ : الطائفة من الناس تدين برأي أو مذهب واحد . و ـــ مجموعة من الأفراد يشتركون أو يقومون بعمل واحد ؛ يقال : فِرْقَةُ التمثيل الخ ..

الطَّائِفَةُ الجماعةُ والفِرْقَةُ ... و ـــ جماعةٌ من الناس يجمعهم مذهبٌ أو رأيٌ يمتازون به ...

المَدْرَسَةُ ... و ـــ المَذْهَبُ (مو) . يقال : هو من مدرسة فلان : على رأيه وَمَذْهَبِهِ .	٨ ـ لقد كان من المستحسن أن يضاف إلى معنى كلمة (مدرسة) المُولّد ، المذكور في المعجم الوسيط ، المعنيان التاليان : و ـــ الطريقة . و ـــ السلوك .

الإسلامُ «في الشرع» : إظهار الخضوع والقبول لما أتى به محمد ﷺ .	الأديان السماوية ثلاثة : الإسلام والنصرانية واليهودية ، وجاء التعريف بهذه الأديان واتباعها في المعجم الوسيط متفاوتاً غير منسق ، فتعريف (الإسلام) جاء كما يعرّف في «الشرع» دون أي ذكر لكلمة (مسلم) ، بينما عرفت (النصرانية) بأنها دين المسيح عليه السلام ، و (اليهودية) بأنها ملة اليهود .
النَّصْرانيَّة دين المسيح عليه السلام .	لقد كان من المستحسن أن ترد التعريفات المتعلقة بالأديان الثلاثة ، في مثل المعجم الوسيط ، متماثلة ، كأن تكون كما يلي :
النَّصْرَانيُّ من تعبّـــد بدين النّصرانية . .	المُسْلِمُ : واحدُ المسلمين .
المَسيحُ عيسى بنُ مريم عليه السلام .	الإسْلامُ : دين أتباع محمد ﷺ .
المَسيحيُّ المنسوب إلى دين المسيح عليه السلام .	
الهُودُ اليهودُ .	

اليهودُ بنو إسرائيل . قيل إنّهم سُمّوا كذلك باسم يهوذا أحد أبناء يعقوب .	النَّصْرانيُّ : واحدُ النصارى .
	النَّصْرانيَّةُ : دين أتباع المسيح عليه السلام .
اليهوديُّ واحد اليهود . و — المنسوب إلى اليهود ..	اليهوديُّ : واحد اليهود .
اليهوديَّة ملّة اليهود .	اليهوديَّة : دين أتباع موسى عليه السلام .
اليَهُوذِيُّ اليهوديُّ	

الحَنَفيُّ تابع مذهب أبي حنيفة ، وهم الحنفيـة . (ج) أحنـافٌ .	المذاهب المتمدة عند أهـــل السُّنَّة من المسلمين أربعـة هي : مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، ومذهب الإمام مالك بن أنس ،
تحنَّف انتسب إلى مذهب « أبي حنيفة » .	ومذهب الإمام محمـــد بن إدريس الشافعي ، ومذهب الإمام أحمد بن حنبل ؛ ومن التدقيق
الحَنْبَليُّ من يقلّد مذهب الإمام أحمد بن حنبل . (ج) حنابلة . و — المتشدّد في رأيه وسلوكه . (محدثة) .	في تعريفات المعجم الوسيط نلاحظ الأمور التالية : أولاً : لم يرد أي ذكر لمذهب الإمام مالك بن أنس في مواد المعجم ، بينما وردت الإشارة إلى مذهب الإمام الشافعي في كلمة (تشفّع) فقط ، أما مذهبا الإمامين
تحَنْبَلَ قلّدَ الإمامَ ابن حنبل في مذهبه . ويقال :	أبي حنيفة وأحمدَ بن حنبـــل فقد ذُكرا مرتين !

تحنبل فلانٌ : تشدَّد في رأيه وسلوكه (محدثة) .

تَشَفَّعَ تمذهب في الفقه بمذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي .

السُّنَّةُ .. وأهل السُّنَّة : هم القائلون بخلافة الشيخين عن استحقـــاق ، وهما أبو بكر وعمر ؛ ويقابلهم الشيعة .

ثانيــاً : فقد الإمام الأعظم أبو حنيفة « إماميته » في المعجم ، بينما احتفظ بها الإمامان الآخران !

ثالثــاً : استعملت في التعريفات المذكورة ألفاظ مختلفة لمعانٍ واحدة بدون أيِّ موجب ، فالتحنّف انتساب ، والتّحنبل تقليد ، والتشفع تمذهب !

رابعاً : لقد عُرِف الإمام أحمد بن حنبل بشدته في التمسك بالنصــوص ، والتمسك بالنصوص مزية في الشرع ، واستعار (العامة) كلمة « الحنبلة » لوصف التشدد في الرأي والسلوك ، ويغلب أن يكون التشدد بالرأي الشخصي عيباً من أهم العيوب ، ومع هذه المفارقة كان من المستحسن ، وقد أثبت المعجم الوسيط المعنى المستعار ، أن يشير إلى مزية الإمام أحمد بن حنبل تنزيهاً له عن العيب المستفاد من الفعــــل المشتق من اسمه .

(يتبع)

عدنان الخطيب



أبو يعقوب الخُرَيمي

- ٢ -

(٦)

أما عن شعره فقد عد من رواته الجاحظ وأحمد بن عبيد بن ناصح ، وذكر ابن النديم للخريمي ديواناً في مئتي ورقة (١) . وقال ابن عساكر : « له ديوان معروف » (٢) ويبدو أنه كان معروفاً لدى الخاصة ، ولم يكتب له ذيوع وانتشار ، ولم تتعدد نسخه ، لأننا لا نعلم عنه شيئاً غير هاتين الكلمتين ، ولا بد من أنه اختفى مبكراً كما اختفى ذكر الشاعر والحديث عنه ولم يكن له حظ من الشهرة (٣) .

لهذا ، كان على الباحث الحديث أن يجمع ما بقي للخريمي من شعر متناثر هنا وهناك في بطون عشرات الكتب ، وقد تتوفر ، كما رأينا ، « كمية » لا بأس بها . وإنا إن كنا نأسى على أن لم يكن للخريمي مكان لدى الأصبهاني ، فقد رد علينا بعض العوض الطبري في روايته للرائية كاملة ، ثم الحصري في بائية ولامية ، ثم ابن عساكر وفضله جليل .

---

(١) ابن النديم ١٦٤ ــ وهو بهذا يعدل ديوان مسلم بن الوليد .

(٢) ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ ــ ولا تدل جملة الأشعار التي أوردها له أنه يستقي من الديوان .

(٣) ينظر ابن رشيق ١ :

ولئن اختلفت بعض الروايات في نقل الشعر ، فان ذلك قليل ، وإن جملة ما وصل إلينا موثوق النسب إلى صاحبه ؛ ولم يُختلف إلا في قصيدتين : الأولى يمكن أن تكون له فقد ذكر ابن المعتز وهو يتكلم على الخريمي أنه « هو القائل يفتخر :

ثِقي بجميل الصبر مني على الدهر ... ولا تثقي بالصبر مني على الهجرِ
أصاب فؤادي بعد خمسين حِجّةً ... عيون الظباء العفر في البلد القفر

ثم ذكر ثمانية أبيات وقال : « وقد روى قوم هذه القصيدة لأبي سعد قوصرة ، وليست بشيء وإنما هي للخريمي »[1] .

أما الثانية ، وعدتها سبعة أبيات ، ومنها :

وناديتُ من مروٍ وبلخٍ فوارساً ... لهم حَسَبٌ في الأكرمين حسيبُ

* * *

وإن أبي ساسانُ كسرى بن هُرمُزٍ ... وخاقان لي ـ لو تعلمين ـ نسيب

فان النقد الداخلي والخارجي ينفي كونها للخريمي ويدل على تسرع في نسبتها إليه ، وتحميله بذلك من الشعوبية ما يسهل أن يُستنبط منها ، لأنها لم ترد في مصدر قديم أو شبه قديم وإنما رواها ، أو روى بعضها ، أناس متأخرون جدًّا ، أقصد إلى أنهم من معاصرينا أمثال أحمد أمين وأحمد الشايب ومحمد نبيه حجاب وأحمد محمد الحوفي[2] ؛ ومنهم من لم يرجعها إلى مصدر ،

(١) ابن المعتز ٢٩٣ ـ ٢٩٤ . وقد يضعف من نسبتها الى الخريمي انها لا تدل على مجموع نفسه ، وإن داعي فخره ودفاعه « عن لؤي بن غالب » ضعيف . وأبو سعد قوصرة هو عيسى بن خالد الذي ادّعى انه من بني مخزوم ينظر عنه ابن المعتز ٢٩٥ وما ملق به محقق كتابه ٤٩٨ ، ٥١٧ . وقد ذكر ٤٩٨ أن نسبة القصيدة تتوزعت بين المنذل بن غيلان وأبي سعد وأعرابي من طيء .

(٢) أحمد أمين ١ : ٦٦ ، الشايب ٢٣٣ ، حجاب ٣٠٦ ، الحوفي ٤٠١ .

ومنهم من أرجعها إلى « الشعر والشعراء » لابن قتيبة [١] ، ولكنك إذا عدت إلى هذا الكتاب لم تر أبياتاً للخريمي من هذا النوع ولم تجدها لأي شاعر آخر . ثم إن الأبيات تدل على أن ناظمها « فارسي » يفخر بكسرى . وما كان الخريمي (الصغدي التركي) كذلك .

وليست القصيدة ، بعد ذلك ، بذات بال فنياً ، ولا تدل على النَّفس الذي عوّدنا إياه الشاعر « المفترى عليه » فأين هي مثلاً من لاميته التي قال فيها : « أبِالصُّغْدِ بأسٌ إذْ تُعَيِّرُني جُمْلُ » .



إذا نظرنا في هذا الذي اجتمع لدينا من شعر الخريمي وأخباره رأينا أن الشاعر لم يكن مقلاً وأنه خاض فيما خاض فيه معاصروه من قضايا وقال فيما قالوا فيه من أغراض ؛ وأنه قد تميز ، أكثر ما تميز ، بالمدح .

وكان المدح الوسيلة التي يكسب بها قوته بل يكسب بها ما زاد على القوت من مال وجاه ، وانه بعد أن مرّ بدور غير قصير من التجربة والخطأ ، وقصد بدافع الحاجة مَنْ لا يستحق القصد فدعاه ذلك إلى شكوى الزمان ، بلغ عثمان الخريمي فاستنّ له طريقاً في المدح قائمة على الاقتصار على الكرام نفساً ويَداً ، وعلى التقرب منهم حتى يصبح رفيقاً أنيساً عندهم . وصديقاً أثيراً لديهم ، وهم يحققون له رغبته دون أن يبذل ماء وجهه .

---

(١) حباب ، الحوفي .
وألمح بروكلمان ٢ : ١٩ ، برون ١ : ٢٦٨ إلى هذه القصيدة (البائية) منسوبة إلى الخريمي . ومن يدري فقد يكون الأصل في الخطأ يرجع إلى كولدزيهر ، فهو من أقدم من بحث في الشعوبية وذكر الخريمي في كلامه بكتابه « دراسات إسلامية » المطبوع في Halle بمجلدين عام ١٨٨٩ - ١٨٩٠ (وإليه أشار برون عندما أطلق حكمه ، ومثله بروكلمان) .

وكان يزجي المدح إليهم في مناسبات شتى فيجوِّد ويعجب وتسير أبياته لما تحتوي صياغتها العالية من معان طريفة مبتكرة حيناً ، ومولّدة أحياناً ، وهي سائرة ، في كل حين ، على النهج العربي المألوف للشعر المختار فتكون بذلك استمراراً للتراث وجزءاً منه . ولا بد من أن كبار الشعراء كانوا يعجبون بها وقد يتأثرون ولا نقول يسرقون .

وإذ يقول الخريمي :

شَفَعَتْ مكارِمُه لهم فكفَتْهُمُ ... جُهْدَ السُّؤال ولطفَ قول المادح

يقول أبو تمام :

طوى شِيَماً كانت تروح وتغتدي ... وسائلَ من أعيَتْ عليه وسائلُهْ

ويقول المتنبي :

إذا عرضتْ حاجٌ إليه فنفسُهُ ... إلى نفسه فيها شفيعٌ مشفّعُ(١)

وإذ يقول الخريمي :

زاد معروفَك عندي عِظماً ... أنه عندك مستور حقير
تتناساه كأنْ لم تأتِه ... وهو عند الناس مشهور خطير

يقول المتنبي :

تظنُّ من فقدك اعتدادَهم ... أنّهُمُ أنعموا وما علموا (٢)

وإذ يقول الخريمي :

كأنَّ عليه الشُّكرَ في كلِّ نعمةٍ ... يقلّدُنيها بادياً ويُعيدها

(١) القاضي الجرجاني ٣٢١ ، التبيان ٢ : ٢٤٣ .

(٢) القاضي الجرجاني ٣٠٤ ، التبيان ٤ : ٦٠ . وينظر القاضي الجرجاني ٣١١ ، ٣١٢ ؛ التبيان ٣ : ١٨٧ .

يقول المتنبي :

من القاسمين الشكر بيني وبينهم لأنهمُ يُسدى إليهم بأن يُسدوا (١)

ويتصل بمدح الخريمي ذكره الممدوح بعد مر الزمان كما فعل في لامية أثنى بها على عثمان الخريمي وهو يعاتب الوليد بن أبان :

.. جزى الله عثمان الخريميَّ خيرَ ما جزى صاحباً جزلَ المواهبِ مُفضِلا

كفى جَفْوَةَ الإخوانِ طولَ حياتهِ وأورثَ مما كان أعطى وخوَّلا (٢)

ويتصل به التشوق إلى الممدوح إذ يبعد عنه كما فعل في بائيته التي بعث بها إلى الحسن بن التختاخ في مصر (٣) .

ثم إنه يرثي ممدوحيه بشعر حسن فيه أسف ولوعة وفيه ذكر حسن وإطراء . فإذ يموت هؤلاء الذين يألفهم ويتقرب في مجلسهم وينال عطاءهم يؤلمه الفقد ويحزنه ويبعثه على الوفاء . وقد رثى كثيراً على النهج الذي سار فيه لدى المديح وعلى مألوف العرب في اللفظ والمعنى ، وإذا خرج عنه في الاستعارة فانه لا يخرج إلاّ قليلاً قليلاً بحيث لا يحسن ؛ وقد سارت له في الرثاء أبيات وقصائد . ولنا أن نستعيد العينية الثانية التي قالها في خريم ابن أبي الهيذام لنرى تمكنه لغةً ونصاعةً ومعنىً وعاطفةً وصورةً ؛ إنها أبيات لا تصدر إلاّ عن شاعر كبير وقد أعجبت الشعراء والنقاد والباحثين على مر العصور .

(١) القاضي الجرجاني ٣٧١ ، التبيان ٢ : ٢٠٧ ، وينظر التبيان ٢ : ٢٨٧ .

(٢) روى القصيدة الحصري ٢ : ١٠٧٠ ـ ١٠٧١ ، وذكر ابن قتيبة البيتين ٢ : ٧٣١ قائلاً : « ولعثمان يقول أبو يعقوب » والصحيح أن يكون « وفي عثمان يقول أبو يعقوب » لأنه لم يوجه كلامه إلى عثمان .

(٣) رواها الحصري ٢ : ١٠٧٢ ـ ١٠٧٣ .

« قال أحمد بن عبيد .. مات حُميد الطوسي فرثاه علي بن جَبَلة ، فلقيته فقلت له : أنشدني مرثيتك حُميداً ، فأنشدني :

نعاء حميداً للسرايا إذا غدَتْ تذادُ بأطراف الرماح وتوزع

حتى إذا أتى على آخرها .. قلت له : ما ذهب على النحو الذي نحوته يا أبا الحسن ، وقد قاربتَه وما بلغته . فقال : وما هو ؟ فقلت : أردت قول الخريمي في مرثيته أبا الهيذام [كذا] :

وأعددتُه ذُخراً لكلِّ مُلمةٍ وسهْمُ المنـــايا بالذّخائر مولع

فقال : صدقتَ والله ، أما والله لقد نحوتُه وأنا لا أطمع في اللحاق به ، لا والله ولا امرؤ القيس لو طلبه وأراده ما كان يطمع أن يقاربه في هذه القصيدة »(١) .

« وذكر أحمد بن عبيد بن ناصح أنه قال لأبي تمام ، وكان يجيء المسجد الجامع ينشد أشعاره ... أخبرْني عن قولك :

كأنّ بني نبهـــان يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدر

أردتَ أن تصف حُسن حالهم بعـــده أو سوء حالهم ؟ قال : لا والله ، سوءَ حالهم ، لأن قمرهم قد ذهب . فقلت : والله ما تكون الكواكب أحسن

(١) الأصبهاني ١٨ : ١١٣ ـ ١١٤ . وقد جاء في الرواية : « .. حتى إذا أتى على آخرها فقلت له » والمناسب أن يقول « حتى إذا أتى على آخرها قلت » أو « .. حتى أتى على آخرها فقلت » . وورد كذلك : « في مرثيته أبا الهيذام » ولعل المناسب أن يقول « في مرثيته ابن أبي الهيذام » .

وعلي بن جبلة هو الشاعر المعروف بالعكوك مدح أبا دلف وحميد الطوسي ... توفي سنة ٢١٣ .. ينظر عنه ابن قتيبة ٢ : ٧٤٢ ـ ٧٤٦ ، ابن المعتز ١٧١ ـ ١٩٣ ، ٥١٣ ـ ٥١٦ ، .... زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ط ٢ ، ٢ : ٩٩ ـ ١٠٠ .

حالاً إلا إذا لم يكن معها قمر ، ألا قلت كما قال أبو يعقوب إسحاق بن حسان الخريمي :

بقية أقمار من الغُرِّ لو خبت | لظلّت معدٌّ في الدُّجى تتسكّعُ
إذا قمرٌ منهم تغوَّر أو خبا | بدا قمر من جانب الأفق يلمع

قال : فوجم وسكت »[1] .

وكان « محمد بن يزيد يقول : لو سُئلتُ عن أحسن أبيات تعرف في المراثي لم أختر على أبيات الخريمي :

ألم ترني أبني على الليث بيتَهُ | وأحثو عليه الترب لا أتخشّعُ
وأعددته ذخراً لكلِّ مُليمّةٍ | وسهم المنايا بالذَّخائر مولـع
وإني ، وإن أظهرت مني جلادة | وصانعتُ أعدائي ، عليه لموجع
ولو شئتُ أن أبكي دماً لبكيتُهُ | عليه ، ولكنْ ساحةُ الصبر أوسع»[2]

ولا بد من أن يكون المتنبي قد وقف على هذه السينية وأعجب بها وتأثر فألم أو أخذ[3] .

هذه السينية من روائع الشعر العربي ، وهي تشهد بأن الخريمي من شعراء الرثاء المجيدين . ولكن معاصري الشاعر لاحظوا تفوق مديحه على رثائه فاستغربوا وسألوه في أكثر من مناسبة ، وكان يجيب جواباً يكاد يكون

---

(١) المرزباني ــ الموشح ٣٠٦ ــ ٣٠٧ : « قال أحمد بن محمد الحلواني ، ذكر أحمد ابن عبيد .... » وينظر المرزباني ــ الموشح ٣٢٣ : « أخبرني الصولي قال ، عاب قوم على أبي تمام قوله : .. » وينظر القاضي الجرجاني ٢٠٣ .

(٢) العسكري ــ ديوان ٢ : ١٧٥ « وأخبرنا أبو أحمد قال سمعت محمد بن يحيى » . واسم المبرد محمد بن يزيد ــ وهو من المكبرين لشعر الخريمي .

(٣) ينظر القاضي الجرجاني ٢٠٤ ، ٣٢٠ ، ٣٣٦ ، التبيان ٣ : ٢٠ ، ٣ : ٣٣٣ .

واحداً : «كنا يومئذ نعمل على الرجاء ونحن اليوم نعمل على الوفاء وبينهما بون بعيد»(١) .

★ ★ ★

ونظم الخريمي في أغراض أخرى ، وإذا لم يكن فيها ذا مكانة خاصة فإن له في بعضها ما تحسن الإشارة إليه ، ففي الفخـــر إذ دافع عن نسبه وامتدح شعره تحدث عن حسن الضيافة ببيتين سارا مثلاً وكأنهما انموذج الفخر للكرم العربي وقد أثبتها أبو تمام على رأس الباب من كتاب «الوحشيات» وتناقلها الناس من بعده وتداولتها الكتب ، وهما :

أضاحكُ ضيفي قبل إنزال رحلِهِ ... ويُخصبُ عندي والمحلُّ جديبُ
وما الخصبُ للأضياف أن يكثُرَ القِرى ... ولكنَّما وجه الكريم خصيبُ(٢)

وفي الحكمة ورد له البيت والبيتان ، وحاول أن يظهر بمظهر الحكيم الذي يضع آراءه العامة في قالب مخصوص ، ولكنه لم يعدُ المعاني المألوفة في الشعر العربي فأخرجها المخرج المألوف دون تميُّز وإبداع ، وإذ قيل إن المتنبي تأثر بهذا القول أو ذاك ، وقيل انه إذ قال :

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله ... فماذا الذي يغني كرام المناصب

فقد قال الخريمي قبله :

إذا أنتَ لم تحمِ القديم بحادثٍ ... من المجد لم ينفعْكَ ما كان من قبل(٣)

---

(١) ينظر ابن قتيبه ١ : ٢٣ – ٢٤ ، ٢ : ٧٣٢ ؛ ابن المعتز ٢٩٣ ، ابن الجراح ١٠٣ ، ابن عبد ربه ٥ : ٣٢٧ ، الجهشياري ٢٦٨ . . . وينظر الأصبهاني ١٨ : ١٧٠ . ورأي البحتري يخالف رأي الخريمي ، فقد كانت مراثيه في أبي سعيد محمد الثغري ولده «أجود من مدائحه وروي أنه قيل له في ذلك فقال من تمام الوفاء أن تفضل المراثي المدائح» ــ الأصبهاني ١٨ : ١٧٠ .

(٢) أبو تمام ٢٧٣ ، ٣٢٥ ، الجاحظ ــ البيان ١ : ١١ ؛ ابن قتيبة ٢ : ٧٣٤ ؛ عيون ٣ : ٢٣٩ ، العباسي ١ : ٢٥٤ .

(٣) القاضي الجرجاني ٢٧٠ ــ ٢٧١ ، التبيان ٢ : ١٥٥ ؛ وينظر القاضي الجرجاني ٣١١ والتبيان ٣ : ١٨٧ . وينظر لأمثلة أخرى من الحكمة ابن قتيبـــة ٢ : ٧٣٤ ، ٧٣٥ .

فقد يدل هذا على مكانة ما للخريمي ، وقد يدل على أهمية وذكر اتصل بالمتنبي وشرح شعره وبالوساطة بينه وبين خصومه ، ولكن المعاني شائعة ذائعة سبقت الخريمي ولحقت المتنبي .

وخير من هذه المعاني في رفع مكانة الخريمي ومنحه صفة من صفات التفرد بين شعراء العربية أبيات له ذات دلالة اجتماعية ونفسية وعقلية ، هي :

ما أحسنَ الغيرةَ في حينها   وأقبحَ الغيرةَ في كل حينْ
من لم يزلْ متّهماً عِرْسَهُ   مُناصِباً فيها لريب الظّنون
أوشك أن يغريَها بالذي   يخافُ أن يُبرزَها للعُيون
حسبُكَ من تحصينها وضعُها   منك إلى عِرض صحيح ودين
لا تطّلعْ منكَ على ريبةٍ   فيتبعَ المقرونُ حبْلَ القرين (١)

أما الغزل فعلى الرغم من قول ابن المعتز فيه : « له في الغزل ملح كثيرة » (٢) فاننا لم نظفر له بما يؤيد هذا القول (٣) . وليس له في الهجاء ما يستحق الذكر ، ويظهر أنه ودّع « الشكوى » مبكراً بعد أن اتصل بشبان الخريمي ثم عاد لها مؤخراً عندما تزايدت عليه المصائب ، وكان من أقساها فقده البصر فنظم في ذلك غير قليل مصوراً آلامه وهمومه وجوّد في بعض ما قال وسار أكثره .

إن جيد الخريمي غير قليل ولكنّ أبرزه وأجدره بالبقاء والاحترام رائيته الرائعة البارعة التي صور بها آثار الفتنة بين الأمين والمأمون وما جرّت من ظلم ونهب وخراب .

قالوا ولم يلعب الزمان ببغـــداد ولم تعثر بها عواثرها

(١) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٥ .
(٢) ابن المعتز ٢٩٣ .
(٣) ينظر ابن المعتز ٢٩٤ ، ٤٤٣ ـ ٤٤٤ ؛ البغدادي ٦ : ٣٢٦ .

وقد حفظ الطبري غير قليل مما صحب هذه الفتنة من شعر ، ولكن ليس بين هذا الشعر ما يسمو سمو رائية الخريمي وليس فيه ما يقرب منها .

وروى المسعودي قصيدة رائية للأعمى [المعروف بعلي أبي طالب] مطلعها :

تقطَّعتِ الأرحام بين العشائر وأسلمهم أهل التقى والبصائرِ

وفيهـــا :

فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم فمن بين مقهور ذليل وقاهر (١)

وموضوعاتها تشبه موضوعات قصيدة الخريمي ولكنها بعيدة عن أن تدرك قصيدة الخريمي فهي أضعف عاطفة وأقل خيالاً وهي أدخل في الشعر التعليمي منها في الشعر الشعر .

ومن يدرينا ، فلعل ابن الرومي اطلع على قصيدة الخريمي وتأثر بهـا وهو ينظم ميميته عن البصرة وما فعل بها الزنج (٢) .



يعرض الخريمي معانيه بلغة سليمة ثرية مختارة اللفظ جيـــدة السبك مترفعة عن المرذول السفساف عليها غير قليل من رشاقة وفخامة . وقد دل على أنه فقه اللغة العربية وضبطها وأدام النظر في روائع نصوصها وحفظ الكثير من هذه الروائع حتى أصبحت جزءاً منه ولا بد من أن تكون

(١) المسعودي ٣ : ٤٠٩ ـ ٤١٠

(٢) وقد انتبه إلى ذلك بروكلمان ٢ : ٤٦ فقال : « وينسج ابن الرومي على منوال الخريمي فيجتري، أيضاً على وصف المواقف التأريخية كما في شكايته من غلبة الزنج على البصرة » ـ تنظر القصيدة في المختارات التي عملها الكيلاني من ديوان الرومي ، ومطلعها :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنـــام شغلها عنه بالدموع السجـامِ

الشام والجزيرة وبغداد مما زاد لغته صقلاً وتهذيباً ، حتى أمكن أن يعد شعره مصدراً للغة العالية ، وقد تجد عنده تعبيرات تستغربها ، إلا أنك لا تستطيع أن تعزوها إلى جهل أو ضعف أو تهاون لأنه يشعرك بمكانته ويقنعك بأنه أستاذ في فنه . ولم يكن عبثاً أن يقف عبد القاهر الجرجاني طويلاً في « دلائل الإعجاز » عند بيت الخريمي .

ولو شئتُ أن أبكي دماً لبكيته عليه . ولكنْ ساحة الصبر أوسع

مقرراً أن الأحسن إظهار المفعول عند مجيء المشيئة بعد « لو » [1] .

★ ★ ★

وكان في عصره منهجان من الشعر : الشعر الذي لزم عمود الشعر ، والشعر الذي شرع يفارق العمود على يد بشار وأبي نواس ، أو فارقه فعلاً ، دون إغراق ، على يد مسلم بن الوليد إذ كان قصده بيناً إلى البديع بما فيه من غريب الاستعارة والجناس والطباق (ممهداً للمفارقة الكبرى على يد أبي تمام) . ولم يشأ الخريمي أن يبتعد خارج إمكانه أو ينأى عن مدى شخصيته وظروف تكوينه ومستلزمات بيئته لذا بقي عمودياً أو بمعنى أدق قريباً من العمود ، فلم يبتعد عنه إلا في خدود ضيقة هي الحدود التي يسمح بها المعنى ولا يبدو بها غريباً مستغرباً كما في قوله :

وفارقت حلوَ العيش إلا صُبابةً عليها خطوب الحادثات تحوم [2]

فهيأ له ذلك أن يبقى معدوداً في المطبوعين ، وحفظه من أنْ يتكلف القول فنيا لم يكن له فيجره إلى ضعف ووهن وسخف .

(١) عبد القاهر الجرجاني ١٢٦ ـ ١٢٧ .
(٢) ابن عساكر ٢ : ٤٣٧ .

وحين جاء أبو تمام ثم البحتري ، ووقع النقاش في عمود الشعر ، ثم اشتد هذا النقاش واحتد ، وجاء الآمدي للموازنة ، أوضح مذهب الخريمي وهو يوضح مذهب البحتري ؛ قال : « ... مَن فضَّلَ البحتري ونسبه إلى حلاوة النفس وحسن التخلص ووضع الكلام في مواضعه ، وصحة العبارة وقرب المأتى وانكشاف المعاني ، وهم الكتاب والأعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة . ومثلُ من فضّل أبا تمام ونسبه إلى غموض المعاني ودقتها وكثرة ما يورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج ، وهؤلاء أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل إلى التدقيق وفلسفي الكلام .

إن البحتري أعرابي الشعر ، مطبوع ، وعلى مذهب الأوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف ، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام فهو بأن يقاس بأشجع السلمي ومنصور [النمري] وأبي يعقوب [الخريمي] المكفوف وأمثالهم من المطبوعين أولى ... » (١)

إذاً كان الخريمي يمثل منهاجاً من الشعر ، وقد أقرَّ ذلك الآمدي ، ثم القاضي الجرجاني ، إذ قال وهو يقدم للوساطة بين المتنبي وخصومه : « إنك لا تدّعي لأبي الطيب طريقة بشار وأبي نواس ولا منهاج أشجع والخريمي ، ولو ادّعيته فانما كنت تخادع نفسك أو تباهت عقلك ، وإنما أنت أحد رجلين : إما أن تدّعي له الصنعة المحضة فتُلحقه بأبي تمام ... فإن ملتَ به نحو الصنعة فضل ميل صيرته في جَنَبَة مسلم ... » (٢) .

وكان المـــبرد معجباً بالخريمي وقد حدد مبكراً فن الخريمي إذ قال :

---

(١) الآمدي ١ ـ ٦ .

(٢) القاضي الجرجاني ٥٠ ـ ٥١ .

« كان شاعراً مفلقاً مطبوعاً مقتدراً على الشعر » ، وقال : كان « جيد الشعر مقبولاً عند الكتاب وله كلام قوي ومذهب متوسط » (١) .

ولم يبالغ المبرد ولم يخرج بأحكامه عن الاعتدال . وكذلك كانت جل الأحكام التي صدرت في الخريمي ، فقد قال ابن المعتز : « وهذا الخريمي من المحسنين المجيدين للشعر » (٢) . وقال ابن الجراح : انه « شاعر متقدم مطبوع له أشعار طوال ومدائح ، وكلامه عذب حسن » (٣) وكان الخطيب البغدادي مقتصداً جداً في الكلام فاكتفى بأن قال : « أما أبو يعقوب فشاعر مُحسن » واكتفى ابن عساكر بأن أعاد أحكام غيره مرتين منسوبة ومرة غير منسوبة (٤) .

ويبدو أن أبا حاتم السجستاني كان شديد الإعجاب بحيث سمح لنفسه أن يقول : « الخريمي أشعر المولّدين » (٥) .

ولا شك في أن الخريمي نفسه كان يعي شعره ، ويدرك منزلته ويعرف ما يأخذ وما يدع ، وقد مدح مرة قصيدة له فقال :

ها كها غراءَ تسري في الدُّجى   كل بيت عائر منهـا تسير
حلَّةً حبَّرها ذو مِقَـةٍ   بالهوى يُسدي وبالود يُنـير (٦)

(١) ابن المعتز ٢٩٣ « وحدثني المبرد قال ... » . الحصري ٢ : ١٠٧١ « قال المبرد ... » ابن عساكر ٢ : ٤٣٣ ... وليلاحظ ان المبرد ممـا كان يفضل البحتري ـ الآمدي ١ : ٢١ .
(٢) ابن الجراح ١٠٢ ـ ١٠٣ .
(٣) البغدادي ٦ : ٣٢٦ .
(٤) ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ ـ ٤٣٥ .
(٥) ابن الجراح ١٠٣ : « حدثني محمد بن القاسم قال حدثني الكرّاني قال سمعت أبا حاتم ... » ، البغدادي ٦ : ٣٢٦ ، ابن عساكر ٢ : ٤٣٥ .
(٦) ابن الجراح ١٠٤ .

ومدح أخرى فقال :

دونكَ غــــراءَ كالوذيلةِ لا تُفْتَقَدُ في بلدةٍ سوائرُها (١)

وكان الناس يستحسنون شعره فيسألونه :

ـ ما بالُ شعرك لا يسمعه أحدٌ إلا استحسنه وقبلته طبيعته ؟ فيقول :

ـ لأني أجاذب الكلام إلى أن يساهلني عفواً فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه » (٢) .

وفي جوابه توضيح علمي للمقصود بالشعر المطبوع ودليل على عملية الخلق الأدبي لديه .

ثم إنه لا يُكره نفسه على النظم ولا يسمح للعوامل الطارئة أن تغريه بالقول ، روى الجاحظ : « قال لي أبو يعقوب الخريمي : خرجت من منزلي أريد الشماسية فابتدأتُ القول في مرثية لأبي التختـــاخ ، فرجعت والله وما أمكنني بيت واحد » (٣) .

ولم يكن ذلك عجباً فهو أمرؤ يحترم فن الشعر ويفهم حقيقـة القول ويتشبث بمفهوم للبلاغة ، ولا غرو أن كان الراوية الذي أوصل إلينا تعريف ابن المقفع للبلاغة والقائل : « لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد. سُئل ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ،

(١) الطبري III ٨٧٩ .

(٢) ابن الجراح ١٠٣ : « حدثني محمد بن القاسم قال حدثني أحمد بن المبارك قال : قلت لأبي يعقوب ... »

(٣) الجاحظ ـ البيان ١ : ٢٠٩ ـ ولعل الأصل لأبي علي التختاخ أو لابن التختاخ .

ومنها ما يكون في الاحتجاج ... فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحيُ فيها ، والإشارة إلى المعنى .... إذا أعطيتَ كل مقام حقه وقمتَ بالذي يجب في سياسة ذلك المقام ، وأرضيتَ من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ؛ فانه لا يرضيها شيء . وأما الجاهل فلستَ منه وليس منك ... » (١) .

إن الخريمي شاعر من كبار شعراء العربية ، وتأكد أنه كان معروفاً مشهوراً ، ولم يكن ذلك باطلاً ، إلا أن الملاحظ أنه كان معروفاً لدى الخاصة أكثر منه لدى العامة ، وأن ذكره تضاءل واختفى مبكراً حتى أن أديباً من أواسط القرن الخامس ، وهو ابن رشيق ، تنبه إلى ما لحق الخريمي ، ولحق أمثاله ، من حيف فقال متألماً : « الاشتهار بالشعر أقسام وجدود »(٢) ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً من أجله أو إنصافه ولم يرد له شيء يستحق الذكر في مجموع كتابه .

ألا إن أبا يعقوب اسحاق بن حسان الخريمي شاعر جدير بالإعجاب ، جدير بالاهتمام .



(١) الجاحظ ـ البيان ١ : ١١٥ ـ ١١٧ . وينظر العسكري ـ الصناعتين ١٤ ، الحصري ١ : ١٠٤ ـ ١٠٥ ، ابن رشيق ١ : ٢٤٣ .

(٢) ابن رشيق ١ : ١٠٠ (باب المشاهير من الشعراء) وفيه « .. ولولا ذلك لم يكن نصر بن أحمد الخبزرزي أشهر من منصور النمري وكلثوم العتابي وأبي يعقوب الخريمي وأبي سعيد المخزومي » .

المصادر والكتب الحديثة

الآمدي — (أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى ، المتوفى سنة ٣٧٠) .
الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري . تح . السيد أحمد صقر ، ج ١ ، القاهرة (دار المعارف — ذخائر العرب — ٢٥) ١٩٦١ .
ابن الأثير — (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ... الشيباني الجزري ، المتوفى سنة ٦٣٠) .
الكامل في التاريخ . القاهرة (ادارة الطبعة المنيرية — صحح أصوله الشيخ عبد الوهاب النجار) ١٣٥٧ .
ابن تغري بردي — (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي ، المتوفى سنة ٨٧٤) .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٢٩/١٣٤٨ .
ابن الجرّاح — (أبو عبد الله محمد بن داود—وزير ابن المعتز ... المقتول سنة ٢٩٦) .
الورقة . تح . عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج . القاهرة (دار المعارف — ذخائر العرب — ٩) ١٩٥٣ .
ابن حزم — (أبو محمد علي بن سعيد ... الأندلسي ، المتوفى سنة ٤٥٦) .
جمهرة أنساب العرب ، تح . ليفي پروفنسال ، القاهرة (دار المعارف — ذخائر العرب — ٢) ١٩٤٨ .
ابن خلكان — (شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم ، المتوفى سنة ٦٨١) .
وفيات الأعيان . تح . محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة (مطبعة السعادة ، نشر مكتبة النهضة المصرية) ١٩٤٨/١٣٦٧ .
ابن دريد — (أبو بكر محمد بن الحسن ، المتوفى سنة ٣٢١) .
الاشتقاق . تح . عبد السلام محمد هارون ، القاهرة (نشر مكتبة الخانجي — مطبعة السنة المحمدية) ١٩٥٨/١٣٧٨ .

ابن رشيق — (أبو علي الحسن القيرواني ، المتوفى سنة ٤٥٦) .
العمدة في محاسن الشعر ونقده . تح . محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة (ط ٢ ، المكتبة التجارية ، مطبعة السعادة) ١٣٧٤/١٩٥٥ .
ابن عبد ربه — (أحمد بن محمد ... الأندلسي : المتوفى سنة ٣٢٨) .
العقد الفريد . تح . أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم الابياري . القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٦٧/١٩٤٨ .
ابن عدلان — (عفيف الدين علي بن عدلان الموصلي ، المتوفى سنة ٦٦٦ .
يرى الدكتور مصطفى جواد (في مقالة نشرها في العدد السادس ، ص ١٥٢ من مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٣٧٨/١٩٥٩) انه شارح ديوان المتنبي باسم التبيان . .) — ينظر التبيان ، العكبري .
ابن عساكر — (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ... الشافعي ، المتوفى سنة ٥٧١).
التاريخ الكبير نشر بتهذيب عبد القادر بدران . دمشق (مطبعة روضة الشام) ١٣٣٠ .
ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم . . الدينوري ، المتوفى سنة ٢٧٦) .
الشعر والشعراء . بيروت (نشر وتوزيع دار الثقافة) ١٩٦٤ .
(مع المقابلة بتحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة (دار احياء الكتب العربية ـ عيسى البابي) ١٣٦٩/١٩٥٠ ومخطوطة مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة برقم ١٤٠) .
عيون الأخبار . القاهرة (دار الكتب المصرية ، مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٣/١٩٢٥ — ١٣٤٩ — ١٩٣٠ .
ابن كثير — (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٧٤) .
البداية والنهاية في التاريخ . القاهرة (مطبعة السعادة) ١٩٣٢ .

ابن المعتز — (أبو العباس عبد الله المقتول سنة ٢٩٦) .
طبقات الشعراء تح . عبد الستار فرّاج . القاهرة (دار المعارف — ذخائر العرب — ٢٠) ١٩٥٦/١٣٥٧ (كانت الطبعة الأولى بتحقيق عباس إقبال في سنة ١٩٣٨) .
ابن منظور — (أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ، المتوفى سنة ٧١١) .
لسان العرب . القاهرة ، بولاق ١٣٠٠ .
ابن النديم — (أبو الفرج محمد بن اسحاق النديم ... صنع كتابه سنة ٣٧٧ ؟ وتوفي سنة ٣٨٥ ؟) .
الفهرست . تح . Gustav Flügel ، ليبزك ١٨٧١ (في الطبعة المصورة التي عملتها مكتبة خياط (روائع التراث العربي) بيروت د . ت (١٩٦٤ ؟) .
أبو تمام — (حبيب بن أوس المتوفى ٢٣٢) .
كتاب الوحشيات (وهو الحماسة الصغرى) علق عليه عبد العزيز الميمني الراجكوتي وزاد في حواشيه محمود محمد شاكر . القاهرة (دار المعارف — ذخائر العرب — ٣٣) ١٩٦٣ .
أحمد أمين — ضحى الاسلام . الجزء الأول . ط ٥ ، القاهرة (مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٥٦ (كانت الطبعة الأولى في سنة ١٣٥١/١٩٣٣) .
الأصبهاني — (أبو الفرج علي بن الحسين ... ، المتوفى سنة ٣٥٦)
الأغاني . التزام ساسى . القاهرة مطبعة التقـــدم ، وطبع الفهرس بمطبعة الجمهور ١٣٣٢ .
بروكلمان — (كارل) . تاريخ الأدب العربي . نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار . ج ٢ ، القاهرة (جامعة الدول العربية — الادارة الثقافية — دار المعارف) ١٩٦١ .
براون Browne (E. G) — Aliterary History of Persia. Cambridge, the University Presse 1950.

البغدادي — (الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب ، المتوفى سنة ٤٦٣) .
تاريخ بغداد أو مدينة السلام . القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٤٩/١٩٣١ .

البكري — (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري ، المتوفى سنة ٤٨٧) .
التنبيه على أوهام أبي علي القالي . القاهرة (ط ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، على نفقة اسماعيل يوسف دياب) ١٣٤٤/١٩٢٦ .

بيومي — (السباعي) ، تاريخ الأدب العربي ، ج ٣ (في العصر العباسي بالمشرق) ط ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي)١٣٧٢/١٩٥٣ .

التبيان — التبيان في شرح الديوان (ديوان المتنبي) القاهرة . تح . مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شلبي . ملتزم الطبع والنشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ تراث العرب ـ ٣ : ط ٢ ، ١٣٧٦/ ١٩٥٦ ينظر ابن عدلان والعكبري .

الجاحظ — (أبو عثمان عمرو بن بحر ، المتوفى سنة ٢٥٥) .
الحيوان . تح . عبد السلام محمد هارون . القاهرة (مكتبة الجاحظ ـ الكتاب الأول ـ مكتبة مصطفى البابي وأولاده) ١٣٥٧/١٩٣٨ = ١٣٦٦/١٩٤٧ .
البيان والتبيين . تح . عبد السلام محمد هارون . القاهرة (مكتبة الجاحظ ـ الكتاب الثاني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٦٧/١٩٤٨ — ١٣٧٠/١٩٥٠ .
البخلاء تح . طه الحاجري . القاهرة (دار المعارف — ذخائر العرب — ٢٣) ١٩٥٨ . وفي ذيله تعليقات وشروح ـ ينظر الحاجري .

الجرجاني — ينظر القاضي ، وينظر عبد القاهر .

الجهشياري — (أبو عبد الله محمد بن عبدوس المتوفى سنة ٣٣١) .
كتاب الوزراء والكتاب . تح . مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شلبي . ط ١ ، القاهرة (مطبعة مصطفى البابي الحلبي) ١٣٥٧/١٩٣٨ .

الحاجري — (طه) محقق الجاحظ ـ البخلاء (ينظر) ، وقد ذيل عليه في المجلد نفسه بـ « تعليقات وشروح من ص ٢٤٧ — ٤٣٨ » .

حجاب (الدكتور محمد نبيه حجاب) ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث . القاهرة (ط ١ ، مكتبة نهضة مصر) ١٩٦١/١٣٨١ (والكتاب رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ عمر دسوقي) .

الحصري — (أبو اسحاق ابراهيم بن علي ... القيرواني المتوفى سنة ٤١٣ أو ٤٥٣).
زهر الآداب وثمر الألباب . تح . علي محمد البجاوي . القاهرة (ط ١ ، دار احياء الكتب العربية) ١٩٥٣/١٣٧٢ .

الحوفي — (أحمد محمد) ، أدب السياسة في العصر الأموي . القاهرة (ط ١ ، مكتبة نهضة مصر) ١٩٦٠ .

الخطيب — ينظر البغدادي .

الذهبي — (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ... ، المتوفى سنة ٧٤٨) .
كتاب ميزان الاعتدال في نقد الرجال . تح . علي محمد البجاوي . القاهرة (دار إحياء الكتب العربيه — عيسى البابي الحلبي) ١٩٦٣/١٣٨٢ .

رفاعي — (الدكتور أحمد فريد) ، عصر المأمون . القاهرة . (ط ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٢٧/١٣٤٦ .

الزَّبيدي — أبو الفيض السيد محمد مرتضى بن محمد ، المتوفى سنة ١٢٠٥) .
تاج العروس من جواهر القاموس . القاهرة (المطبعة الوهبيـــة) ١٢٨٦ — ١٣٠٧ .

الزركلي — (خير الدين) ، الأعلام . القاهرة (ط ٢ ، عشرة أجزاء) مطبعة كوستاتسوماس وشركاه) ١٩٥٤/١٣٧٣ — ١٩٥٩/١٣٧٨ .

السجستاني — (أبو حاتم سهل بن محمد ، الموفى حوالى سنة ٢٥٠) .
المعمرون والوصايا ـ تح . عبد المنعم عامر . القاهرة (دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي) ١٩٦١ .

الشايب — (أحمد) ، تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني . القاهرة (ط ٢ ، مكتبة النهضة المصرية) ١٩٥٣ (كانت الطبعة الأولى ١٩٤٥) .

الصفدي — (صلاح الدين بن ايبك ، المتوفى سنة ٧٦٤) .

نكت الهميان في نكت العميان . وقف على طبعه أحمد زكي بك . القاهرة (المكتبة التجارية ، المطبعة الجمالية) ١٣٢٩/١٩١١ (أعدت مكتبة المثنى ببغداد طبعه على الأوفست بطهران ، د . ت) .

الصولي — (أبو بكر محمد بن يحيى ، المتوفى سنة ٣٣٥) .

كتاب الأوراق ـ قسم الشعراء ، عني بنشره ج . هيورث دن ، القاهرة ، (ط ١ ، مطبعة الصاوي) ١٩٣٤ .

الطبري — (أبو جعفر محمد بن جرير ، المتوفى سنة ٣١٠) .

تاريخ الأمم والرسل والملوك . تح . دخويه De Gœje ، ليدن ١٨٨٩ ـ ١٩٠١ (أعادت نشره مصوراً على الأوفست مكتبة خياط ببيروت ١٩٦٤) .

العباسي — (عبد الرحيم بن أحمد المتوفى سنة ٩٦٣ .

معاهد التنصيص على شواهد التلخيص . تح . محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٦٧/١٩٤٧ .

عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١) .

دلائل الإعجاز في علم المعاني . صححه الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطي . القاهرة (ط ٤ ، دار المنار) ١٣٦٧ (كانت الطبعة الأولى سنة ١٣٢١) .

العسقلاني = (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر ، المتوفى سنة ٨٥٢) .

لسان الميزان ، ط ١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر اباد الدكن ، ١٣٢٩ — ١٣٣١ .

تهذيب التهذيب ، ط ١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية » ، ١٣٢٥ .

العسكري — (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، المتوفى سنة ٣٩٥) .
كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) . تح . علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة (دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي) ١٣٧١ — ١٩٥٢ .
العكبري — (أبو البقاء عبد الله المتوفى سنة ٦١٦) ، ينظر التبيان وابن عدلان .
الفيروزابادي — (مجد الدين محمد بن يعقوب ، المتوفى سنة ٨١٧) .
القاموس المحيط . القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٣٨ — ١٩١٣ .
القاضي الجرجاني — (علي بن عبد العزيز ، المتوفى سنة ٣٦٦) .
الوساطة بين المتنبي وخصومه . تح . محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي (ط ٣ ، دار احياء الكتب العربية — عيسى البابي الحلبي) (الطبعة الثانية بتاريخ ١٣٧٠ — ١٩٥١) .
القفطي — (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٦) .
إنباه الرواة على أنباه النحاة . تح . محمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ج ١ ، ١٣٦٩ — ١٩٦٠ .
القلقشندي — (أبو العباس أحمد ، المتوفى سنة ٨٢١) .
نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب . تح . ابراهيم الابياري . القاهرة (الشركة العربية للطباعة والنشر) ١٩٥٩ .
الكندي — (أبو عمر محمد بن يوسف ، المتوفى سنة ٣٥٠) .
ولاة مصر . تح . الدكتور حسين نصار . بيروت (دار صادر ـ دار بيروت) ١٣٧٩ — ١٩٥٩ .
لسترنج — بلدان الخلافة الاسلامية ، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد (مطبوعات المجمع العلمي العراقي — مطبعة الرابطة) بغداد ١٣٧٣ — ١٩٥٢ .

اللغوي — (أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي ، المتوفى سنة ٣٥١) .
مراتب النحويين . تح . محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة (مكتبة نهضة مصر ومطبعتها) ١٣٧٥ — ١٩٥٥ .
المبرد — (أبو العباس محمد بن يزيد ... المتوفى سنة ٢٨٥) .
الكامل في اللغة والأدب والنحو والصرف ج ١ ، تح . زكي مبارك ١٣٥٥/١٩٣٦ ، ج ٢ ، ٣ . تح . أحمد محمد شاكر ١٣٥٦/١٩٣٧ (مطبعة مصطفى البابي الحلبي) .
الفاضل تح . عبد العزيز الميمني (تقرأ المقدمة للتحقق من مؤلف الكتاب) القاهرة (دار الكتب المصرية ـ مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٧٥/١٩٥٦ .
محمود مصطفى — (الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي ، ج ٢ ، ط ٢ ، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي) ١٣٥٦/١٩٣٧ (كانت الطبعة الأولى سنة ١٣٥٢/١٩٣٣) .
المرزباني — (أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى ، المتوفى سنة ٣٨٤ أو ٣٨٥) .
الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء . القاهرة (جمعية نشر الكتب العربية ـ المطبعة السلفية ومكتبتها) ١٣٤٣ .
معجم الشعراء .
المرزوقي — (أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن ، المتوفى سنة ٤٢١) .
شرح ديوان الحماسة . نشره أحمد أمين ، عبد السلام هارون ، القاهرة (ط ١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٧١/١٩٥١ — ١٣٧٢ — ١٩٥٣ .
المسعودي — (أبو الحسن علي بن الحسين ، المتوفى سنة ٣٤٦) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر . تح . محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة (مطبعة السعادة) ط ٣ ، ١٣٧٧/١٩٥٨ .

المقريزي — (أبو العباس تقي الدين بن علاء الدين ... المتوفى ٨٤٥) .
المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار تحقيق Gaston Wiet ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، ١٩١٠ .

الميداني — (أبو الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري ، المتوفى سنة ٥١٨).
مجمع الأمثال . تح . محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة (مطبعة السعادة) ، ط ٢ ، ١٣٧٩ — ١٩٥٩ .

النويري — (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ... المتوفى سنة ٧٣٢) .
نهاية الأرب في فنون الأدب . القاهرة (دار الكتب المصرية) .

الوشاء — (أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحي ، المتوفى سنة ٣٢٠) .
الموشى أو الظرف والظرفاء . تح . كمال مصطفى . القاهرة ، ط ٢ (مطبعة الاعتماد — التزام مكتبة الخانجي) ١٣٧٢/١٩٥٣ .

ياقوت (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، المتوفى سنة ٦٢٦) .
معجم البلدان . بيروت (دار صادر — دار بيروت) ١٣٧٤ — ١٩٥٥ .
معجم الأدباء (ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب) . القاهرة (دار المأمون) ١٣٥٥/١٩٣٦ — ١٣٥٧/١٩٣٨ .

الرياض — جامعة الرياض الدكتور علي جواد الطاهر



طرر على معجم الأدباء

أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت

طبعة الأستاذ مرجليوث سنة ١٩٠٧ م

- ٦ -

(المجلد الثاني)

٨٦ : ٢ الصواب : فلم يستوف كما في اليتيمة والوفيات . والبيت الثاني مثل سائر ، (٤ : ٩/٢٥٩) .

٨٦ : ١٤ الصواب : هكذا تزول .

٨٧ : ٤ البنية ١٦٠ . وللعروضي هذا كتاب على ديوان المتنبيء كما في الصبح المنبي° ١٣٥٠ هـ ص ١٦١ .

٨٨ : ١٩ مسكويه هذا له ترجمة في حكماء القفطي ١٣٢٠ هـ ص ٣٣١ والتتمة رقم ٨٣ ، (٥ : ١/٥) .

٨٩ : ٨ لعل الصواب ابنَ العميد أبا الفضل ، (٥ : ١٣/٥) .

٩٠ : ٦ البيتان في الإيجاز مصر ٢٢٧ وخاص الخاص ١٦٤ والتتمة ٨٣ واليتيمة ٣ : ٧ ، (٥ : ٩/٧) .

٩٠ : ١٥ ومن الكلمة بيتان آخران في خاص الخاص ١٦٤ . هذا وفي التتمة قبل البيت (ومنها) والصواب كما فيه أعدن ... وردّت .

٩١ : ٢ التتمة : فان تمرّس بي ، وفيه في البيت العاشر والحظ كتائبهم ، وفي البيت ١٢ تعظّمه وارى كلها الصواب ، (٥ : ٥/٩) .

٩١ : ١٦ جاويذان خِرَد هـــذا أصله للحكيم اوشهنج الملك تمّمه مسكويه وقد طبعت أصله في مجلة المجمع العلمي بدمشق ١٣٤٧ هـ ١٢٩ — ١٣٩ و ١٩٣ — ٢٠٢ ، (٥ : ١٠/١٤) .

٩٢ : ١٢ الصواب : والمستَخَفّ به لكن .

٩٤ : ٢ الصواب : فنعم رائد .

٩٦ : ٤ الصواب : مَلِكَةً .

٩٦ : ٥ الصواب : ليستعمل في المهمّ .

٩٦ : ١٥ في كتابه . لم أجده في طبعتي اليتيمة والتتمّة ، (٥ : ١٩/١٥) .

٩٦ : ١٧ الصواب : والإبداع .

٩٧ : ١٤ الصواب الداهخزا أبي سعد انظر له التتمة رقم ٩٩ والدمية ص ١٠٦ . والحوالي لا أعرفه وإنما هو جرجاني ، (٥ : ٢١/١٠) .

٩٧ : ١٥ لعله : ثم شوّقنا إلى مشاهدة الفضل .

٩٨ : ٧ لعله ولا أبدى بأفق ، (٥ : ٢٢/١٢) .

٩٨ : ٩ الصواب : أن يجُرّ أولياءه على شوك الردّ . فيحقّ .

٩٨ : ١٨ الصواب : كُتّاب الإنشاء .

١٠٠ : ٩ الصواب : والصاد خاء ، يريد الخيانة .

١٠٠ : ١١ الصواب : ويتلوه فاء . يريد السخيف .

١٠٢ : ١ لترجمته حواشي چهار مقالة ٢٤٤ طبعة جيب وورد ذكره في اليتيمة ٤ : ١٦٥ ، (٥ : ٣١/٦) .

١٠٢ : ٢ مضى في ترجمة الصخري أبو محمـــد محمود بن أرسلان ، (٥ : ٣١/٧) .

١٠٢ : ٤ الثعالبي : هذا لم أجده في كتابيه اليتيمة والتتمة ، (٥ : ٣١/١٠) .

١٠٢ : ٩ لعله : الحسوليّ في الذهب ، (٥ : ٣٢/٤) .

١٠٢ : ١٢ الصواب : من عناق ، (٥ : ٨/٣٢) .

١٠٣ : ٥ في ذيل أبي شجاع ص الأصل ٤٢٧ غريب بن محمد بن مقن ، (٥ : ١٣/٣٣) .

١٠٣ : ٩ لترجمة المرزوقي في البغية ١٥٩ وما إليه .

١٠٤ : ٧ لترجمة الثعلبي الوفيات رقم ٢٩ طبقات القراء ٤٦٢ الشذرات ٤٢٧ هـ الشافعية ٣ : ٢٣

١٠٥ : ٣ الخطيب ٢٢٥١ البغية ١٥٥ الشافعية ٣ : ٢٤ ، (٥ : ٨/٣٨) .

١٠٥ : ٩ الصواب : وكتبت عنه ، (٥ : ٧/٣٩) .

١٠٥ : ١٤ الصواب : المهدوي منسوب إلى المهديّة ترجمته في بغية الملتمس ٣٥٠ .

١٠٦ : ٤ لترجمته بغية الملتمس ٣٥٤ والمطمح الجوائب ٢٤ ، (٥ : ٣/٤١) .

١٠٦ : ٦ شُهيد ككميت .

١٠٧ : ٤ لترجمته البغية ١٦٨ .

١٠٧ : ١٦ الميداني لترجمته الوفيات رقم ٥٩ البغية ١٥٥ النزهة ٤٦٦ ورأيت خط يده بالقراءة على نسخة من اصلاح المنطق بنور عثمانيه ٤٦٩٢ مكتوبة سنة ٣٩٥ هـ ، (٥ : ١/٤٥) .

١٠٨ : ٢ جامع الأمثال سماه مؤلفه مجمع الأمثال . والسامي طبع ايران سنة ١٢٧٤ هـ وهو في معنى مقدمة الأدب للزمخشري ، والأنموذج ونزهة الطرف مطبوعان ، (٥ : ١/٤٦) .

١٠٨ : ٥ رأيت بخزانة أحمد الثالث ٢٧٨٦ شرح الكلمات المشكلة في السامي لأبي الفتوح أسعد بن أبي الفضائل بن خلف العجلي في ٩٠ ق (٥:٤٦/٥) .

١٠٨ : ١٦ الصواب : محمود بن أبي المعالي الخواري ويأتي في ترجمته الجوهري أيضاً وترجمته عن ياقوت في البغية ٢٩٠ . وخوار كغراب من أعمال الريّ .

١٠٩ : ٦ الصواب : فشأ .

١٠٩ : ٦ الوفيات : أيا هل ترى صُبْحاً ، (٥ : ٤٨/٩) .

١١٠ : ١٩ في خريدة العماد (نسخة فهرست ليدن الثانية ٢ : ٢١٨) أنه توفي سنة ٥٣٣ هـ ولذي الفضائل مرثية إلى مضر الطبيب كلتان في صوان الحكمة رقم ٨٤ ، (٥ : ٥٢/٢) .

١١١ : ١١ في مشيخته . وفي الأنساب أيضاً . (٥ : ٥٤/٦) .

١١١ : ١٦ الخليل هذا له ترجمة في التتمة ١٨٥ ، (٥ : ٥٤/١٣) .

١١١ : ١٧ الصواب : (عن محمود الصوفي) لا غير وهو المذكور آنفاً والصواب في الأنساب ، وفيه : عن أبي عبيد الفرغاني ، (٥ : ٥٤/١٤) .

١١١ : ١٨ في حدود الخ في البغية ١٦٢ في حدود سنة ٤٦٠ هـ ومات بمرو فجأة يوم الأحد ثامن جمادى الأولى وقيل ليلة الاثنين لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة ٥٢٦ اهـ وفي الأنساب (سنة ... وثلاثين وخمس مائة) ، (٥ : ٥٤/١٥) .

١١٢ : ١ البغية ١٦٩ .

١١٢ : ١٢ المثل في جمهرة العسكري بومباي ٢٧ مصر ١ × ٧٠ والمستقصى والحريري المقامة الـ ٤٧ وطراز المجالس المجلس ٣١ . وأصل المثل في الجمل . (٥ : ٥٦/١٤) .

١١٢ : ١٥ الصواب : فيحتضِنه ، (٥ : ٥٧/٤) .

١١٣ : ١٧ عنه البغية ١٥٨ .

١١٤ : ٩ مطلع قصيدة للمتنبيء والعامل في الظرف (تذكرت) أو (بحر الخ) بدل اشتمال عن (ما بين الخ) ، (٥ : ٦٠/١٣) .

١١٥ : ٥ البغية عنه ١٧٠ .

١١٥ : ١٠ الصواب الحالات فيه معا ، (٥ : ٦٣/٣) .

١١٥ : ١١ البغية ١٧٠ عنه .

١١٥ : ١٦ البغية ١٧١ عنه .

١١٦ : ١١ الخطيب ٢٥٨٠ طبقات القراء ٦٦٣ الفهرست ٣١ .

١٢٣ : ٦ هذا الخبر في النشوار ١ : ٥٣ وفيه : (بن عبيد الله بن قنّاش) وأبو جعفر هو الذي أخبر صاحب النشوار . وفيه خبر آخر للبنص في مجلس ابن دريد رواه أبو جعفر أيضاً . وأما ابن البازيار في حلب يوجد درب البازيار وهو منسوب اليه وهو الزقاق المعروف الآن بزقاق الزهراوي حققه صديقنا الراغب الطباخ ، (٥ : ٨/٨٠) .

١٢٥ : ٣ عنه البغية ١٧٢ .

١٣٦ : ١٤ الصواب: خادمه والخادم للمرأة الخادمة كالحامل ، (٥: ١٠/٨٧) .

١٢٧ : ٣ ابن عساكر ٢ : ١٠٩ الفهرست ١١٣ الفوات ١ × ٨ .

١٢٧ : ٤ الفهرست وابن عساكر : وقيل أبو جعفر بدل (أبو بكر) ، (٥ : ٢/٨٩) .

١٢٨ : ٥ ضرطة وهب مثل انظر ثمار القلوب ١٦٤ وفيه كبات لابن الرومي وأبي علي البصير وغيرهما أيضاً ، (٥ : ١٣/٩٢) .

١٢٨ : ٨ عبدان النصراني أخو صاعد أو عبدون كما سيأتي .

١٢٩ : ١٤ الصواب : عليك من الزمان . كما في الفوات ، (٥ : ١٢/٩٥) .

١٣٠ : ٨ الصواب : عيٌّ وخيبٌ ، (٥ : ٤/٩٧) .

١٣٠ : ١١ اضل من دليل . مما فات مجاميع الأمثال ، (٥ : ٩/٩٧) .

١٣١ : ١ الصواب : حتوفها ، (٥ : ١٠/٩٨) .

١٣١ : ٣ الصواب : لذاذةَ أيام . ابن عساكر .

١٣١ : ٤ المرزباني قلت وعنه ابن عساكر أيضاً ، (٥ : ١/٩٩)

١٣١ : ٥ الصواب : ما من ، (٥ : ٣/٩٩) .

١٣١ : ١٣ جُمَل انساب الأشراف وأخبارهم هذا هو اسم الكتاب كما ثبت بآخر نسخة عاشر رقم ٥٩٧ منه وهي النسخة الفريدة ، (ه : ٩٩/١٥) .

١٣٢ : ١٠ الصواب : ولم يفعل ، (ه : ١٠١/٩) .

١٣٢ : ١٤ الصواب : بالرُشا .

١٣٣ : ١ الفهرست ٧٤ أصل الزبيدي ٩٩ الخطيب ٢٦٨١ الروج (المكتفي) تذكرة الذهبي ٢ : ٢١٤ الوفيات رقم ٤١ النزهة ٢٩٣ البغية ١٧٢ أصل مراتب النحويين ١٥٥ القراء ٦٩٢ المنتظم ج ٦ رقم ٦٢ .

والصواب : يحي بن زيد بن سيّار ، (ه : ١٠٢/١٠) .

١٣٣ : ٨ الزبيدي : على ابنة ابنته وكذا المسعودي ، (ه : ١٠٥/٤) .

١٣٣ : ١٩ الصواب : لصَمَمه .

١٣٤ : ١٩ الصواب : من باب كما في الفهرست والوفيات والزبيدي .

١٣٥ : ٦ الصواب : ابن سَلْم . الزبيدي ، (ه : ١٠٩/١٠) .

١٣٥ : ١٦ مجلسه مع الرياشي في مجالس أبي مسلم ، (ه : ١١٠/١٠) .

١٣٦ : ٢ المجالس : إنما أصير إليك لهذه المقطمات والخرافات يروى بازلُ عامٍ وبازلَ وبازلٍ الخ وهو الصواب ، (ه : ١١١/١) .

١٣٦ : ٧ خبر المجلس في المجالس والزبيدي وعنه الأشباه ٣ : ٢٢ قال الطوسي ٨ ب قالوا أراد خظاتان وأنشد لأبي دُؤاد :

ومتنــــان خظاتان كزحلوف من الهضب

ومثله في شرح خرابُنداذ ، (ه : ١١١) .

١٣٦ : ١٣ الصواب : في خظاتا الاضافة ، (ه : ١١٢/١) .

١٣٦ : ١٦ الصواب : ظريفي ، (ه : ١١٢/٦) .

١٣٧ : ١ الصواب : عبيد الله ، (ه : ١١٢/٩) .

١٣٧ : ٣ الصواب : ظريفي ، (ه : ١١٢/١٢) .

١٣٧ : ٦ أخيك ، مجاراة للعامّة ولم يكن ثعلب يتكلّف الإعراب ، (٥ : ٢/١١٣) .

١٣٧ : ١٢ كذا الفهرست ٦٧ ووصفه ابن خلكان وقد وقف عليه في ترجمة الفراء وسماه البهاء ، هذا ورأيت بخزانة نور عثمانيه رقم مجموعة ٤٨٨٤ يتلوه ما تلحن فيه العوام للكسائي مرتباً وهذه مسوّدة المرتب نفسه وعليه أنه يسمى بالبهيّ . وفي فهرست ابن خير ٣١١ ان كتاب البهي في النحو للفرّاء قال وهو ما تلحن فيه العوامّ ، (٥ : ١١/١١٣) .

١٣٧ : ١٣ طبع المذكر والمؤنث بحلب ١٣٤٣ هـ ولم أجد هذا الكلام فيه . (٥ : ١٣/١١٣) .

١٣٧ : ١٧ الصواب : لأنّ لا التبرئة .

١٣٨ : ١ البيت لا يوجد في طبعة ديوانه وانظر ما أصل (وعنرها) والصواب : بيض الخدود ، (٥ : ١٠/١١٤) .

١٣٨ : ٥ الصواب : للشباب .

١٣٩ : ٦ (إلا من بذل الوجه) لا غبار عليه .

١٣٩ : ١٥ فتقوم له . كذا ولعله فتقوم لأنّ ابن فارس لم يدرك أبا العباس ، (٥ : ٩/١١٧) .

١٣٩ : ١٦ ابن العلاف هو الحسن بن علي والأبيات في المنتظم ج ٦ رقم ١١ ، (٥ : ١١/١١٧) .

١٤٠ : ٨ قال وكان ثعلب الخ هذا الكلام لم أجده في المراتب ، (٥ : ٧/١١٩) .

١٤١ : ٤ وكان متبحّراً الخ . لفظ الزبيدي (ولم يكن يعلم مذهب البصريّين ولا مستخرجاً الخ) . (٥ : ٦/١٢٠) .

١٤١ : ٦ الصواب : لم يُغَرِّق ، (٥ : ٩/١٣٠) .

١٤١ : ١٧ ولو أخذ لك الخ لفظ الزبيدي فلو أخذت رطلاً من لحم فأصلحتْ لك منه قُديرةٌ لكان أصلح فقال رطل لحم الخ ومنه تعرّفت السقط ، (٥ : ١٢١/١١) .

١٤٢ : ٦ الصواب : الأدب وكانا . والأبيات تسعة أنشدها الخطيب ، (٥ : ١٢٢/٧) .

١٤٢ : ٧ الخطيب : العلم لا تُمْهِلَنَّ وأراه وجه الكلام ، (٥:١٢٢/٨) .

١٤٢ : ١٤ من خمسة أبيات في الحماسة بون ١٤٠ بولاق ١ : ١٥١ لاسحق بن خلف البهراني .

١٤٢ : ١٥ الصواب : أكرمُ نَزّالِ .

١٤٢ : ١٧ الصواب : أميمة تهوى .

١٤٣ : ١٨ الأبيات في المنتظم ج ٦ رقم ٧٥ ، (٥ : ١٢٥/٤) .

١٤٤ : ١٣ الصواب : السميذ .

١٤٥ : ١٠ الصواب : أبو أحمد العسكريّ وهذا في أصل الدار من التصحيف ٢١ ب ومن المطبوع ص ٢٦ وبيت الأعشى في ديوانه صنعة ثعلب قصيدة ١٥ بيت ٣٢ ، (٥ : ١٢٨/٦) .

١٤٥ : ١٨ الأوّلان في القالي ٢ : ٩٤ وروايته يغفل ساعةً وروى الخطيب يغفل ما مضى ، (٥ : ١٢٩/٣) .

١٤٦ : ٥ الخطيب : إلى أن تتكلف عذرا ، (٥ : ١٢٩/١١) .

١٤٦ : ١٤ الصواب : تَذْلا .

١٤٦ : ١٤ الخبر الآتي في مجالس أبي مسلم كاتب الوزير ابن حِنْزابة ، (٥ :١٣١/١) .

١٤٧ : ٢ الصواب : يقوم مترجماً .

١٤٧ : ٩ الصواب : ثَبَجَ بحر . عن المجالس . والخبر الآتي عن الزجاجي في أماليه ٣٨ وعنه المعاهد ١ × ١٩ ، (٥ : ١٣٢/٥) .

١٤٧ : ١٩ الأبيات في نسخة مختصر طبقات المحدثين لابن المعتز (انظر في المطبوع الحواشي ص ٣٧) لحمد بن أحمد الصينيّ ، (٥ : ١٣٣/٥) .

١٤٨ : ١ الزجاجي : وكم كنتُما .

١٤٨ : ٢ الزجاجي : فراق أتاهما ، (٥ : ١٣٣/١٠) .

١٤٨ : ٨ الصواب : على تَرَحٍ .

١٤٨ : ١٠ البيت ينسب في شواهد علم المعاني (المعاهد ١ : ١٩) إلى العباس بن الأحنف وليس في ديوانه ، (٥ : ١٣٤/٧) .

١٤٨ : ١٩ من حفظي :

أعاذلتـــا أقصري أبِعْ جِدَّتِيْ بالثمنْ
أرى النـــاسَ أحدوثة فكوني حديثاً حسن

(٥ : ١٣٥/٦)

١٤٩ : ٢ المنتظم : بن محمد ، (٥ : ١٣٥/٩) .

١٤٩ : ١٥ و ١٦ الرواية وهي الصواب : شاتمَني . ولاحتقاري له .

١٥٠ : ١١ الخطيب : يُعايِشْنَ بالقُضبان ، وهو الصواب ، (٥ : ١٣٨/٨) .

١٥٠ : ١٣ الخطيب : ولا استقبلتُ بَرْدَ .

١٥١ : ٤ الخطيب فالحمد .

١٥١ : ٧ الصواب : بن زيد بن سيّارٌ ثعلبٌ ، (٥ : ١٤٠/٤) .

١٥١ : ٨ المعاير وكذا الخطيب والله أعلم .

١٥٢ : ٥ الخطيب : بالعلم باعثا ، (٥ : ١٤٢/٣) .

١٥٢ : ١٨ الصواب : ما يجري وما لا يجري ، (٥ : ١٤٣/١٤) .

١٥٣ : ٣ الحسن بن داود الخ ، زاد البنية وقيل ليعقوب ، (٥ : ١٤٤/٤) .

١٥٣ : ٤ الصواب : وأماليّ . ومجالس ثعلب هذا لا أعرف منه إلا نسخة الدار وهي مغسولة مطموسة ، (٥ : ٦/١٤٤) .

١٥٣ : ٧ كالأعشى ، هذا الديوان صنعة ثعلب ، (٥ : ٩/١٤٤) .

١٥٣ : ١٣ الصواب : أبي بكر محمد ، (٥ : ٧/١٤٥) .

١٥٣ : ١٥ الصواب : فكم تلبث . من الوفيات ، (٥ : ١٠/١٤٥) .

١٥٤ : ٧ ترجمته في الفهرست (تابع ص ١٧٢) نسخة تونك وعداده في المتكلمين ومن المطبوع ١٤٣ والخطيب ٢٦٨٨ عن المرزباني .

١٥٤ : ١٢ في ذي الحجة . ذكر نديمه الصولي في أخبار الراضي ١٣٧ أنه توفي في ذي القعدة . وفي الخطيب وقد جاوز التسعين وأراه تصحيفاً وإذا كان مولده سنة ٢٦٢ هـ فإنه لم يزد على ٦٦ سنة ولم يجاوز السبعين ولا التسعين .

١٥٥ : ٤ الشافعيه ١ × ٢٢٣ البغية ١٧٤ ، (٥ : ١/١٥٠) .

١٥٥ : ٥ لعله مولى كيسبة والصواب (يكنى أبا عبد الله روى عن شعيب بن الليث وعبد الله بن وهب) ، (٥ : ٢/١٤٩) .

١٥٥ : ١٠ (ذكر ابن يونس) لا غبار عليه .

١٥٥ : ١١ تاريخ دمشق ٢ : ١٠٩ البغية ١٧٢ وفيها (بن السري الطائي) ، (٥ : ٤/١٥٠) .

١٥٥ : ١٩ الأبيات تسعة تتكرر ٦ : ٢٨٩ وهناك (عندي حزينه) ، (٥ : ٤/١٥١) .

١٥٦ : ١ هناك : اجمّع من عند الرواة ، (٥ : ٦/١٥١) .

١٥٦ : ٤ الصواب : أغالِ بحذف الياء ، (٥ : ١١/١٥١) .

١٥٦ : ٩ الخطيب ٢٧٠٥ النزهة ٣٦٥ البغية ١٧٥ ، (٥ : ٨/١٥٢) .

١٥٦ : ١٣ البغية ١٧٥ .

١٥٧ : ٢ ثبت في التتف المجموعة بآخر بلدانه ص ٣٧٢ أنه كان حياً سنة ٢٩٢ هـ والمطبوع من مؤلفاته التاريخ والبلدان ، (٥ : ١٥٤/٦) .

١٥٩ : ٩ الصواب : أسوة بابن الأرقط .

١٦٠ : ٤ الصواب : كتاب ترجمته كتاب الثمرة ، (٥ : ١٦٠/٤) .

١٦٠ : ٦ الصواب : ابن زولاق ، مؤرخ مصر المتوفى سنة ٣٨٧ هـ .

١٦٠ : ١٢ الأغاني ٢٠ × ٥٦ كتاب بغداد ٢٣٤ الخطيب ٢٦٩٢ ابن عساكر ٢ × ١٢١ الأوراق (الشعراء) ١٤٣ و ٢٠٦ لأخبار عائلته وأشعارهم ، (٥ : ١٦١/١) .

١٦٠ : ١٣ الصواب : العجلي أبو جعفر (بالولاء) ، (٥ : ١٦١/٢) .

١٦٠ : ١٦ قول الصولي في الأوراق الشعراء ٢٣٦ ، (٥ : ١٦٢/٢) .

١٦١ : ١٢ الألف كذا وانظر .

١٦٢ : ٣ الصواب : كيف أتتها من الأوراق وغيره .

١٦٢ : ٦ الصواب : بن ناقيا . وله ترجمة في الوفيات رقم ٣١٧ وهو صاحب المقامات وطبعة صاحبنا الأستاذ رشر ، (٥ : ١٦٥/٣) .

١٦٣ : ٦ الصواب : أريد اخصَرَ .

١٦٤ : ١ الجهشياري ٣٨٥ ، (٥ : ١٧٠/٥) .

١٦٦ : ٣ الجهشياري ١٤٨ ، (٥ : ١٧٢/١١) .

١٦٦ : ١٤ الجهشياري : فلما صرت إلى باب الإيوان ، (٥ : ١٧٣/١٣) .

١٦٦ : ١٦ الصواب كما في الجهشياري أيضاً (وفَرّجْ) كما هنا لا غير .

١٦٦ : ١٨ الصواب عند الجهشياري : فقال لي كأني بك يا يوسف وأنت تقول ، (٥ : ١٧٤/٥) .

(يتبع) عبد العزيز الميمني



الخراج والنظام الضرائبي

في مصر الأموية

لا بد لكل دارس لكتب الخراج أن يخرج بنظرة عميقة للأسس التي وضعها الفقهاء مسترشدين بالروايات السلفية التي تناولت النظام المتبع في فرض الخراج وغيره من ضروب الالتزامات المالية غير أن الوثائق الخراجية والسجلات التي عثر عليها تبدو متضاربة مع أسس كتب الخراج ، غير أن تلك الأسس التي وصلت الينا من خلال كتب الخراج والأدب الفقهي لم تكن لتطبق على علتها وبحذافيرها ، لأنها كانت تجانب روح التشريع وعدالة الإسلام ، وهناك كثير من الشواهد التي تثبت واقع الحال هذا وتخالف الأسس الخراجية الفقهية ، لأن تطبيقها يخالف روح التشريع ومبدأه الذي وضع بدون تخصيص بل كمبدأ عام . ان الجباية قد اتبعت منهجاً عادلاً يطابق الغرض من روح التشريع متفهماً واقع الحياة والظروف المحيطة به ، لذلك كثيراً ما نجدها غير متمسكة بهذه الأسس ولا تطبقها ، لأنها تنزل الإجحاف والضرر بالعامة ، فالقول بفرض ضريبة معينة ثابتة على أرض محددة ، أمر يستحيل تطبيقه لعدم عدالته ، بل نجد هناك اعتبارات لم يتناولها الشرع عند وضعه هذا المقياس العام . لذلك كانت الضرائب تفرض حسب مقتضى الحال والظروف الملائمة ، وتجبى بالتعديل وطبقاً للاصطلاح الفقهي السلفي « عفو ـ فضل ـ طاقة » .

ولما كان العرب في أول عهدهم بمصر ليست لديهم الدراية التامة بأحوال أهل البلاد التي سادتها فترة من الافقار والسلب والنهب قبل الفتح الإسلامي ،

فقد رؤي أن يطبق ما جرى به العرف سابقاً من نظم ضرائبية إن كانت في صالح البلاد. وكلنا يذكر المحاولات التي دارت بين الفاروق عمر « رض » وعمرو بن العاص وما كنا نقبل رضاء عمر بن الخطاب على رد عمرو بن العاص بعد حدّة في طلب خراج عال وتملل عمرو، لولا أن الأمر كان يهدف إلى مصلحة أهل البلاد ولا يرهق كاهلهم. ومنذ تلك الفترة وضعت الأسس التي طبقت في الجباية وأُدخِلَ في اعتبارها ما جرى به العرف من نظم ضرائبية سابقة، مفيدة لأهل البلاد، لذلك لم تطبق الأسس الخراجية الفقهية، إذ لو تم ذلك لكان مجافياً لروح العدل متجاهلاً حقيقة الدور الذي يلعبه النقد وصلته بالأسعار وقيمته الواقعية وقوته الشرائية إذ أن الأسس هذه لم تكن ثابتة بل متكيفة مع الظروف، ففرض دينار في وقت رخاء واستقرار، أمر سهل، بينما دانق في عسر وغلاء يعتبر عبئاً يثقل كاهل دافعه.

وتثبت الوثائق الخراجية والإدارية التي عثر عليها في مصر، بأن الإدارة الأموية لم تتقيّد بأصول فقه الخراج، وإنها تفهمت الواقع الناشيء عن وجوب معاملة الخراج بروح المنطق والواقع، لذلك أبقت الدولة الإسلامية الناشئة على النظم المعمول بها في الأمصار بعد أن كيّفتها بالروح العربية الخلاقة العادلة. واستمر الحال بهذا النظام إلى أن عربت الدواوين في نهاية عهد الدولة الأموية. وأصبح للنظام الخراجي آدابه المعمول بها والتي استمرت إلى أوائل حكم آل عثمان.

ولقد خدمت الوثائق الخراجية الإسلامية التي عثر عليها في مصر تاريخ الإدارة الرومية لمصر أعظم الخدمات، إذ أنها أكملت الفجوات الواسعة غير المترابطة للنظام الإداري، لأن الوثائق الرومية لم تستطع أن تقدم الأسس التي يمكن أن تسهم في تخطيط هذا النظام.

وجلّ هذه الوثائق محرر إما باليونانية أو القبطية ونادراً ما كانت بالعربية ، ولقد حفظت لنا الاصطلاحات الإدارية الرومية بنصّها ، وهذا ما ساعد على تقديم صورة واضحة للنظام الضرائبي الرومي في مصر ، من خلال الإدارة الإسلامية ، وكما ساعد على تقديم أجل الخدمات للتاريخ الرومي ، التي لم تستطع مراجعه ومستنداته تقديمه .

ولقد بينت لنا رواية منقولة عن عمرو بن العاص المنهاج الذي اتبعه في جباية الخراج بمصر ، وهي قد أيدت الأسس التي اتبعت في الجباية متجاهلة القيود الفقهية التي تبدو في بعض الأحيان مجحفة بأهل البلاد ، كما أنها صورت النظام الرومي الضرائبي بصورة واضحة ، ولكن بعد أن كيفته بالروح الإسلامية العادلة . إذ يقول ابن عبد الحكم « أقرّ القبط على جباية الروم وكانت جبايتهم بالتعديل .. فجمع عرفاء كل قرية ومأزونها [Maizones] ورؤساء أهلها فيتناظرون في العمارة والخراب حتى إذا أقرّوا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع . ثم يرجع سكان كل قرية بقسمهم ، فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة ... فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ثم يخرج منها عدد ضيافة المسلمين ونزول السلطان ، فإذا فرغوا نظروا إلى ما في كل قرية من الصناع والأجراء فقسموا عليهم نصيبهم بقدر احتمالهم ، فإن كانت فيهم جالية (جزية) قسموا عليها بقدر احتمالها وقل ما كانت تشمل الجميع ما عدا الرجل المنتاب أو المتزوج ، ثم ينظرون في ما بقي من الخراج ، فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم ... »

هذا هو الأساس الذي وضع إجمالاً في فرض الخراج وغيره من الإلتزامات المالية ، وهو لا يتفق مع تفاصيل الأسس التي وضعها فقه الخراج إلا من حيث روحه العادلة ، كما أنه لا يتفق مع تفاصيل الجباية الرومية التي لم تتسم بالعدل .

إن الضرائب التي اصطلح على تسميتها بالخراج كانت تجبى من أهل الذمة ومن هؤلاء المسلمين الذين كانوا يتملكون أرضاً خراجية ، والتي عوملت نفس معاملة الأرض الخراجية ، وليس بالعشرية كما كان يتم في سواد العراق التي انتقلت إلى أرض عشريّة في منتصف الدولة الأموية بسبب الهبات والإقطاعات التي منحت لرجال الدولة .

والجباية في مصر كانت تجمع بنوعيها النقدي والعيني . وكانت بنوعيها خاضعة لتقسيم آخر هو ضرائب عامة أطلق عليها Puplicus وضرائب غير عادية أطلق عليها Extraordina .

والضرائب العامة التي تقابل في اصطلاحنا الخراج كانت تجبى في شكلين أولها نقدي وثانيها عيني أي ضريبة القمح الرومانية والمسماة Embola [1] .

والضريبة العامة كانت تتضمن أيضاً ثلاثة أنواع من الضرائب . أولها : خراج الأرض ، والثاني جزية الرأس أو الجالية ، وثالثها ما يسمى باليونانية Dapani [2] وكان النوع الأول أي خراج الأرض ذا أهميـة كبرى لأنه

(١) أهم المراجع المستخدمة هي مجموعات أوراق البردى المحفوظة في المتحف البريطاني ودار الكتب المصرية واختصارات الكتب هذه كالتالي :

متحف بريطاني = Greek Papyri in the British Museum

دار الكتب = Arabic Papyri in the Egyptian Library

متحف بريطاني ج ١٤١٢ ، ١٤٣٠ سجل الخراج ودار الكتب ج ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ـ ١٦٥ ، ١٦٧ ، ج ٢ ص ٦٠ ، ٦٣ .

(٢) راجع متحف بريطاني سجل الخراج .

مصدر ضرائبي هام كان مخصصاً لدفع المعاشات (طعام المسلمين) ومصاريف جباة الضرائب والإدارة المحلية (١)، أما الجزية فكانت تجبى فقط من الرجال البالغين وطبقاً لشروط قدمتها لنا آداب الخراج (٢) .

وخراج الأرض « Dimosia » كان يفرض فقط على كل مالك لأرض أو مستنفع بصرف النظر عن كونه رجلاً أو امرأة . وتبين لنا الوثائق الخراجية بأن هناك فئات كانت تدخل تحت هذا النوع من الضرائب التجارية إلا أنها كانت تسجل في سجلات الخراج تحت اسم ضريبة الأرض dimosia (٣) وهي لا تخضع في شكلها إلى ضريبة جزية الرأس ولكنها كانت تلحق بالخراج .

إن العشور الاسلامية التي أوضحتها لنا كتب الخراج ، لم تكن سائدة من عهد رسول الله ﷺ إذ ان الوثائق غير كافية لكي نحكم بعكس ذلك ، ولكنها بدأت تجبى بشكل واضح في عهد الخلفاء الراشدين ، وقد طبقت على أهل الذمة بمقاييس تختلف عن المقاييس التي كان يخضع لها المسلم ، والتي كانت تدعى بالزكاة ، وهي من أركان دينه . غير أن العشور أصبحت ضريبة خراجية تجبى من المسلم والذمي والحربي ، يدفعها المسلم كزكاة بنسبة ٢,٥٪ والذمي بنسبة نصف العشر ٥ ٪ وآخرون مثل الحربي المتردد على دار الإسلام والذمي في بعض الحالات بنسبة العشر ١٠٪ (٤) هذه الضريبة كانت تدفع في مصر تحت أسماء متعددة وطبقاً لمقتضى الحال المهني وطبيعته .

---

(١) متحف بريطاني ١٤١٩ .

(٢) Catalogue of the Greek Papyri in the John Rylands Library. Vol. II P. 322.

(٣) متحف بريطاني ، ١٤١٩ ــ ١٢١٠ وابن عبد الحكم . ص ١٥٢ .
دار الكتب ، ٢١٤ جزء ٣ ص ٢٢٧ ــ ٢٢٩ .

(٤) أبو يوسف ص ١٣٣ كتاب الخراج والسمرقندي ، ج ١ ص ٤٨٨ .

وتظهر لنا الوثائق الخراجية بأن ضريبة القمح Embola وهي جزء هام من خراج الأرض (Dimosia) تختلف قليلاً عن مثيلتها في العهد الرومي ، وكانت في الأصل تفرض على الأرض غير أنها كانت تفرض أحياناً على بعض الأشخاص الذين لا يتملكون أرضاً [١] ، مثال ذلك الراعي الذي لا أرض له فانه كان يدفع ضريبة القمح Embola ونظراً لأنه لا ينتج قمحاً ، فانه كان يدفع ٣ قراريط سنوياً كضريبة إن لم يستطع تقديم القمح وذلك تحت بند الخراج (Dimosion) [٢] ، ومن حالات أخرى نجد أن ضريبة خراج الأرض كانت تدفع تحت اسم Dimosion ، ولما كانت الأرض لا تنتج قمحاً فان ضريبة القمح العينية كانت تعتبر وكأنها مقابلة لنفس الضريبة التي تدفعها أرض غير مزروعة [٣] ، وبأنها تدفع عيناً وليس نقدياً ... ورغم أن الضريبة عينية ، فاننا نجد أحياناً أنها كانت تستبدل ضريبة نقدية ، غير أن الإدارة المركزية في دمشق لم تكن تشجع على هذا الاستبدال بقدر المستطاع . ومن الظن بأن الدفع النقدي قد يعتبر كضريبة القمح Embola ولكن لا يمكن اعتباره كضريبة خراج الأرض رغم أن ذلك ليس بمؤكد [٤] .

ويظهر من المستندات الضرائبية بأن ضريبة القمح العينية كانت تتنوع في كميتها وتختلف من وقت لآخر ، خلافاً للضريبة النقدية الذهبيـــة التي كانت باستمرار ثابتة .

---

(١) ذكرهم ابن عبد الحكم بالصناع والأجراء .

(٢) متحف بريطاني ١٤٢٦ ، P. Ryland ، ١٨٨ ودار الكتب ، ١٩٦ ، ٢١٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ وقد ذكرت البرديات هذه نوع الضريبة كضريبة الراعي وكذلك كالمروج تبعاً لبرديات ٩٩ ، ١٦٣ . وقد ذكر السمرقنـــدي ص ٤٩٧ في تحفة الفقهاء بأن الأرض المهجورة تدفع الخراج لأن السبب هو عدم الرغبة في الزراعة . هذا بينا أكد أبو يوسف على أمر جباية ضرائب المراعي والمروج .

(٣) متحف بريطاني ١٤٢٨ .

(٤) متحف بريطاني ١٤٣٤ .

وقد اصطلحت كتب الخراج على تسمية هذا النوع باسم خراج المراعي (١) .
وكانت هذه الضريبة العينية تجبى من خراج الأرض من القمح والشعير غير أن الشعير كان يجبى بكميات قليلة ، وكان لهذا النوع من الضرائب موظف سمي Embolarchis (٢) .

وكانت ضريبة الخراج العامة Publicus تجمع عدداً آخر من الضرائب إلى جانب خراج الأرض « Demosia » وهذه الضرائب يمكن اعتبارها ضرائب غير عادية « Extraordina » (٣) ، وقد أصبحت هذه الضرائب الاستثنائية ذات شكل ثابت تكاد تجبى ، وصارت تذكر في سجلات الخراج بشكل يجعلها من ضمن الضرائب العادية (٤) . وإلى جانب هذه الضريبه نجد ضريبة أخرى غير عادية أطلق عليها Tetartia وهي تشبه مثيلتها الرومية Prosdiasraphomina التي كانت تجبى كضريبة مالية قرطاسية (٥) وهي لتغطية المصاريف العامة مثل معاشات الموظفين والحامية العربية ، وكمؤنة للصناع وللأعمال البحرية ، ومصاريف إنشاء المباني العامة الخ (٦) ، وكما

(١) أبو يوسف ص ٨٨ ، ١٠٣ .
(٢) متحف بريطاني ١٤٤١ ، دار الكتب . ج ٣ ، ص ٦٢ وعن الموظف المختص بهذه الضريبة راجع متحف بريطاني جزء ٤ مقدمة ص ١٦ وبردية ١٤٥٧
(٣) متحف بريطاني ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤٧٠ .
(٤) « بريطاني ١٤١٤ و Karabacrk. Wzkm, XI P. 14
وبصدد اخطارات الدفع راجع Collection of the Papyrus Erzherzog Rainer, Wien, p. 3628
دار الكتب ١٤٥ ، ٢٣٥
(٥) متحف بريطاني ١٤١٤ .
(٦) « بريطاني ١٣٦٢ حيث طالبت البردية صاحب الكورة بتقديم جذوع النخل اللازمة للمباني العامة برديات ١٣٦٨ ، ١٣٨٠ بينما تطالب البردية ١٣٦٨ بارسال سلاسل حديدية إلى مسجد دمشق . وتطالب بردية دار الكتب رقم ١٤٨ بارسال « ثمن رزق الأمير وحاشيته وعماله » .

يظهر فإن هذه الضريبة لم تكن محددة وثابتة ، فطوراً كانت تدفع عينياً ، وأخرى نقدياً (١) .

وإلى جانب ذلك نجد بأن السلطات المركزية كانت تطلب من دافعي الضرائب بعضاً من الخدمات الشخصية في كافة الميادين ، وتلقي طريقة تقدير وفرض هذه الخدمات الضوء على وسائل جمعها وأدائها .

ومن الواضح أن هذه الخدمات تشبه مثيلها في العهد الرومي وهي تختلف كثيراً عن الخراج والجزية ، غير أن طريقة الفرض والأداء كانت واحدة من حيث المبدأ مثل مقابلها في الدولة الرومية .

ونجد أن رجال الفقه الإسلامي لا يتفقون في الرأي مع هذا النوع من الخدمات ولا يقرون باعتبارها الحالي كخراج أو جزية ، بل هم نددوا بها وحذروا الولاة والعمال من طلبها من أهل البلاد . ولكن هــــذا النوع لم يُفرَض من قبل الحكومة المركزية بدمشق بل عن طريق رجال الإدارة المحلية .

وكانت واجبات الإدارة المحلية الاحتفاظ بسجل عن كل كورة (٢) مقيد بها أسماء جميع واضعي الضرائب ومساحة الأرض المملوكة ، وبالقيمة الخراجية المحملة عليهم ، وكذلك بقوائم منفصلة عن الأراضي وإنتاجها (٣) فإننا لنجد بها بياناً بأنواع الأشجار والنباتات التي تقدم محصولات زراعية مثل النخيل والسنط (٤) بشكل دقيق ومفصل مع ذكر الإنتاج وكميته (٥)

(١) متحف بريطاني ١٤١٤ .
(٢) « بريطاني ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٥٦ ودار الكتب ٢٠٠ ــ ٢١٤ .
(٣) ما سبق وبردية ٩٣٩-١ .
(٤) دار الكتب ١٦٣ .
(٥) متحف بريطاني ١٦٣١

والغريب أن أرباب الحرف والصناع قد قيّدوا في هذا السجل مع ذكر أنواع مهنهم وعدد مساعديهم وصبيانهم (١) وكان هناك مسئولون عن هذه السجلات كل منهم له تخصيصه في نوع العمل ، وكان على رأس هؤلاء المأزون Meizones (٢) . وهذه السجلات كانت تبين مقدار الجباية المطلوبة ، وما قد جبي بالفعل منها على أقساط ومقدار كل قسط .

ولقد كان من حق أي دافع للضرائب أو أي كورة أن يتقدم بالشكوى مباشرة إلى الوالي ، إذا ما فرضت عليهم ضريبة باهظة . وعلى أساس سجلات الخراج فإن الحصة السنوية المحددة من الضرائب كانت تقسم إلى بنديها العادي والاستثنائي ، وبذلك يسهل عمل صاحب الكورة في جمعها ، وكانت توزع بعد ذلك أنصبة وخصص كل قرية أو أي وحدة إدارية طبقاً لهذه السجلات . وكانت عملية تقسيم الضرائب وتوزيعها إلى حصص وفرضها تتم على أيدي موظفي الخزانة المركزية بالفسطاط (بيت المال) وليس في الكورة نفسها . وتبين هذه الظاهرة بأن السجلات كانت تحمل بانتظام إلى المركز الرئيسي (٣) حيث تراجع مراجعة دقيقة ، وذلك حتى لا يقع صاحب الكورة في الأخطاء أو في عدم العدل في توزيع هذه الضرائب على السكان ، وكان موظفو الكورة مسئولين مباشرة أمام الإدارة المركزية ، وعليهم مراجعتها باستمرار (٤) .

وكان في الإمكان تأجيل دفع الحصة المفروضة من عام إلى آخر ، إذا كانت هناك دواع وأسباب إلى ذلك ، ولكن بشرط أن تبقى هذه الحصة

---

(١) الهامش السابق .
(٢) متحف بريطاني ١٣٥٦ .
(٣) » بريطاني ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٥٦ .
(٤) » بريطاني ١٣٣٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٤٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٧٠ ، ١٤٣٧ الخ .

المفروضة في حدود قيمتها وكميتها المطلوبة من قبل ورغم أن الحصص المفروضة كانت محددة ، غير أن الجباية لم تكن تلقائية وحرّة ، بل نجد أن الوالي كان هو الذي يحدد النسبة التي يجمعها الجابي ، وكانت الضرائب تجمع على دفعتين سنوياً ، وكل دفعة كانت تقسط إلى قسطين أو أكثر [١] وكان متولي الخزانة المركزية يقوم سنوياً بحساب المبالغ المطلوبة من كل كورة أو جهة إدارية ، وبمقتضى هذا فان الوالي كان يرسل بأوامر الجباية المطلوبة من كل كورة ، مبيناً لصاحب الكورة التوزيع للحصص المكلف بجمعها من كل وحدة ، أو قرية ، وذلك حسب أمر الجباية ، في الوقت الذي يوجه فيه إلى أهل المنطقة إشعاراً مبيناً فيه المبالغ المفروضة عليهم [٢] وحالما يتلقى السكان هـذا الإشعار فانه يتم اختيار بعض العرفاء Epilegomai حسب الطريقة المستخدمة في انتخاب جباة الضرائب [٣] ، فيقومون بتقسيم الحصة المطلوبة على أهل المنطقة ، وتقدير نصيب كل فرد منهم ، وهم بدون شك يعتمدون في ذلك على سجلات النفوس وحصرها Katasraphon .

أما أمر الجباية الذي يصدره الوالي فكان يشتمل عادة على الضرائب المطلوبة كالخراج وضريبة القمح ، ويبقى على فارضي الحصص هؤلاء توزيع المبلغ الإجمالي للخراج والجزية ومصاريف الحكومة Depani على حصص صغيرة ، فيقررون من الذي سيدفع كل ضريبة ومقدار القسط المطلوب جبايته من كل واحد منهم [٤] ولهم الحق كذلك في فرض المقدار الذي يدفع عن كل نوع من الأرض المزروعة ، مع تعيين الأفـــراد Ovoma الذين يفرض عليهم دفع ضريبة ما .

---

(١) متحف بريطاني ١٥٧٠ .
(٢) « بريطاني ١٥٧٠ .
(٣) « بريطاني ١٤٢٠ ، ١٥٥٢ .
(٤) « بريطاني ١٤٢٠ ، ١٥٥٢ .

ومما لا شك فيه أن كل ذلك يتم على أساس سجلات حصر النفوس التي تراجع بشكل دوري (١) وفي حالة وجود بواق للضرائب لا تعرف طريقة فرضها ، فإنه يحتم الرجوع إلى الإدارة المركزية في شأنها . غير أن مصاريف الإدارة المحلية يكون الأمر في فرضها وجمعها بيد صاحب الكورة ومساعديه ، بدون الرجوع إلى تعليمات خاصة .

وتظهر الوثائق الخراجية بأن هناك أجراء مماثل لما بيناه بالنسبة للضرائب غير العادية ، إذ أن الحصة المطلوبة منها لم تكن تقل بأي حال عن الحصة المفروضة في الضريبة العامة Demosia ، ومهما كانت هذه الحصص قد فرضت للايفاء بأهداف خاصة ، كتغطية مصاريف غير منظورة للإدارة المركزية ، فإنها كانت عامة تنصب للشئون البحريَّة وغيرها من الطوارئ العاجلة ، وكانت مبالغ محددة تفرض عندما يستدعي الحال ذلك . وفي بعض الحالات نجد بأن المصروفات قد تكون أقل من المبلغ المفروض أو أكثر منه ، ومثالاً على ذلك نجـــد في السجلات أن هناك مبلغ ٢٤ ديناراً و ١١ قيراطاً قد استدينت لكي تغطي مصاريف إحدى المهات التي فرضت لها حصة أقل من الواقع (٢) وهذا يشكل صعوبات كثيرة في الإيفاء بالمصروفات المطلوبة عينياً خلافاً لتلك المطلوبة الأداء نقداً .

ونجد بأن توزيع أوامر الجباية وإشعارات الدفع في الكورة الواحدة ، كان يتم بمقتضى الإجراءات المتبعة في جباية وفرض الخراج بالمركز الرئيسي . أما مطالبة الأشخاص بأنصبتهم في هذه الضريبة فإنه كان يتم محلياً (٣)

---

(١) متحف بريطاني ١٣٥٦ ودار الكتب ١٤٦ .

(٢) » بريطاني ١٤١٤ ، ١٤٧٠ .

(٣) » بريطاني ١٤٤٨ .

ولم يكن هناك فروق واضحة ومميزة بالنسبة للضرائب غير العادية ، وإذا كانت ستؤدى عينية أو نقدية ، والشيء المميز هنا بالنسبة لهذا النوع هو طلب الأشياء نفسها بمسمياتها بصرف النظر عما إذا كانت قد اشتريت بواسطة الإدارة المحلية ، وإنما المهم هو طلب الشيء نفسه مثل سلاسل من الحديد من منطقة لا تصنعها وهنا نرى أن الضريبة العينية هذه قد أديت نقداً ، بينما نجد في حالة أخرى أن أمر دفع الضريبة كان يلزم بدفعها نقـــداً لغرض شراء أشياء وأدوات عينية (١) .

وإن الأمر غير واضح لنا ، لأن عملية تقدير هذه الضرائب غير العادية كانت في ذاتها غير واضحة ، ففي بعض الحالات نجد أن هناك ضريبة نقدية كانت تجمع لأداء طلبات عينية وفي بعض الحالات الأخرى كانت تجمع ضرائب عينية لوفاء ضرائب نقدية .

وكان خراج الأرض العام Demosia يدفع على أقساط إلى الخزانة المركزية في الفسطاط (سكـّلات الغلال Sakella) ، غير أن هذه الأقساط لم تكن تشمل جميع الحصص المطلوبة من المنطقة . كما وان جزءاً من المصاريف العامة Logisima والمدفوعات المفروضـــة (٢) المخصصة للصرف على بعض الأغراض ، كانت تدفع نقداً إلى المسؤولين عنها مباشراً وليس عن طريق الخزانة العامة (بيت المال) (٣) وكان يتبقى عادة جزء من الحصص المفروضة بعد وضع حصة المصاريف العامة وحصة الخزانة ، كذلك خصص جزء منها للمصاريف المحلية كأجور الموظفين وغير ذلك .

---

(١) متحف بريطاني ١٥٠٨ ـ ١٥٠٩ .

(٢) » بريطاني ١٤١٤ بالنسبة للضرائب العينية المدفوعة نقداً ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٤ للضرائب العينية انظر برديات ١٣٥٤ و ١٣٥٣ ، ١٤٣٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٣ ، وبالنسبة للمصاريف العامة انظر ١٤١٤ .

(٣) متحف بريطاني ١٣٣٦ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ .

وعلى العموم نجد بأن جميع حصص الخراج العام Demosia والتي كانت تفرض كمصاريف عامة Dapane كانت تطلب كلها بواسطة الخزانة (١) وكانت ضريبة القمح العينية تقسم إلى قسطين تمهيداً لنقلها إلى مخازن الغلال في بابليون وإلى بند Dapane والتي هي بدون شك مصاريف إعاشة الموظفين المحليين (٢) . وبالنسبة للخراج النقدي وضريبة الطعام Embola العينية فان حصة كبيرة منها تدفع إلى شون بابليون والخزانة العامة إما في بابليون أو الاسكندرية . وكانت تخصص كمعاشات نقدية وعينية للحامية العربية ، وأطلق عليها رزق أو طعام المسلمين . وكان جزء منها يذهب إلى أنحاء الدولة الاسلامية في وقت الحاجة اليه ، فلقد روى لنا التاريخ بأن عمرو بن العاص أرسل بكميات ضخمة من القمح والطعام إلى المدينة في السنوات الأولى للفتح الاسلامي وذلك لانقاذ الحجاز وعاصمة الدولة الاسلامية من الجوع الذي عم البـــلاد في عام الرمادة (٣) .

ولم يبق إلا أن نبحث أمر الخدمات الشخصية التي كانت تطلبها الادارة المركزية من السكان ، ونجد بأن نفس الاجراءات قد اتخذت بالنسبة لهذه الخدمات مثل ما اتبع من قبل في فرض الضرائب . فالادارة المركزية تخصص حصص الأعمال المطلوبة على الكور ، وذلك في خطاب موجه إلى صاحب الكورة مصحوباً بأوامر فرض الضرائب وبعدد الأشخاص المطلوب منهم أداء مثل تلك الخدمات . أما أمر التكليف الشخصي لمن يقوم بهـا

(١) متحف بريطاني ١٢٧٠ ، ١٣٧٥ دار الكتب ١٤٦ ابن عبد الحكم ص ١٥٣ .
(٢) « بريطاني ١٤٣٤ ، ١٤١٤ .
(٣) ابن عبد الحكم ص ١٥٩ ، ١٦١ ذكر ما أجراه عمرو بن العاص بمناسبة عام الرمادة وكيف أنه شق قناة تراجان إلى البحر الأحمر حتى يسهل إرسال الغلال إلى الحجاز انظر موير ، تاريخ الخلافة ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

فانه كان يتم محلياً وطبقاً للسجلات التي أعدها فارضو الضرائب (١) ، ورغم أن هذه الخدمات كانت على العموم اجبارية ، فانه لا يمكننا أن نطلق عليها اسم السخرة لأن القائمين بها من بحارة ونوتية وعمال كانوا يتلقون أجوراً على أعمالهم . وهذه الخدمات كما تبدو لنا هي عبارة عن إلزامات إدارية ، فمثلاً نجدها عادة تمتزج بما يطلق عليه العمل العيني ، أي أن تطالب الادارة المركزية أشخاصاً بعينهم ، وفي بعض الحالات تطلب أجور بعض الأشخاص من منطقة ، إذا لم تستطع تقديم أحد للقيام بمثل هذه الخدمات . ووجه الخلاف هنا بأن يطلب أداء بعض الخدمات المحددة بعدد من الأشخاص بصرف النظر عما إذا كانوا قد استؤجروا محلياً وأرسلوا لأداء الخدمة أم لا . (٢)

وكان هـــذا العمل الإلزامي يقسم إلى عدة حصص ، كانت البحرية تحظى بمعظمها . وبطبيعة الحال فان الخدمة البحرية كانت تعكس طموح الدولة العربية الفتية في دمشق للسيادة على البحر المتوسط . ولم يكن هذا النوع من الالزام معروفاً على عهد الفاروق عمر بل بدأ في عهد عثمان بن عفان ، ولا نعجب لذلك لأن موقف عمر (رض) معروف بالنسبة لركوب البحر . ولقد أطلق عثمان يد معاوية بن أبي سفيان في أمر تشييد الأسطول الاسلامي ، وسرعان ما شب الأسطول الأول ووضع يده على قبرص وواجه الأساطيل الرومية في عدة معارك بحرية حاسمة وانتصر عليها . لذلك لا نستغرب طلب الادارة المركزية في الفسطاط والحاحها في طلباتها العديدة الموجهة إلى قرى صعيد مصر البعيدة في طلب نوتيـــة للعمل في خدمة الأساطيل البحرية العربية ، أو للعمل في ترسانات (مصانع) بناء السفن بباليون والاسكندرية والقلزم ورشيد . ولقد ازداد الطلب على الخدمة البحرية عندما بدأت السلطات المركزية في دمشق بتوجيه نشاطها إلى شمال إفريقية وإسبانية .

---

(١) متحف بريطاني ١٣٥٦ .

(٢) « بريطاني ١٤٣٣ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ .

وإلى جانب هذه الأنواع من الضرائب التي وصلتنا عن طريق الوثائق الضرائبية ، فاننا نجد العديد من الأنواع الأخرى التي فرضتها الخزانة المركزية في الفسطاط وهي تتفق في أنواعها مع ما جاء في كتب الخراج . ولا يجوز أن نتجاهل مثل هـذه الوثائق الخراجية رغم أنها ترجع إلى عصر متأخر نوعاً ما ، لأن كتب الخراج قد ذكرتها . لذلك لا يمكن أن ننفي حقيقة فرضها وجبايتها لأننا لم نعثر على وثائق خراجية لهذا العصر .

فلقد فرضت ضرائب على المصايد وعلى القنص ، وكانت بنفس المعايير التي اتبعت في العهد الرومي [١] وبالنسبة لضرائب الصيد فقد قدمت لنا كتب الخراج نسبها كـ ٢٠ ٪ وهي لم تختلف عنها في العهد الرومي إذ كانت ٢٥ ٪ وبطبيعة الحال فإن كتب الخراج قد ذكرت صيد البحر في عهد متأخر لأن العرب في أول عهدهم لم يكن لهم اهتمام بالبحر ، لذلك فان الروايات المبكرة في كتب الخراج لم تتناول هذا النوع من الضرائب . وكل ما جاء في كتاب الخراج لأبي يوسف كان عبارة عن نصّين لتأجير بحيرات تستخدم لصيد السمك ، وليس على الصيد نفسه [٢] . وقد ناقش الفقهاء هذه القضية التي حاولت أن تجعل فرض ضرائب على خراج البحر كاجراء غير فقهي ، وحاولوا جعل هذه الضرائب في حكم العشر والزكاة بينما نجد وثائقنا قد فرضت ٢٠ ٪ للضريبة وهي تخالف الحدود التعامل بها في العشر والزكاة . [٣]

---

(١) هذا النوع كان معروفاً في العهد الروماني والرومي وكذلك في العهد الإسلامي وقد رواه لنا أبو يوسف في رواياته وسماه الأحباس المعروفة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . أبو يوسف ص ٧٠ ، ٨٧ .

(٢) راجع كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٨٧ .

(٣) Tauberschlag, the Laws of Greco - Roman Egypt Warszawa, 1955 P. 663
ذكر بأن هذه الضريبة كانت ٢٥٪ .

والنصوص الخراجية بينت لنا ضريبة تدعى المصايد منذ وقت مبكر ، وهي تشابه مثيلتها في العهد اليوناني (١) وكانت هناك ضرائب تفرض على المراعي (٢) وعلى المروج (٣) وأخرى على المكس وهي مثل الضريبة Telos الرومية (٤) .

وهناك العديد من الضرائب التي تعامل كالعشور ، ولكننا لا نملك لهـا وثائق خراجية من العصر نفسه ، وهي مثل ضرائب الحطابين ، والنساجين والغزالين وغيرهم من أهل الحرف . وهي التي وردت في وثائقنا ضمن خراج الأرض . غير أننا لم نتمكن من معرفة ما إذا كانت من ضمن حصة أهل القرية من خراج الأرض أو فرضت عليهم بصفة مهنية .

ولقد قدمت لنا كتب الخراج مقاييس عديدة لفرض الخراج على الأراضي بأنواعها ، كالمزروعة وغير المزروعة والتي تروى بالماء ، أو التي تروى بالأمطار والآبار والمياه المنقولة .. غير أن هذه المقاييس لم تتفق مع ما جاء في وثائقنا الخراجية ، إذ أن تلك المقاييس لم تستخدم عند فرض الخراج ... ولكن ما بقي في وثائق الخراج هو استعمال هذه الأنواع من الضرائب وهو استعمال لفظي فقط ، أما المقاييس في الفرض فتركت . فمثلاً وثائقنا قدمت ضرائب

---

(١) دار الكتب ٢٣٣ و Erzherzog برديات ٥٧١١ و ٧٢٧٧ و ٩٠٣٢ .

(٢) تبين لنا البرديات بان هناك سجلات خاصة للماشية والحيوانات المنزلية حسب أماكن تواجدها دار الكتب ٢٣٣ ، ١٩٦ ، ٢١٢ وهذه الضريبة تقابل مثيلاتها في كتب الخراج أي العشور للذمي والحربي .

انظر « أبو يوسف » ص ١٣٢–١٣٧ والسمرقندي ٤٣٧–٤٥١ ، ٤٩٥- ٤٩٩ .

(٣) دار الكتب ٢٣٨ ، أبو يوسف ص ٧٠ .

(٤) دار الكتب ١٤٧ ، وراجع كتب الخراج بالنسبة « للمكس » ومبدأ فرض المكوس وأن أول متولي المكس كان ربيعة بن شرحبيل بن حسنة أيام عمرو بن العاص .

لـ المآله (١) خراج النخل (٢) ، خراج الخردل (٣) ، خراج الخضر (٤) ، خراج القصب (٥) خراج القرط (٦) خراج الكروم (٧) .

وقدمت لنا كتب الخراج أنواعاً أخرى من الضرائب تجبى على التعدين والركائز وهي هنا تتجاوب مع النظام الذي كان يخضع له المسلم الذي يدفع الزكاة والعشر ، وكانت تصل إلى ٢٠ ٪ (٨) .

وبالنسبة للجالية أو ضريبة الرأس أي الجزية فإن وثائقنا الخراجية قد دمجت هذه الضريبة في ضريبة خراج الأرض ولم تكن تجبى طبقاً لما جاء في كتب الخراج ، بل كانت تنوع حسب حال السكان ، فمنهم من كان يعفى منها ، ومنهم من كانت تضاعف عليه ، وغالباً ما كان السكان لا يدفعونها مباشرة ، إذ انها كانت تجبى ضمن حصتهم من الضرائب بدون تسمية ، ولم تكن الهدف الرئيسي من الجباية مثل ما تمّ في سواد العراق وخراسان ، وهذا المبدأ وضعه الفاروق عمر عندما عامل القبائل المسيحية العربية التي أبت أن تدفع جزية الرأس فسماها عمـــر جوازاً العشر وكانت ضعف زكاة المسلم ، أي نصف العشر (١) .

ونلاحظ بأن الضرائب الاستثنائية هـذه قد استفحل أمرها في العهود

---

(١) دار الكتب ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٨٢ .
(٢) « « ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، Rylands ج ٢ ص ٢٥١ أبو يوسف ص ٣٦ .
(٣) « « ٦٣ .
(٤) « « ٦٥ أبو يوسف ٣٦ البلاذري ص ٢٧٠ .
(٥) « « ٢٣٤ ، أبو يوسف ٣٦ .
(٦) « « ٦٥ ، ١٠٠ .
(٧) « « ١٠٠ أبو يوسف ص ٣٦ ، ٨٥ ، يحيى بن آدم ص ٤٩ – ٥٠ وذكر بأن ضرائب الخور هي ١٠٪ .
(٨) يحيى بن آدم ص ١٨ أبو يوسف ص ٧٠ .
(٩) راجع كتب الخراج والبلاذري والطبري بالنسبة للعرب المسيحين وعن الجزية راجع متحف بريطاني ١٤٢٠ ، ١٤٢١ وسجل الخراج رقم ١٨٤٧ ، ١٤١٠ .

المتأخرة مما دعا أبا يوسف أن ينصح أولي الأمر بعدم جبايتها إذ قال : « ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مُدى ولا احتفال ولا زلة ولا حمولة طعام السلطان ، ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الكيالين ولا مؤنة لأحد عليهم . ولا يضربن رجل في دراهم خراج ولا يقام على رجله ، فانه قد بلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد »(١) .

ووثائق الخراج تبين لنا بأن هذه الضرائب الاستثنائية كانت تجبى كأحد فروع خراج الأرض التي كانت تجزأ إلى صنوفها وفروعها المختلفة ، مثل ما يتم في أي موازنة للدولة في العهد الحديث ، والتي تخصص جزءاً من دخلها لمثل هذه الأعمال . ولكن يظهر بأنه في العصور المتقدمة أصبحت هذه الضرائب تجبى إلى جانب الخراج وبشكل يجحف بمصالح أهل العهد ، لذلك ذكره أبو يوسف في تعلياته لأصحاب الكور والدهاقين لتجنبه .

وقد قدم لنا الأدب المسيحي الكنسي صوراً مظلمة للجباية في عهد عبد الملك بن مروان ، وقد جاء به أن أهل البلاد قيدت تحركاتهم وختم على أيديهم وأحصي الرهبان . ولكن وثائقنا قد بينت لنا وأوضحت البيانات التي جاءت في كتب التاريخ الإسلامي آن هذه الاجراءات تمت عند تعداد النفوس الذي كان يجري كل ١٤ عاماً ، وان الغرض منه الحصر أن لا تترك الفرص للتهرب من القيد في سجلات حصر النفوس التي هي الأساس في جباية الضرائب ، والوثائق تبين لنا كيفية إصدار جوازات سفر محلية كانت تصدر عند عمليات حصر النفوس ، حين كان يسمح لأهل البلاد بترك الأماكن التي سجلوا في سجلاتها ، وكيف أن الجباية كانت تتم عن طريق محل الإقامة الجديد لصالح المنطقة التي كان يتبعها في الأساس (٢) .

(١) أبو يوسف ص ١٠٩ .

(٢) راجع ساويرس : الأشموني : تاريخ الكنيسة القبطية ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ . وبالنسبة لتصاريح وجوازات السفر المحلية راجع دار الكتب ص ١٧٤ ، ١٧٥ للمقريزي ج ٢ ص ٤٩٢ وساويرس ٣٠٥ ، ٣١٤ .

وهذه الوثائق بينت عدم صحة اتهام الجهاز الإداري بالقسوة والظلم ، لأنها بينت وقدمت الكثير من الشكاوى التي أزيل بها التغالي في فرض الضريبة واهتمام الادارة المركزية في الفسطاط بمراجعة كل الأمور إلى حد تهديد أصحاب الكور بأقصى العقاب ، إن بدر منهم ظلم . والوثائق التي حررها قرّة بن شريك تُظهر أنه لم يكن والياً قاسياً كما اتهمه التاريخ .

ورغم نقص بعض الوثائق التي لم تقدم لنا كافة أنواع الضرائب الأخرى التي كانت تجبى قبل الفتح الاسلامي ، فاننا نؤيد الحقيقة التي تقول بأن النظام المالي في مصر الأموية كان امتداداً للنظام الضرائبي الرومي الذي ترعرع في العهد الاسلامي والذي لم نعثر له على وثائق كافية قبل هذا العهـــد . ومعرفتنا للنظام الرومي ترجع إلى الوثائق الاسلامية التي لولاها ما أمكن الاهتداء إلى هذا النظام .

وبالرغم من تعريب الدواوين فاننا نجد أن التعابير والمصطلحات الرومية قد تغلغلت في الأدب الخراجي ، ولم تزل إلاّ بزوال الادارة العربية عند فتح آل عثمان لمصر . وقد كانت اللغة اليونانية والقبطية هي اللغة الرسمية لفترة طويلة في الادارة الخراجية إلى جانب العربية التي رصّعت بالمصطلحات اليونانية والتي سادت إلى القرن الحادي عشر ، حيث عربت الادارة بتمامها . غير أن البروتوكول الضرائبي قد استعمل بعد ذلك الصيغ الرومية الضرائبية إلى أواخر العصور الوسطى .

الدكتور عبد المنعم مختار
المحاضر بجامعة بودابست



المدرسة الظاهرية

(دار الكتب الوطنية الظاهرية)

— ١ —

مقدمـــة

انتدبتني وزارة التربية للعمل أمينة لمخطوطات دار الكتب الوطنية الظاهرية ، فأتاح لي عملي الجديد الاطلاع على كنوز خلفها أجدادنا هي زبدة قرائحهم ، وذوب نفوسهم ، ونتاج عمرهم .

وراعتني الغيرة على مصالح الأمة ، والهمة الشماء اللتان بدتا من طائفة من رجال العلم والفضل في نهاية القرن الماضي ومطلع القرن الحاضر ، ورَعتا هذه الكنوز ، وحمتاها قبل فوات الأوان ، وصانتاها من تبديد الأيدي العابثة التي أعمى أصحابها وهج الذهب فمدوها إلى هذا التراث يستلون منه القطعة بعد القطعة ، يبدلونها بمال لا يعدّ شيئاً مها كثر في جانبها غير مبالين بتراث وجهود وتاريخ ..

وزادني حباً بهذه الدار أنها كانت مدرسة ترددت في جنباتها أصوات طائفة كبيرة من العلماء الأعلام ، وتخرجت منها أعداد لا تحصى من طلبة علوم الدين والدنيا ، كان لهم دورهم في عالم الفكر والروح خلال سبعة قرون .

خطر لي أن أدون ما تقع عليه يدي من أخبار هذه المدرسة والعاملين فيها منذ تأسيسها حتى اليوم؛ فيكون بحثي هـــذا اعترافاً بفضلها لما أسدته وتسديه لأمتنا من خير وللعلم من خدمة .

عرضت الفكرة على الأخ العالم الأستاذ عمر كحالة فشجعني على ذلك وقدم لي مشكوراً الكثير من المعلومات والعون . ولاقى الأمر ترحيباً من عطوفة الأمير العلاّمة جعفر الحسني الجزائري الأمين العام لمجمع اللغة العربية . ورأى أن ينشر البحث تباعاً في مجـلة المجمع ليصار إلى طبعه في كتاب مستقل متى تم .

فكتبت في هذا الموضوع شاكرة للأمير الأمين وللأستاذ الكريم تشجيعهما وطيب مساعدتهما ، آملة أن أكون قد فتحت الباب لمن يرغب في بحث تاريخ هذه المدرسة بحثاً ضافياً تستحقه ، لأنني واثقة أن كل ما بذلت من جهد لن يفي بحالٍ هذه المدرسة حقها ، فقد كانت ولا تزال منارة علم لا لبلادنا فحسب ، بل لرواد العلم في العالم أجمع .

أسماء الحمصي

★ ★ ★

تمهيد :

من وقف على تاريخ العرب والإسلام ، وعلى الأخص تاريخ الحضارة الإسلامية راعته تلك الوثبة الثقافية ، وأخذ بمجامع قلبه ذلك الانفتاح لشتى المعارف والفنون ، تصبّ في بحر العلوم العربية النامية باستمرار ، وأدهشته تلك الوفرة في المدارس ودور الكتب العربية وخزائنها في الشرق والغرب ، والتي تعطي دليلاً قاطعاً على جهود جدودنا الذين أطفؤوا نور عيونهم لينيروا عقولنا ، وأحرقوا أعصابهم لينموا جسومنا ، وهدموا أنفسهم ليبنوا لنا مجداً خالداً على مر العصور .

ولم يكتفوا بالنظر ، بل أعملوا أيديهم الصناع ، واستغلوا ذوقهم الفني في بناء المعابد ودور العلم والكتب . فعرفت بغداد ، والبصرة ، ودمشق ، وحلب ، والقاهرة ، والمغرب ، وقرطبة ، واشبيلية ، وغرناطة وسواها آلافاً من مراكز العلم ، من مساجد جوامع ، ومدارس ، وبيمارستانات ، وخوانق ، وربط وزوايا ، وتكايا ، وحتى ترب قامت إلى جانب الكثير منها أمكنة لطلب العلم وتلاوة القرآن ، ورواية الحديث . كل هذا بنَوْه ، واهتموا بزخرفته وتمويله اهتمامهم ببنائهم قصورهم الفخمة ، وحدائقهم الغناء .

ومر القرن السابع الهجري على الأمة الإسلامية ، ودالت دولة العلم في بغداد والعراق ، لما أغارت جموع التتار على الامبراطورية الاسلامية كأنها الجراد المنتشر ، تقضي على كل من وما تلقاه ، لا يردعها ضمير أو دين أو مسكة من حضارة ، وأباد « هولاكو » وجنوده الكتب والمؤلفات فيما أبادوه من معالم الرقي ، وامتلك التتار هذه البلاد التي عاشت ستة قرون ونصف مناراً للاسلام ، وجامعة لرواد العلم من عرب ومن عجم . . .

واستشرى خطر الوثنية والصليبية ، ورأى علماء الشام ومصر ، ومن فر منهم من العراق من خطر المغول ، رأوا أنفسهم مسؤولين عن دعم الدين ونشره ، وتجديد العلم ، وجمع شتات المعارف في كتب طارفة تخلف ما أبيد ، يملؤونها بما وعت القرائح وحفظت الصدور .

وامتلأت نفوسهم حماسة للعمل ، وتحفزت للقيام بالواجب المقدس الذي قدر لهم الاضطلاع بمسؤوليته .

وجدت رغبتهم هـذه رغبة توازيها من سلاطينهم الذين آمنوا أن لغتهم الفقيرة لن تحل محل العربية لغة القرآن المبين ، وحضارتهم القاصرة لن تعدل الحضارة الاسلامية الراسخة ، وأن عددهم لا شيء في عديد العرب وجموع المسلمين . فرأوا — وهم المسلمون — في مؤازرة الدين والعلم ، وفي الأخذ بيد العلماء قربى إلى الله وزلفى ، وترضيّاً للشعب العربي المسلم ، وتمكيناً لأنفسهم في الحكم .. فراحوا ينشئون دور التعليم وينفقون عليها بجمع اليدين .

ولا شك أن دور العلم هـــذه تعتبر عاملاً أساسياً وحيوياً في تنشيط الحركة العلمية ، لما تتضمنه من مدرسين وطلاب ، ولما يقرر فيها من دروس ، وهي البيئة الطبيعية للعلم ينمو فيها ويزدهر .

وتتمثل دور العلم في العصر المملوكي فيما أنشيء من مساجد ومدارس للمذاهب الاسلامية الأربعة ، وما شيد من خوانق وربط ، وما أقيم من زوايا للصوفية .

وكان إلى جوار هذه المعاهد التعليمية ، كتاتيب صغيرة متواضعة ملحقة بها ، تعنى بتعليم الصبية القراءة والكتابة وطرفاً من العلوم الأولية ، وتحفيظهم القرآن الكريم ، وتعدهم للالتحاق بالمدارس الجامعة (١) .

---

(١) عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم ج ٣/ص ٢٥ ..

إلا أن عدداً كبيراً منها عبثت به يد البلى ، وأذى الغزاة الفاتحين ، ولا سيما التتار والصليبيون ، فمحقاه أو ذهبا بأكثره مجددين فاجعة العرب سنة ٦٥٦ هـ .

وما تبقى لا يعدو إصبعاً من جسم العلم الضخم تشير إلى رقيّ المسلمين وثقافتهم الفاخرة في عصورهم الزاهرة ، وإلى مدى تفننهم في هندسة أبنيتهم وزخرفتها وتجميلها .

وتزدهي دمشق شأن غيرها من حواضر العالم الاسلامي بالعديد من المدارس المبنية آنذاك . إن نظرة نلقيها على مصوّر دمشق ومدارسها في القرن السابع الهجري (١) ترينا مراكز العلم قائمة هنا وهنـــاك في كل حي من أحياء المدينة من سفح قاسيون إلى مرابع الغوطة ، ومن سهول برزة إلى جداول النيربين .

وبين هذه المباني الكثيرة ما لا يزال يقارع الزمن وصروف الدهر راثياً للإنسان لضعف تفكيره ، ولأذاه نفسه بتحطيم أداة بنائه .

ومن هذه المباني المدرسة الظاهرية والتي سمّيت باسم الملك الظاهر الذي دفن فيها ، حسب العادة الشائعة آنذاك (٢) .

الملك الظاهر (٣) هو ركن الدين بيبرس البندقداري . ولي الملك سنة ٦٥٨ هـ . وهو أبرز ملوك الدولة البحرية المملوكية .

---

(١) كتاب « دمشق الشام » لجـــان سوڤاجيه تعريب فؤاد أفرام البستاني ط . بيروت سنة ١٩٣٦ .

(٢) الدارس في أخبار المدارس النعيمي ـ تحقيق الأمير جعفر الحسني الجزائري .

(٣) كلمة (ظاهر) لقب ثمانية من سلاطين المماليك . أولهم من البحرية وهو الظاهر بيبرس صاحب المدرسة المذكورة ؛ والباقون من البرجية وهم : برقوق ، وططر ، وجقمق ، وخوشقدم ، والباي ، وتمربغا ، وقانصوه الأول .

وهناك الملك الظاهر صاحب حلب ، وهو ثاني أولاد صلاح الدين الأيوبي .

أصله من أرض القبجاق ، أسر وبيع ، واشتراه — وكان صغير السن — رجل يدعى العماد الصائغ . ثم باعه للأمير « علاء الدين آيدكين البندقداري » ولما قبَضَ الملك الصالح نجم الدين الأيوبي على البندقداري ، أخذ ركن الدين وجعله من جملة مماليكه فنسب لذلك اليه ولقب بـ « الصالحي » ثم أعتقه الصالح وضمه إلى مماليكه البحرية ورباه معهم ، فشب شجاعاً باسلاً ، لا يهاب الردى .

وعرفته الحروب ، وهو أمير ، فارساً مقداماً إنْ في موقعة « المنصورة » التي هزم فيها الفرنجة في عهد توران شاه ، أو في موقعتي « عين جالوت » و « بيسان » اللتين هزم فيها التتار في عهد « قطز » .

واشترك بيبرس في عدة مؤامرات آخرها مؤامرة اغتيال « قطز » بعد انتصارهما على التتار . واستلم الحكم بعده . وبويع سلطاناً على مصر والشام .

ويعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقي لعظمة الدولة البحرية ، فقد قضى على المؤامرات ، وفتح عدداً من البلاد ، وملأ الدنيا مهابة زهاء سبعة عشر عاما . التفت خلالها إلى إصلاح مملكته .

وكما اتصف بالشجاعة والإقدام في الحروب وحسن ترتيبها ، عرف بالدهاء والكرم وحب الخير والإحسان إلى الفقراء . وكان يكرم العلماء وينطوي تحت مشورتهم ويقربهم .

روى السيوطي(١) أن الظاهر بيبرس حضر مرة إلى دار العدل في قضية بينه وبين أحد الأمراء أمام القاضي ابن بنت الأعز ، فقام الناس له تعظيماً ، إلا القاضي فقد أشار إليه السلطان بعدم القيام .

وبعث إليه ابن مالك النحوي صاحب « الألفية » المشهورة رسالة من الشام — وكان الظاهر في القاهرة — يستعين فيها على صلاح حاله فأعانه .

(١) حسن المحاضرة ٢/٧٤ .

كما كان يتحمل مخاشنة العلماء إياه في الحديث والنصيحة ، فلا يبطش بهم لمخاشنتهم ؛ فقد وقعت بينه وبين عبد الله يحيى النووي أحد علماء الشام مكاتبات أغلظ له فيها النووي النصيحة ، فما زاد على أن نفاه من دمشق .

وروي انه كان منقمعاً تحت كلمة الشيخ « عز الدين بن عبد السلام » ، وأنه قال لما مات الشيخ : « ما استقر ملكي إلا الآن »(١) .

ومن أجلّ أعماله مكافحة الكبائر ، وعقاب مرتكبيها وتشديد التنكير عليهم ، وإعادة الخلافة العباسية ، والقيام بأعمال عمرانية كثيرة ، كان فيها كسب أدبي كبير لمصر والشام .

وتقدم فن البنــاء والهندسة آنذاك لاهتمام المسؤولين بتشييد القصور والمدارس والمساجد والقباب (الترب) . والخوانق والقلاع ونحو ذلك .

ولم يك هذا البناء تلبية لداعي الحاجة فحسب ، بل كان ميدان تفاخر بين السلاطين ، لذا عُني هؤلاء بزخرفته وزينته ، وطبعي أن ينبغ في جو كهذا عـدد كبير من المهندسين أو « شادّي العمائر » كما كانوا يسمون في ذلك العهد (٢) .

وشيّد الظاهر المدارس كسواه من السلاطين ، وكان أبرزها « المدرسة الظاهرية » في القاهرة بخط بين القصرين سنة ٦٦٠ هـ ، ويسميها السيوطي « المدرسة الظاهرية القديمة » تمييزاً لها عن « المدرسة الظاهرية » التي أنشأها بعدئذ الملك الظاهر ، برقوق سنة ٧٨٦ هـ ، في القاهرة أيضاً .

---

(١) عصر سلاطين المماليك ، لمحمود رزق سليم ٢٣/٣
(٢) عصر سلاطين المماليك ٣/ ٢٣ .

وعني بيبرس بظاهريته وأوقف عليها أوقافاً كثيرة ، وألحق بها خزانة كتب جليلة تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم . وبنى بجانبها مكتباً لتعليم الأيتام القرآن الكريم ، وأجرى عليهم الطعام والشراب ، ورتّب بهما دروساً في المذاهب الأربعة ، والقراءات . وافتتحت باحتفال عظيم ، واعتبرت — كما قال المقريزي (١) — من أجلّ مدارس القاهرة .

المدرسة الظاهرية (الجوانية) أما المدرسة الظاهرية بدمشق ، والتي هي موضوع بحثنا ، فبانيها الملك السعيد أبو المعالي ناصر الدين محمد بركة قان ابن الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ هـ — ٦٧٨ هـ) ولكنه لا يُستبعد أن يكون أبوه الظاهر قد فكر ببناء ظاهرية دمشقية تحمل اسمه كتلك التي بناها في القاهرة إلا أن الموت عاجله قبل أن ينفذ فكرته . فقد توفي — مسموماً على ما روت الكتب — يوم الخميس الثامن عشر من محرم سنة ٦٧٦ هـ . فأخفى الأمير بدر الدين بيليك الخزندار خبر موته ، وأمر بحمله إلى قلعة دمشق ليلاً حيث غسل ، وحنط ، وكفن ، وجعل في تابوت علق هناك في بيت من بيوت البحرية .

ثم كتب الأمير « بدر الدين » إلى ولده « محمد بركة قان » مطالعة بيده كان من نتاجها أن أخذ له البيعة بعـــد أبيه باسم « الملك السعيد » .. وتوّجه سلطاناً لمصر والشام .

وصدر أمر السعيد ببناء الظاهرية ، — خلافاً لما أورده ابن كثير عن ابن قاضي شهبة (٢) — مدرسة ودار حديث وقبة لدفن أبيه ، إذ كان الظاهر

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ٦٤٦/١ .

(٢) الدارس للنعيمي ٣٤٨/١ .

قد أوصى أن يدفن على السابلة قريباً من داريا خارج السور وأن يبنى عليه هناك قبة فلا ينقل والحالة هذه أن يبني مدرسته وقبته في مكان ويوصي أن يدفن في غيره .

فرأى الملك السعيد أن يدفنه داخل سور دمشق ، فابتاع دار أحمد بن الحسين العقيقي ، وكانت قصراً للأيوبيين (١) بثمانية وأربعين ألف درهم — وقيل بستين ألفاً وقيل بسبعين (٢) — وأمر أن تبنى مدرسة للشافعية والحنفية ، ودار حديث ، وقبة للدفن ، كما ذكرنا .

بدأت عمارتها يوم الأربعاء الخامس من جمادى الأولى سنة ٦٧٦ هـ . ولما أنجز البناؤون القبة ، آخر جمادى الآخرة سنة ٦٧٦ هـ ، حضر الأمير علم الدين سنجر الحموي المعروف بأبي خرص ، والطواشي صفي الدين جوهر الهندي المصري إلى دمشق لدفن الملك الظاهر ، وكان نائبها آنذاك عز الدين ايدمر ، فعرفاه ما أمر به الملك السعيد ، فحمل تابوت الظاهر ليلاً ، وصلي عليه في الجامع الأموي ، ثم دفن في الخامس من رجب سنة ٦٧٦ هـ بالقبة من المدرسة التي أمر ببنائها باسمه .

افتتاح المدرسة : استمر عمل البناء في الظاهرية ، حتى إذا كان يوم الاربعاء الثالث عشر من صفر سنة ٦٧٧ هـ بدىء التدريس فيها — رغم أن بناءها لم يك قد كمل بعد — بحضور نائب السلطنة ايدمر الظاهري وقضاة دمشق .

واجتمع خلق كثير في الايوان الشرقي حيث ألقى الدرس الأول فيه الشيخ رشيد الفارقي مدرس الشافعيّة . وغصَّ الايوان القبلي بالمستمعين للدرس الأول يلقيه فيه مدرس الحنفية القاضي صدر الدين سليمان ابن أبي العز .

(١) السلوك للمقريزي ٦٤٦/١ . والنجوم الزاهرة ص ٢٦٣ .
(٢) قيل إن الدار كانت للشريف أحمد العقيقي ، ثم انتقلت إلى ملك الأمير فارس الدين اقطاي المستعرب الأتابك ، فاشتريت من ورثته وهدمت وبني موضع بابها قبة الدفن .

وفي ذي الحجة سنة سبع وسبعين وستمئة قدم الملك السعيد إلى دمشق فقام ببعض الإصلاحات ، إلا أن المؤامرات كانت تحاك ضده ، فاضطر للرجوع إلى القاهرة ، ثم إلى خلع نفسه على أن تبقى له الكرك سنة ٦٧٨ هـ ، ونُصِّبَ أخوه « سلامش » سلطانا ، وكان في السابعة من عمره ، إلا أن أتابكه سيف الدين قلاوون خلعه واستولى على الحكم ولقب نفسه بالملك المنصور .

وفي منتصف ذي القعدة من العام نفسه توفي الملك السعيد ، ووري بالتربة الظاهرية إلى جانب أبيه (١) ولم تك تلك المدرسة قد تمت بناءً فأمر الملك المنصور قلاوون باتمامها فكان ذلك . وقد سجل اسم بانيها في السطرين الأخيرين فوق بابها الرئيسي بخط نسخي مزهر .

جاء فيها ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بانشاء هذه التربة المباركة والمدرستين المعمورتين المولى السلطان الملك السعيد أبو المعالي محمد بركة قان ابن السلطان الشهيد الملك الظاهر المجاهد ركن الدين أبو الفتوح بيبرس الصالحي ، أنشأها لدفن والده الشهيد ولحق به عن قريب ، فاحتوى الضريح على ملكين ظاهر وسعيد . وأمر باتمام عمارتها السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين خلد الله سلطانه » .

أما سبب تسميتها بالجوانية فذلك تمييزاً لها عن المدرسة الظاهرية البرانية التي بناها الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ، خارج باب النصر بمحلة المنيبع ، شرقي الخاتونية الحنفية ، وغربي الخانقاه الحسامية ، بين نهري القنوات وبانياس على الميدان بالشرف القبلي ، وجعلها على الشافعية (٢) .

---

(١) سجل على قبره ان وفاته كانت سنة ٦٧٦ هـ والصحيح ما أثبتناه أعلاه .
(٢) يذكر الأستاذ صلاح الدين المنجد في كتابه (مدارس دمشق) أنهـا درست . ويقول ابن بدران في منتخب النفائس انها : « محل الشكنة ، وزاوية للمولوية ، وبستان الأعجام » .

أما المدرسة الظاهرية الجوانية — موضوع بحثنا هذا فتعتبر من أهم مدارس دمشق الباقية إلى اليوم رغم انه اعتورها ما اعتور سواها من عشرات المدارس التي كانت عامرة وعاشت ردحاً من الزمن تحت سماء دمشق مثابة للعلم وطلابه ، درسوا فيها القرآن والحديث والفقه والأصول والكلام والطب والرياضيات والطبيعيات والفلك والتاريخ والأدب وسوى ذلك ، والتي لم يبق منها إلا القليل وفي حكم الخراب . فقد درست معالمها وأكلت أوقافها ، واستصفيت معاهدها ولم يبق سوى ذكرها في بطون الكتب والدفاتر .

موقع الظاهرية : تقع الظاهرية من دمشق في حي العمارة بين بابي الفرج والفراديس ، تجاه العادلية (مقر مجمع اللغة العربية اليوم) بينهما طريق باب البريد المفضي إلى الجامع الأموي .

شكل البناء : لا يزال مدخل المدرسة على حالته الأولى رغم ما صب التتار على دمشق من ويلات .

ولا ريب أن تحويل قصر العقيقي إلى مدرسة، كان من شأنه تغيير شكل البناء الأصلي فرفعت حوله الجبهتان : الجبهة الغربية وفيها الباب الرئيسي ، والجبهة الجنوبية، وأقيمت فيها قاعة الضريح التي بنيت عليها قبة على حطتين مضلعتين .

ويظهر أن الحمّام (١) الملاصق للمدرسة من جهتها الشمالية ، والايوان الشرقي كانا من أجزاء الدار القديمة . ويبدو أن مهندس المدرسة « ابراهيم بن غانم »

---

(١) حمام العقيقي : لا يزال حتى اليوم بحالة حسنة ، وتسميه العامة حمام « الملك الظاهر أو « حمام العقيق » . وقد وسم على حساب للمدرسة ، ويبدو هذا واضحاً لاحظ نهاية الجدار الغربي للظاهرية .

استوحى تقاليد الفن الأيوبي الماضية التي كانت ماثلة في الدار نفسها ، وفي بناء المدرسة العادلية المقابلة . ولعله توخى من ذلك أن يجعل هذين البنائين المتقابلين منسجمين كل الانسجام ، وأن يؤلف منها وحدة عمرانية يكمل فيها جمال الأولى روعة الثانية .

وقد أفلح في مسعاه . فالمدرستان تروعان رائيها فهما رابضتان وجهاً لوجه ، كعملاقين جبارين تتحديان الزمن والفناء بروعة وجلال .

إلا أن واجهتي المدرسة الظاهرية الغربية والجنوبية أجمل من نظيرتيها في العادلية بكثير ، بل تعتبران من أجمل ما بنى المماليك . وهما مشيدتان بالأحجار المنحوتة المتقنة . وفي أعلاها كوى مستديرة تحيط بها زخارف هندسية متألفة من دوائر متداخلة .(١) .

أما المدخل الرئيسي فمبني بأحجار بيضاء ، وأخرى وردية اللون ، تتوجه نصف قبـــة من القرنصات البديعة ويعلو الباب ثلاثة صفوف عريضة من الكتابات النسخية المزهرة الجميلة ، جاء في الصفين العلويين منها ذكر وقفها وفي الصفين السفليين أسماء بناتها .

وجاءت جملة أخرى في الزاوية الشمالية أعلى الرتاج « عمل ابراهيم بن غانم » المهندس رحمه الله . مما دل على أن المهندس عربي من أهل الديار . ولو لم يعف الزمن آثار هؤلاء الأسلاف ، ولو عني مؤرخونا بترجمة المهندسين عنايتهم بتراجم المتفقهين والمتأدبين والأطباء مثلاً لعادنا الحلقات الناقصة من سلسلة حضارة العرب في سورية ، لأن هذه المعاهد لم تبنها إلا أيدي أبنائها ويوحي عقولهم .

والداخل إلى المدرسة يهبط دركة إلى عتبة المدخل التي يقوم على جانبيها دكتان حجريتان ورديتا اللون ، فاذا ما جاز بابها الجميل المزخرف « بالخيط

---

(١) مشاهد دمشق الأثرية ، لسليم عادل عبد الحق ، وخالد معاذ ، ص ٩٠ ب . اللوحة (٤١٠) .

العربي وجد نفسه في رواق يمتد شمالاً جنوباً ذي ثلاث أقواس ، يحملها عمودان حجريان ضخمان ويرى البناء يأطر باحتها المربعة .

وإلى يمين الداخل في جنوب الرواق تقوم القبة الرائعة (تربة الملك الظاهر وابنه الملك السعيد) . يصعد اليها بدرجتين . وقد نقش على بابها الخشبي وقفها . والقاعة مربعة الشكل ترتفع قبتها نحو ثلاثين متراً على حطتين مضلعتين . تكسو جدرانها زخارف من الرمر الملون والحجر المنحوت ، ولا نعلم فيما إذا كان قد أخذ من مقالع في سورية أو جلب من بلاد غيرها .

ومحرابها آية في زخرفته بالرمر الملون المجزع المصدف على طريقة « الموزائيك » وبالفسيفساء التي تعد نموذجاً صالحاً لزخرفة القرن السابع ، عدا نقوش دقيقة حفرت في الرمر نفسه ، وأطّرت فتحة المحراب . ويزين جانبيه الآية الكريمة « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » . ويعلو المحراب قوس من الرمر المطعم غاية في دقة صنعته وبديع رسمه .

وفي كل من جدران القاعة الثلاثة نافذتان أحيطتا بزخارف وحول الجدران زخارف بالفسيفساء الزجاجية الملونة تمثل قصوراً وشجراً ونقوشاً عربية رائعة ، وفوق هذه الزخرفة ، في منتصف أقواس الجدران فتحت كوى أربع في كل قوس واحدة .

الغربية والجنوبية منها تبدوان من الطريق مزخرفتين ، كما ذكرنا ، بدوائر متداخلة ، وثنتان داخليتـــان في الجدارين الشمالي والشرقي . تطل الشمالية على سطح الرواق القائم في مدخل المدرسة وتطل الشرقية على الايوان القبلي . وقد سدتا فيما بعد لما حولت الظاهرية إلى مدرسة ابتدائية ، وعدل شكل البناء فيها كما سيأتي بيانه .

ويقوم على الجبهة الجنوبية إلى جانب القبة وبمحاذاتها الايوان الجنوبي الذي خصص للحنفية ولا يزال ماثلاً بهيئته السابقة ، القوس والقبة والمحراب ويصعد إليه بدرجة .

أما الايوان الشرقي فقد دثر ولم يبق من قوسه إلا ثلاثة أحجار ، تدل على مشاكلته للايوان القبلي المذكور .

وعلى يساره بينـــه وبين الإيوان القبلي تقوم دار الحديث والتي لا يزال مدخلها واضحاً رغم التعديل فيه .

أما داخلها والجبهتان الشرقية والشمالية فلم يبق من بنائها القديم شيء ، فقد اندثر كله وحل محله بناء آخر يبدو أنه شيد في العهد التركي . وكل ما بقي من الجهة الشمالية قوس صغير يبدو في آخر الجدار الشمالي عن يسار الداخل آخر الرواق .

وهناك أيضاً إلى جوار القوس وفي آخر الجبهة الغربية [عن يسار الباب الرئيسي] باب آخر مسدود الآن لم أستطع أن أصل إلى معرفة ما كانا يشكلان في هذا البناء . هذه الأبنية تأطر باحة مربعة الشكل تتوسطها بركة مربعة الشكل أيضاً .

على كل من الصعب علينا أن نعرف الشكل القديم للمدرسة الظاهرية كاملاً ، ولا سيا جناحاها الشرقي والشمالي — كما ذكرت — اللهم إلا إذا هدم البناء الحالي وفرغت أطرافه ونبشت الأسس لتحديد البناء القديم ، وبذلك نستطيع أيضاً أن نعرف الخطة التي اختطها ابن غانم المهندس للمدرسة ؛ عندئذ نتمكن من إعادة بنائها بشكله القديم بالاعتماد على المقارنة والقرينة .

ويستفاد من تراجم بعض من درّس أو دَرَس فيها ولا سيا في دار الحديث — انه كانت هناك غرف لهم يعيشون فيها — وكان ذلك شرطاً على من يعين شيخاً لدار الحديث على الاقل — ولكن في أية جهة منها ؟ وما شكلها ؟ وهل هي أرضية أم علوية ؟ أمور كثيرة مجهولة من السير الوصول إليها .

واردات الظاهرية : من السهولة بمكان تقدير واردات الظاهرية الوفيرة ، إذ أن نظرة نلقيها على الكتابات المنحوتة في أعلى بابها الخارجي ، وعلى باب قبتها تدلنا على غنى المدرسة ووفرة أوقافها ، فقد جاء في السطور العلوية المرقومة على الباب الرئيسي ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . الذي وقفه على هذه التربة والمدرستين ودار الحديث النبوي الحصة من قرية الطرة من عمل أذرعات ، ومبلغها أحد عشر سهماً وربع ، وثمن سهم من أصل أربعة وعشرين سهماً من قرية الصرمان بكاملها ومن أعمال الشعراء وقرية ازرع بكاملها من عمل نوى ، والحصة من قرية بيت الرامة ، وقرية سوعة وقرية الزراعة من النور ، ومبلغها سهمان من أصل أربعة وعشرين سهماً ، والحصة من الأشرفية من عمل المرج من بلد دمشق ومبلغها تسع عشر سهما ونصف من أربعة وعشرين ، والبساتين الثلاثة المعروفة بابن سلام ظاهر دمشق من أراضي السهم الشرقي بسفح قاسيون ، وبستان يعرف بالسبتية ظاهر دمشق على الشرف الشمالي ، وطاحون السبتية اللاصقة للبستان المذكور ، وكرم يعرف بكرم طاعة بمدينة بانياس ، وخان بيت حنا ، وحانوت جوار بساتين ابن سلام . وخان يعرف بالاصطبل ظاهر دمشق ، والسفل الكامل من قيسارية الشرب وذلك في سنة ست وسبعين وستمئة » .

وكانت هذه الأوقاف المذكورة تمدّ المدرسة والقائمين عليها ومن يحيا فيها من طلبة العلم بالخير ، وتكفيهم مؤنة العيش ، وتوفر لهم وقتهم للتعلم والتعليم .

ويحدثنا ابن بدران (١) أن ركن الدين السمرقندي (— ٧٠١ هـ) كان مدرساً للحنفية فيها وناظراً عليها ، وكان يحيا في بحبوحة . ويبدو أنه امتلك

(١) منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ص ١٨١ .

من المال ما أغرى بوابها «علي الحوراني» بقتله ، وإلقائه في بركتها وأخذ ماله . وقد عوقب بصلبه على بابها .

ويحدثنا النعيمي (١) نقلاً عن الشيخ تاج الفزاري : أن العلامة رشيد الدين أبا حفص عمر بن اسماعيل الفارقي شيخ الشافعية وجد مخنوقاً في مسكنه بالمدرسة الظاهرية ، وقد أخذ ماله ، وذلك في شهر محرم من عام تسعة وثمانين وستمئة للهجرة .

ومن استعرض حياة طائفة ممن عمل فيها وجد أن الكل راغب في خدمتها ساع إلى الاستئثار بها أو إلى إيكال أمرها لابن له أو قريب ، وأعتقد أن وفرة ريع أوقافها كانت من جملة العوامل التي دفعتهم لأن يظلوا مجاهدين في ميدانها ، باثين حبّ العلم والفضل في نفوس طلابها ، مما جعلها تؤدي الخدمة الثقافية المرجوة خلال قرون .

إلا أن هذه الأوقاف بعضها درس وبعضها تناولته أيدي الطامعين ممن لا ضمير لهم ، وساءت حال المدرسة يوماً بعد يوم ، لولا أن تداركتها العناية الإلهية بطائفة من العلماء ذوي الوعي والضمير ، حولتها إلى مكتبة وطنية في أواخر القرن الثالث عشر في فترة كادت تلفظ فيها الأنفاس .

التدريس في الظاهرية :

ذكرنا أن الملك السعيد لما بنى المدرسة الظاهرية إلى جوار تربة أبيه ، جعلها على الحنفية والشافعية ، وأقام فيها دار حديث .

وقد درس فيها على المذهبين علماء أعلام نذكر أسماء بعضهم لنعرف سوية الثقافة التي كانت تقدمها هذه المدرسة ، ولنقف على تطور وضعها الثقافي من القرن السابع الهجري حتى نهاية القرن الثالث عشر .

(١) الدارس في تاريخ المدارس ص ٤٨ .

كان القرن السابع الهجري فترة اليمن والإقبال على المدرسة الظاهرية الفتية . وأول العلماء الأعلام الذين شهدهم الإيوان القبلي (منبر الأحناف) :

قاضي القضاة صدر الدين سليمان بن أبي العز الحنفي الأذرعي [٥٩٤-٦٧٧ هـ] شيخ الحنفية في زمانه وصاحب الجامع الصغير (١) .

ثم درس بها الصاحب محي الدين محمد بن يعقوب النحاس (٢) [٦١٤-٦٩٥] كان متبحراً في المذهب وغوامضه موصوفاً بالذكاء وحسن المناظرة ، انتهت اليه رئاسة المذهب بدمشق ، وكان — وهذا أمر يلفت الانتباه — معماراً مهندساً كاتباً موصوفاً بحسن الانصاف في البحث . وكان يقول : « أنا على مذهب الإمام أبي حنيفة في الفرع ، ومذهب الامام أحمد في الأصول . وكان يحب الحديث والسنة ، سمع منه ابن الخباز ، وابن العطار ، والعرضي ، والمزي ، والبرزالي ، وابن تيمية ، وابن حبيب ، والمقاتلي ، وأبو بكر الرحبي ، وابن النابلسي . وتكفينا نظرة نلقيها على تراجم طلابه هؤلاء لنعرف قيمة هذا الرجل ومن أنجبتهم هذه الدار .

ودرس فيها بعده سنة ٦٩٨ ابنه القاضي شهاب الدين يوسف بن محي الدين ابن النحاس(٣) وتلاها العلامة ركن الدين عبيد الله بن محمد السمرقندي وكان إماماً عابداً ومن كبار أئمة المذهب ، مكباً على المطالعة والتعليم وله ورد ، يصلي في اليوم والليلة مئة ركعة ، وله حلقة بالجامع . مات مخنوقاً بيد بواب الظاهرية سنة ٧٠١ هـ طمعاً في ماله وخسرت المدرسة بذلك عقلاً مفكراً وروحاً طيبة .

وارتفع في القرن نفسه وفي الايوان الشرقي (ركن الشافعية) أصوات علماء عدة منهم :

---

(١) شذرات ابن العماد ٣٥٧/٥ ومنادمة ابن بدران ص ١٨١ ودارس النعيمي ٥٤٣/١ .
(٢) الدارس : ٥٢٤/١ - ٥٢٥ .
(٣) الدارس : ٥٢٨/١ .

العلامة أبو حفص عمر بن اسماعيـــل الربعي الفارقي الدمشقي (١) [٥٩٨ — ٦٨٩ هـ] وكان فقيهاً أديباً مفتناً ، أفتى وناظر ، وبرع في البلاغة والنظر ، وكانت له اليد الطولى في التفسير واللغة . شارك في الأصول والطب والنظر في أحكام النجوم . انتهت اليه رياسة الأدب في عصره ، واشتغل عليه العديد من الفضلاء ومن غريب الصدف أن يخنق (كالسمرقندي) في مسكنه في الظاهرية ويسرق القاتل ماله .

ومنهم الأمير عز الدين ايدمر الظاهري (٢) [... — ٧٠٠ هـ] نائب دمشق ، وهو الذي افتتح التدريس فيها .

ومنهم أيضاً قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن بن تاج الدين العـــلائي الشافعي المعروف بابن بنت الأعز (٣) [... — ٦٩٥ هـ] .

أما دار الحديث فقد ولي مشيختها في تلك الحقبة من القرن السابع عدد من الفضلاء أبرزهم .

أبو إسحق اللوري (٤) [٦١٤ — ٦٨٧ هـ] . سمع من ابن رواحة ومن ابن الجميزي وطبقته ، وتفقه وتقدم في الحديث مع الزهد والعبادة والإيثار والصفات الحميدة والحرمة والجلالة .

ومنهم عز الدين أبو العباس أحمـــد بن ابراهيم الفاروثي الواسطي (٥) [٦١٤ — ٦٩٤ هـ] قرأ القرآن على والده وعلى الحسين الطيبي ، وسمع ببغداد

---

(١) الشذرات ٤٠٨/٥ ، والدارس ٣٠١/١ .
(٢) الشذرات ٤٥٦/٥ ، والدارس ٣٠١/١ .
(٣) الشذرات ٤٣١/٥ .
(٤) الدارس ٣٥٥/١ .
(٥) الدارس ٣٥٥/١ .

وواسط واصبهان ودمشق . وأخذ التصوف عن شهاب الدين السهروردي ، وروى الكثير بالحرمين والعراق ودمشق ، وسمع عنه كثيرون منهم البرزالي ، كما قرأ عليه القرآن جماعات ، وقال ابن كثير : إن كتبه بلغت ألفي مجلد ومئتين .

وروى الذهبي في عبره أنه كان فقيهاً شافعياً مدرساً فقيهاً عارفاً بالقراءات ووجوهها ، خطيباً واعظاً كريم الأخلاق ، جواداً محبوباً ، غادر دمشق سنة ٦٩١ هـ إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وانطلق من هناك إلى واسط حيث توفي .

ومنهم أبو اسحق ابراهيم الواسطي ثم الدمشقي الحنبلي[١] [٦٠٢ — ٦٩٢ هـ] وكان رجلاً صالحاً ؛ دعا إلى مذهب السلف الصالح والصدر الأول ، انفرد بعلو الرواية ، ولم يخلف بعده مثله ، وقد ولي في أواخر حياته مشيخة دار الحديث الظاهرية وكان ذلك بعد سفر الفاروثي .

وولي مشيخة الحديث بعـــده سنة ٦٩٢ شرف الدين عمر ابن خواجا المعروف بالناسخ .

ويطلع القرن الثامن على العالم العربي الاسلامي بعلماء لا يقلون عن سالفيهم علماً وفضلاً ، وعرفت الظاهرية من أحنافهم :

القاضي شمس الدين بن أبي العز الاذرعي الحنفي[٢] [٦٦٣ — ٧٢٢ هـ] من أعيان الحنفية . كان بارعاً في فنون من العلوم ، درّس في الظاهرية وكان ناظر أوقافها ، وأذن له بالافتاء .

ومنهم الصدر الكبير قطب الدين موسى بن أبي عبد الله محمد اليونيني المؤرخ[٣] [٦٤٠ — ٧٢٦ هـ] سمع من أبيه ومن ابن عبد الدايم ، وعبد العزيز ، والرشيد العطار ، واسماعيل بن صارم ، وأجاز له ابن رواج والبشيري .

(١) الدارس ٣٥٧/١ .
(٢) الدارس ٥٤٧/١ .
(٣) الشذرات ٧٣/٦ .

روى عنه الذهبي أنه كان عالماً فاضلاً مليح المحاضرة كريم النفس معظماً جليلاً حدَّث بدمشق وبعلبك وجمع تاريخاً حسناً ذيل به على مرآة الزمان ، كما اختصر المرآة .

ومنهم كذلك العلاّمة شمس الدين محمد بن عثمان الأنصاري الحنفي الحريري(١) [٦٥٣ — ٧٢٨ ﻫ] . كان شيخ المذهب ، سمع من أبي اليسر ، وابن عطاء ، والجمال ابن الصيرفي ، والقطب بن أبي عصرون . وقد درس في الظاهرية عوضاً عن القاضي شمس الدين الملطي .

درَّس وأفتى . كان وقوراً حسن السمت متين الديانة . منطلق العبارة وروي عنه أنه كان يراعي الإعراب في لفظه ، حتى مع النساء في بيته .

ومنهم أيضاً نجم الدين علي بن داود بن يحيى القرشي القحفازي الحنفي (٢) [٦٦٨ — ٧٤٥ ﻫ] : كان شيخ الأدب في عصره ، إماماً متفنناً وخطيباً مفوهاً ، تميز في الفقه والعربية وغيرهما ، وله ذهن جيد ومناظرة صحيحة وشعر لا بأس به . سمع من البرهان ابن الدرجي وغيره . استلم التدريس في الظاهرية يوم الأربعاء السادس من صفر سنة ٧٢٣ ﻫ وذلك بعد موت شمس الدين ابن أبي العز الحنفي الأذرعي .

وشهد إيوان الشافعية في هذا القرن من رؤساء المذهب كل عالم فاضل أبرزهم : العلامة صفي الدين أبو عبد الله محمد الهندي الارموي الشافعي (٣) [٦٤٤ — ٧١٥ ﻫ] . كان متكلماً أشعرياً كثير الأسفار . أخذ عن ابن الوكيل ،

---

(١) فوات الوفيات الصلاح الصفدي سنة ٧٢٨ .

(٢) الدارس ١/٥٤٧ ، وذيل العبر اليونيني سنة ٧٤٥ . ذكر النعيمي في دارسه : ١/٥٢٠ ما يفهم منه ان نجم الدين وزين الدين القحفازي هما لقبان لشخص واحد .

(٣) الدارس ١/١٢٩ .

وابن الفخر المصري ، وابن المرمل ، قدم دمشق سنة ٦٨٥ هـ وولي بها مشيخة الشيوخ ، وتدريس الشافعية في الظاهرية وسواها وتصدر للافتاء والاقراء في الأصول والمعقول والتصنيف . أفاد الناس وسلك تلاميذه مسلكه ووقف كتبه بدار الحديث الأشرفية .

ومنهم كمال الدين أبو المعالي محمد بن علاء الدين الزملكاني الشافعي (١) [٦١٦ — ٧٢٧ هـ] : شيخ الشافعية بالشام انتهت اليه رياسة المذهب تدريساً وافتاءً ومناظرة ، سمع منه الكثير ، واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري ، والقاضي بهاء الدين بن الزكي في الأصول ، وعلى بدر الدين بن مالك في النحو . وكان ذا ذهن وقاد ، حسن العبارة جيد الخط . روى الصفدي عنه انه كانت له خبرة بالمتون وكان بصيراً بالمذهب وأصوله قوي العربية ، قد أتقنها ذكاءً ودربهـــا ذكيا ، تلقى العلم على شهاب الدين الخوييّ وشمس الدين الأيكي وصفي الدين الهندي . يقول الصفدي ولقد رأيته في الظاهرية وفي يده القائمة من الحساب وهو يساوق المباشرين على المصروف فيسبقهم إلى الجمع وعقد الجملة ، ويبقى ساعة ينتظرهم إلى أن يفرغوا ، فيقول : كم جاء معكم ؟ فيقولون : كذا وكذا . فيقول : لا ! فيعيدون الجمع إلى أن يصح .

ولي عدة مناصب هامة ، وقد طلبه السلطان ليوليه قضاء دمشق لما نقل قاضي القضاة جلال الدين القزويني إلى قضاء الديار المصرية ، ففرح الناس بالخبر ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يستلم مهام المنصب . له تعاليق مفيدة ، منها قطعة كبيرة من شرح المنهاج للنووي ، وقيل هو أول من شرحه . ومجلد في الرد على شيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية في مسألة الطلاق .

(١) الدارس ١/٣٣ . ويذكر الصفدي انه ولد في شوال سنة ٦٦٧ هـ .

قال ابن كثير: « وأما دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس درّس أحسن منها، ولا أحلى من عبارته وحسن تقريره، وجودة احترازاته وصحة ذهنه وقوة قريحته وحسن نظمه.

ومنهم الشيخ الإمام جمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد التميمي الدمشقي القلانسي [1] [٦٦٩ — ٧٣١ هـ].

كان محتشماً عالماً لين الكلمة متواضعاً حسن السمت براً بأهل العلم والصلحاء، اشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري، وتأدب على الرشيد الفارقي.

ولي مناصب عالية دينية ودنيوية، وأذن له بالإفتاء.

ومنهم الشيخ علاء الدين القلانسي أخو جمال الدين السابق الذكر [2] [... — ٧٣٦ هـ] كان قاضي العسكر، ووكيل بيت المال، ومدرّساً في عدة مدارس؛ حلّ محل أخيه في تدريس الظاهرية.

وفي هذه الفترة من القرن الثامن تردد في أجواء الظاهرية صوت جلال الدين أبي المعالي محمد بن عبد الرحمن ... بن أحمد بن دلف العجلي القزويني الشافعي خطيب دمشق [3]. [٦٦٦ — ٧٣٩ هـ].

كانت له مشاركة في شتى العلوم والمعارف فعرف فقيهاً أصولياً محدثاً، كما عرف أديباً، عالماً بالعربية والمعاني والبيان، ينظم الشعر، وكان كذلك معدوداً بين القضاة والخطباء المفوهين.

---

(١) الدارس ١/١٩٧.

(٢) الدارس ١/١٩٨.

(٣) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٠/١٤٦، والشذرات لابن العماد ٦/١٢٣.

سكن بلاد الروم فترة ثم قدم إلى دمشق حيث ناب في القضاء ، وولي الخطابة بها ، انتقل إلى الديار المصرية ، ثم عاد إلى دمشق وتوفي بها في ٢٧ جمادى الأولى . ودفن بمقابر الصوفية .

له تصانيف عديدة منها : تلخيص مفتاح العلوم للسكاكي ، والايضاح في المعاني والبيان ، والشذر المرجاني من شعر الأرجاني .

وتردّد بعده صوت العلاّمة بقية السلف مفتي الشام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن القاضي محي الدين ، المعروف بابن قاضي الزبداني[1] [٦٨٨-٧٧٦هـ] كان أديباً ، متواضعاً ، يغيث الملهوف ، ويقصده الناس لحل مشكلاتهم .

سمع الحديث ، وتفقه على الشيخ برهان الدين الفزاري ، وكمال الدين بن قاضي شهبة ، وكمال الدين بن الزملكاني ، وأذن له بالفتوى ، ولم يضبط عليه فتوى أخطأ فيها ، لذا كان معظماً تخضع له الشيوخ ، وتسمع له القضاة .

وممن تولى تدريسها أيضاً من الشافعية : أبو العباس شهاب الدين الاذرعي الدمشقي ثم الحلبي الشافعي[2] [٧٠٨ — ٧٨٣ هـ] . سمع على القاسم ابن عساكر ، وأحمد ابن الشحنة ، والصدر عبد المؤمن الحارثي ، وقرأ على الحافظين الذهبي والمزّي ، وكانا يعجبان بقراءته .

أجاز له من دمشق : أبو النصر الشيرازي ، وإسحق الآمدي ، وأبو عبد الله الزرّاد ، ومن مصر : أبو الحسن بن قريش ، وأبو الحسن الواني ، وأبو الفتح الدبوسي ، وصالح الأشنهي ، ويوسف الختني ، وعمر العتبي ، وعبد الله الصواف وسواهم . وقد خرج له عنهم الامام شباب الدين أبو العباس أحمد بن حجي جزءاً حدث به .

---

(١) الدارس ٣١١/١ .
(٢) الدارس ٥٦/١ .

تفقه الأذرعي وبرع حتى صار شيخ البلاد الشامية ، وأحفظ الناس لفروع المذهب ، من تصانيفه (قوت المحتاج) و (عنية المحتاج) وكلاهما في شرح (المنهاج). وله (المتوسط في الفتح بين الروضة والشرح) يعني (شرح الرافعي الكبير) في عشرين مجلدة ، وهو كتاب جليـــل ، وله مختصر « الحاوي » للماوردي .

ومنهم كذلك المفتي البارع نجم الدين أبو العباس أحمد بن عثمان الياسوفي الدمشقي المعروف بابن الجابي (١) [٧٣٦ — ٧٨٧ هـ] .

سمع الحديث ، وتفهمه ، وأخذ الفقه عن الغزي ، والحسباني ، وابن حجي وغيرهم . كما أخذ الأصول عن الشيخ بهاء الدين الأخميمي ، ثم درس وأفتى ، وولي تدريس الظاهرية .

وكذلك القاضي تاج الدين أحمـــد بن فتح الدين ابن الشهيد (٢) [٧٥٠ — ٨٠٠ هـ] كان عالماً خبيراً بصنعة الكتابة محبباً إلى الناس . تولى تدريس الظاهرية بعد أن نزل له عنها قاضي القضاة شمس الدين الاخنائي وبقي يدرس فيها حتى مات سنة ٨٠٠ هـ .

أما دار الحديث فقد ولي مشيختها في القرن الثامن هذا عدد من العلماء الفضلاء نذكر منهم :

شرف الدين عمر بن محمد المعروف بالناسخ (٣) [٦١٨ — ٧٠٢ هـ] درس فيها بعد تقي الدين الواسطي . سمع من ابن الزبيدي وابن اللتي وفخر الدين

---

(١) الدارس ١/٢٤١ .
(٢) الدارس ١/٣٣٧ .
(٣) الدرر الكامنة ٣/١٨٩ .

ابن الشيرجي ومن غيرهم . وكان حسن الخط ينسخ الختمات والربعات ويذهبها ، فعرف بالناسخ ، وكان ديّناً كريماً حسن الشكل من بقايا الفقراء الحريرية ، وله نصيب من ذكر ومشيخة . استلم التدريس في دار الحديث الظاهرية سنة ٦٩٢ هـ وبقي فيه حتى نهاية حياته .

ومنهم شرف الدين أبو حفص عمر بن محمد الفزاري (١) [٦٣٢-٧٠٢ هـ] وقد باشر مشيخة دار الحديث الظاهرية يوم الخميس الثامن من ربيع الأول سنة ٧٠٢ هـ عوضاً عن شرف الدين الناسخ . وكان برّاً خلوقاً . وقد حضر دروسه عدد من الأعيان ، ولكن لم يطل عهده فيها ، إذ توفي في العام الذي ولي فيه التدريس عن سبعين عاما .

وأبرز من ولي مشيخة دار الحديث في القرن الثامن .

عفيف الدين اسحق بن يحيي الآمدي ثم الدمشقي الحنفي (٢) [٦٤٠-٧٢٥هـ] : سمع الحديث على كثيرين منهم مجد الدين بن تيمية ؛ وكان الآمدي شيخاً فاضلاً ، حسن السمت ، سهل الإسماع ، يحب الرواية . قال الذهبي (٣) عنه : « وروى عن ابن خليل وعن عيسى الخياط والضياء صقر وغيرهم . وطلب الحديث ، وحصّل أصولاً بمروياته . وخرج له ابن المهندس معجماً قرأته عليه ، وكان لا بأس به » .

ومن شيوخ دار الحديث أيضاً : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (٤) [٦٧٣ — ٧٤٨ هـ] : كان حافظاً مؤرخاً ، وعلاّمة محققاً ،

---

(١) الدارس ١/٣٠٧ .
(٢) الدارس ١/٣٠٧ .
(٣) العبر سنة ٧٢٥ هـ .
(٤) الشذرات ٦/١٥٣ والأعلام ٦/٢٢٢ .

ورحّالة باحثاً ، له تصانيف كثيرة تقارب المئة منها : « دول الإسلام » و « المشتبه في الأسماء والأنساب والكنى والألقاب » و « العباب » و « تاريخ الإسلام » و « تذكرة الحفاظ » و « طبقات القراء » و « المستدرك على مستدرك الحاكم » وسوى ذلك .

ومن شيوخها أخيراً : قوام الدين لطف الله الحنفي [1] [٦٨٥ - ٧٥٨ هـ] : كان رأساً في مذهب أبي حنيفة ، بارعاً في اللغة ، عابداً زاهداً . ولي تدريس الحديث بعد وفاة الذهبي ، وأخذ عنه الشيخ محب الدين ابن الوحدية [2] .

ويطل القرن التاسع للهجرة وتشهد الظاهرية العديد من أعلامه . أبرزهم الشيخ جمال الدين الطيماني [3] [٧٧١ — ٨١٥ هـ] : أبو محمد عبد الله بن طيمان المصري ثم الدمشقي . نشأ يتيماً فقيراً وصلّى بالقرآن وهو ابن سبع سنين . اشتغل على مذهب الإمام أحمد ، ثم انتقل إلى المذهب الشافعي وتفقه . لزم الشيخ برهان الدين الاسكندراني ، ثم أخذ عن الشيخ سراج الدين البلقيني . وعن الشيخ عز الدين بن جماعة ، أخذ الأصول والنحو والعلوم العقلية . وأقام بالشام يشتغل ، ويفتي، ويصنف، ويدرس في عدة مدارس منها الظاهرية . ولم يتكلم إلا معرباً ، روى ذلك عنه الشهاب ابن حجي . مات قتيلاً بمنزله في التعديل في الفتنة التي وقعت بين الناصر وغرمائه ، في صفر سنة خمس عشرة وثمانمئة .

ومن مدرسي الظاهرية في هذه الحقبة وأواخر القرن السابق : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن تاج الدين الأخنائي الشافعي [4] [٧٥٧ — ٨١٦ هـ] ولي

(١) الشذرات ١٦٥/٦ .
(٢) طبقات النحاة للسيوطي .
(٣) الدارس ٢٥٦/١ .
(٤) الدارس ١١٤/١ - ١١٥ .

القضاء في عدة مناطق ثم درّس في الظاهرية ، ونزل له عن المنصب علاء الدين الكركي كاتب السر الذي أخذه عن ابن الشهيد . كما ولي وكالة بيت المال ونظر الجيش ، ولكنه ما وفق في شيء كالتدريس والمشيخة .

ودرّس فيها القاضي العالم والأديب فتح الدين أبو بكر محمد بن ابراهيم ابن محمد المعروف بابن شهيد كاتب السر بدمشق [٧٢٨ — ٨٢٣](١) اشتغل في العلوم وتفنّن وفاق أقرانه في النظم والنثر . ولي تدريس الظاهرية عوضاً عن ابن قاضي الزبداني الذي نزل له عنها .

وولي التدريس فيها أيضاً شمس الدين محمد بن عبد الدايم البرماوي الشافعي(٢) [٧٦٣ — ٨٣١ هـ] : تفقه في شبابه ، وسمع من ابراهيم بن اسحق الآمدي وعبد الرحمن بن القاري وغيرهما ، كان خيّراً ، متواضعاً ، مصنفاً ، ناظماً ، له ألفية في أصول الفقة ، شرحها في نحو مجلدين ، ويقول عن هذا المؤلف إنه جملة ما حصل طول عمره . كما شرح لامية ابن مالك شرحاً جيداً ، واختصر السيرة . جاور بمكة ثم انتقل الى القاهرة ومنها الى القدس حيث توفي سنة ٨٣١ هـ .

أما دار الحديث فقد عرف أن شمس الدين البهنسي ٨٣١ هـ(٣) تولاّها عصرئذ وكان ساكناً ليناً ، وعرف أنه كان يقرأ البخاري بالجامع المقابل للشبلية وغيره .

ودرس القرن العاشر واستمع طلاب الظاهرية إلى الشيخ تاج الدين عبد الوهاب ابن شرف الدين يونس الميثاوي الشافعي(٤) [٩٢١ — ٩٥٨] ،

(١) الدارس ١/٣٥٣ .
(٢) الشذرات ٧/١٠٦ .
(٣) ذيل ابن شهبة سنة ٨٣١ هـ .
(٤) الشذرات ٨/٣٢١ .

قرأ على والده، وعلى الشيخ تقي الدين البلاطنسي، وأبي اللطف المقدسي، وأجازه كما أجازه مفتي بعلبك البهاء بن القصي، والجمال الديروطي، وسمع على التاج العرضي.

نشأ من صغره في طاعة الله متأدباً متواضعاً سليم الفطرة منور الطلعة، درّس في الفقه والنحو والتفسير والحديث.

وسمع طلبة العلم في دمشق من أهل القرن الحادي عشر صوت الشيخ رمضان بن عبد الحق العكاري الدمشقي الفقيه الحنفي [٩٨٤ — ١٠٥٦ هـ][١] يدرس في الظاهرية، وكان عالماً بالفقه والعربية متبحراً فيها، وكان غاية في جودة التعليم وحسن التفهيم. وله اطلاع زائد على فروع المذهب.

كما عرفت الظاهرية الشيخ زكريا بن حسين بن مسيح البوسنوي الدمشقي[٢] [٩٢٥ — ١٠٧٣ هـ] كان يحسن اللغات الفارسية والتركية والبوسنوية والعربية وكان يكتب الخط المليح. وله فضيلة وحسن ومنادمة. مات سنة ١٠٧٣ هـ. ودفن في مقبرة الفراديس.

أما القرن الثاني عشر فقد شهد فيه إيوان الأحناف في المدرسة الظاهرية الشيخ عبد الرحمن بن أحمد القاري[٣] الحنفي الدمشقي، أحد الصدور من أعيان دمشق، تولى أمر تدريس الظاهرية حتى إنه درس بها حين أمر والي دمشق مراد قزك بأن يلازم المدرسون في كل مكان الدروس والإقراء، وقبله

---

(١) خلاصة الأثر ١٦٧/٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سلك الدرر ٢٨١/٢

كان واليا دمشق نصوح باشا ثم حسين باشا قد أمرا بذلك . فصار مدرس كل مدرسة يباشر الإقراء ويوكل عنه من يقوم بالتدريس . واستقام ذلك قليلاً ثم عاد الأمر إلى سابق عهده . وكان الشيخ عبد الرحمن حين يقرأ ، يسرد العبارة فإذا صدر منه خلل في بعض المسائل أو غلط لا يقدر أحد على ردّه ؛ وكلهم من الأفاضل ، أجلاء صامتون ناصتون . وكانوا أحياناً يصححون له أماليه قبل أن يقرأها ثم يمليها هو سرداً .

وشهد إيوان الشافعية فيها علي بن الحسين الشافعي المصري(١) نزيل دمشق . كان عالماً فاضلاً ملازماً للتقوى والصلاح حافظاً لكتاب الله . قطن أولاً بالمدرسة الاخنائية الكائنة قرب الجامع الأموي جانب السميساطية ، ثم تحول إلى المدرسة الجقمقية ، ثم إلى الظاهرية ، حيث أقرأ الأولاد القرآن الكريم ، كما أقرأ النحو وغيره .

أما كتب التراجم للقرن الثالث عشر(٢) فلم تضع يدنا في يد شيخ واحد درّس أو سمع في الظاهرية لنفهم منه ما آلت إليه هذه المدرسة ، مما يدل على تضاؤل شأنها بَعْدَ عز وبُعد صيت ، واقتصار شيوخها على تعليم الصبية وكأنها آلت إلى كتّاب ، ولم يكن لها ذلك المركز الممتاز الذي تمتعت به قبل اندثار أوقافها على أيدي مختلسيها وذراريهم على مر الزمان .

---

(١) سلك الدرر ٣/٢١٣ .

(٢) كحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر للشيخ عبد الرزاق البيطار تحقيق حفيده العالم الشيخ محمد بهجة .

والحق أن المدرسة الظاهرية كانت في هذا القرن تحتضر كمدرسة المذهبين ودار حديث ، وأقامت الحكومة التركية فيها مدرسة ابتدائية رسمية تشرف عليها وزارة المعارف .

حتى إذا ما أشرف هذا القرن على نهـــايته ، وكادت ظاهريتنا تلفظ أنفاسها ، أعادها الله إلى الحياة بروح جديدة وثوب جديد ، على يد طائفة من العلماء الأجلاء ، أبرزهم المرحوم الشيخ طـاهر الجزائري ، ومنذئذ عرفت بدار الكتب الظاهرية . وتابعت مسيرها عبر الزمن لتؤدي الرسالة التي أخذت على نفسها أداءها على خير وجه .

(يتبع) أسماء الحمصي



التعريف والنقد

التاريخ الحربي الإسلامي

في سلسلة من المؤلفات القيمة

صنع اللواء الركن محمود شيت خطاب

- ٢ -

الكتاب الأول

الرسول القائد

الطبعة الثالثة ، مطابع دار القلم — القاهرة ١٩٦٤ م

هذا كتاب جليل ، فيه تأريخ وفيه علم وفيه متعة ، يجدر بكل عربي ومسلم أن يقرأه ، كما يجدر بكل مؤرخ وعسكري أن يضمه إلى مكتبته ، حلّل مؤلفه بعمق ، ودرس بإخلاص ، **الجانب العسكري** من سيرة الرسول الأعظم محمد ﷺ ، مثبتاً فيه مواهب الرسول العسكرية والإدارية ، كاشفاً عن عبقريته الفذّة التي حققت النصر لجيوش المسلمين بتأييد من الله عزّ وجلّ .

أخرجت الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٥٨ م المطبعة الإسلامية في بغداد في ٣٧٦ صفحة من القطع المتوسط ، وتولى مؤلفه تقديمه إلى القراء قائلاً :

« لقد تحدث مؤرخو السيرة عن معارك الرسول ﷺ بإسهاب أو باقتضاب ، ومع ذلك فإن الباحث يخرج من دراسة كل معركة دون أن يلم بكل تفاصيلها

ووقائعها ودوافعها ، ويعود ليسأل نفسه : ما هو موقف الطرفين قبل المعركة ؟ كيف جرى القتال ؟ وما هي الدروس التي نستفيدها من المعركة ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الحيوية الملحة . إن وصف معارك القواد المسلمين ، وعلى رأسهم الرسول ﷺ بهذا الأسلوب الذي لا يقنع باحثاً ولا يشفي غلة دارس ، جعل تاريخ الحرب الحديث يورد أمثلة من أعمال القواد غير المسلمين ... ولا يورد أمثلة من أعمال القواد المسلمين ... بينما يدرّس هذا التاريخ للمسلمين وفي بلاد المسلمين ! » .

ويميط اللواء خطاب اللثام عما كشفه في سيرة الرسول الأعظم قائلاً : « لقد قرأت أكثر كتب السيرة في تدبر وإمعان ، وحاولت أن أستشف منها كل نواحي العظمة التي تتسم بها شخصية الرسول ﷺ ، ولكني وجدت أن **عبقريته العسكرية** التي لا تتطاول إليها أية عبقرية أخرى لأي قائد في القديم أو الحديث ، تكاد تكون متوارية محجوبة لم يتح لها من يكشف أسرارها ويجلي عظمتها بأسلوب حديث يجنح إلى الكشف والتحليل وإبراز المواهب النادرة ، وخاصة من عسكري يستطيع أن يلم بنواحي العظمة العسكرية التي تكمن فيها ويظهرها جلية للعيان . » .

وأخذ اللواء خطاب يعمل جاهداً لتأليف كتاب ، متوخياً فيه تنسيق المعلومات التاريخية وكل ما يتصل بالشؤون الحربية الواردة في كتب السيرة ، وعرضها من جديد بأسلوب بسيط ، فكان كتابه القيم **« الرسول القائد » :** وفي هذا الكتاب سجل المؤلف جميع المعارك التي خاضها المسلمون بقيادة الرسول ﷺ ، عارضاً على قرائه الموقف العام لكل من المسلمين وخصومهم قبل كل معركة ، مبيناً عدد قوات كل منها وأهدافها الحربية ، متحدثاً عن سير الحوادث قبل القتال وأثناءه وبعده ، ومن ثم عن نتائج كل معركة

والدروس التي يمكن أن تستخلص منها من الناحية العسكرية ، ولقد أغفل المؤلف بعض الظواهر الخارقة والمعجزات النبوية التي لا يمكن أن تحدث في الحروب العادية بين فريقين متطاحنين من البشر ، وهي المعجزات والخوارق التي أيّد الله بها نبيه الكريم ، أغفلها المؤلف لا لأنه لا يؤمن بها ، فهو رجل مسلم ، وتلك المعجزات والخوارق ـ كما يقول ـ « أمر يؤمن به كل مسلم ، وقد أثبته القرآن بما لا يدع فيه مجالاً لشك أو ريبة » ولكن لأن « الخوارق **لم تكن وحدها أداة النصر** والعامل الذي غلب به الرسول ، والذين يذهبون إلى هذا يسلبونه قوته كقائد ، وكيف يحتذي المسلمون سيرته ويتبعون في الحروب نهجه وسنته ، إذا لم يكن لفنه الحربيّ الأصيل ومواهبه العسكرية النادرة ، الأثر العظيم في ظفره ونصره . إن الخوارق كانت إيذاناً للنبي بأن الله معه لا يتخلى عنه ، حتى يشحذ همته ويثير عزيمته وينبهه بكل ما فيه من حواس اليقظة إلى أعدائه المحاربين » .

وينتهي اللواء خطاب في مقدمته إلى القول : « إن المسلم الصحيح هو الذي يقدّر الرسول ﷺ حقّ قدره ، فيعترف بأن كفاءته ﷺ **قائداً ممتازاً** وكفاءة أصحابه **جنوداً ممتازين** ، هي التي أمّنت لهم النصر » .

وخرج كتاب « **الرسول القائد** » من المطبعة ، فقرىء في العراق وبعض البلاد العربية ، غير أن ظروف طبعه عام ١٩٥٨ م لم تسمح للكتاب بأن ينتشر في كثير من البلاد العربية والإسلامية ، مما دفع مؤلفه لإعادة طبعه ثانيـــة فكتب مقدمة لهذه الطبعة قال فيها : « الله يعلم أنني لم أرد بهذا الكتاب إلا وجهه الكريم . وأن أقضي واجباً كنت ولا أزال أشعر بثقل مسؤوليته الجسيمة خدمة للرسول القائد بإظهار ناحية الجهاد في الإسلام مبسّطة في جهاد النبي العربي العظيم ، لهـــذا وافقت على إعادة طبعه ليتيسّر اقتناؤه في أوسع نطاق من بلاد المسلمين » .

واشتد الطلب على هذا الكتاب ، بعد أن نفدت طبعته الثانية أيضاً ، فقامت « **دار القلم** » بإعادة طبعه طبعة جديدة متقنة على ورق صقيل ، بعد أن أعاد المؤلف النظر في الطبعة السابقة فنقحها وزاد عليها بعض الشيء ، فأضحى الكتاب في نحو من ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط ، وهو مزين بعدد من الخرائط والمخططات والرسوم التي توضح موضوعات الكتاب المتضمنة التاريخ الحربي للمسلمين منـــذ ظهور الإسلام حتى انقضاء عهد الرسول الكريم ﷺ .



قسم المؤلف كتابه إلى خمسة عشر فصلاً ، اختار لها من آي القرآن الكريم أو من وقائع التاريخ العناوين التالية :

١ — **الحرب العادلة** : تكلم المؤلف في هذا الفصل عن معنى القتال في الإسلام ، وأنه ما شرع فيه إلا لتأمين حرية نشر الدعوة وتوطيد السلام ، كما تكلم عن أهداف هذا القتال وأنواعه ، وكيفية تنظيمه ، وشروط التجنيد من أجله ، ومما أشـار إليه المؤلف ، أن التجنيد في الإسلام كان يشمل النساء البالغات ، إلى أن قامت الدولة العباسية ، فأضاف الفقهاء « **الذكورة** » إلى شروط التجنيد ، ويعلق المؤلف على هذا الشرط قائلاً إنه : « **انحراف لا يقره الإجماع** » ، ولـــما ذَكَرَ « **الاسلام** » شرطاً آخر من تلك الشروط ، علّق هذا الشرط قائلاً : « ليدافع ـ المجنَّد ـ عن بلاد المسلمين عن عقيدة وإخلاص » ونرى أنه كان من المستحسن أن يشير المؤلف في تعليقه هذا إلى إمكان الاستثناء من هذا الشرط في ظروف معينة ، إذا ما رأى الإمام مصلحة للمسلمين تدعو إلى هذا الاستثناء ، وأهم هذه الظروف حالة

تطوع الذميين التي أشار المؤلف إليها في الفصل نفسه من الكتاب قائلاً : « إن الإسلام أعفى دافع الجزية من الخدمة في الجيش ، والذمي الذي يقبل التطوع في الجيش الإسلامي تسقط عنه الجزية »[1] .

ومما لفت نظرنا في هذا الفصل تعريف الحرب العادلة بأنها : « هي التي توجّه ضد **شعب ارتكب ظلما** نحو شعب آخر ولم يشأ رفعه ، ويشترط فيها : أن تكون مطابقة للقواعد الإنسانية . . . » ولو أبدل المؤلف - كما نرى - بكلمة « **شعب** » الأولى كلمة « **دولة** » لكان التعريف أرحم بالشعوب والأمم فالظلم ليس من شيمها بمقدار ما هو من شيم « **الدول** » التي تضمها ، أعني ملوكها وحكامها من الطغاة والمستبدين .

٢ — **قبل نشوب القتال** : وفي هذا الفصل تكلم المؤلف عن الموقف العسكري للمسلمين مذ قامت الدعوة إلى الإسلام سرًّا ، إلى أن تمّ تنظيم صفوف المسلمين بعد هجرتهم إلى يثرب ، وأعطى القارئ فكرة واضحة عن الموقف العسكري للمسلمين من جهة ولكل من المشركين والفرس والروم من جهة ثانية ، وأجاب المؤلف ، في توضيحه الموقف العسكري للطرفين ، كل من يتساءل عن هذه السرعة الفائقة التي تم بها الفتح الإسلامي وإقامة **دولة الاسلام** العظيمة ، فقد كانت غلبة المسلمين — كما يرى المؤلف — أمراً يحتّمه ذلك الموقف .

٣ — **الدفاع عن العقيدة** : خصّ المؤلف هذا الفصل بالكلام عن دوريّات القتال التي كان الرسول ﷺ يبعث بها من المدينة للنواحي بغاية إشعار المشركين واليهود بقوة المسلمين ، كي يتساح لهم القيام بنشر دعوتهم

(١) انظر ص ٣٣ .

والدفاع عن عقيدتهم باطمئنان ، وألحقَ المؤلف بهذا الفصل جدولاً مفيداً ذكر فيه بجانب اسم كل غزوة أو سرية بعثها الرسول الكريم اسم قائدها وقائد المشركين ، وتاريخ وقوعها ، والنتائج العسكرية التي أسفرت عنها .

٤ — **الصراع الحاسم بين عقيدتين** في هذا الفصل حدثنا المؤلف عن غزوة بدر الكبرى ، **المعركة الحاسمة الأولى** في تاريخ الإسلام ، وعن كل ما يتصل بها . فتحدث عن قوات الطرفين قبل المعركة وبعدها ، وعن غاية كل طرف منها ، وعن سير القتال وخسائرهما ، وعن أسباب انتصار المسلمين المتمثلة في قيادة موحدة وتعبئة جديدة وعقيدة راسخة ومعنويات عالية ، وختمَ المؤلف الفصل ببيان الدروس المستفادة من هذه المعركة ، وبقائمة بأسماء شهداء بدر ومن شهدها من المسلمين على اختلاف قبائلهم .

٥ — **القاعدة الأمينة** : ويقصد المؤلف بها مدينة الرسول الكريم « **يثرب** » ، وقد بين في هذا الفصل كيف قام الرسول ﷺ بتطهير المدينة من اليهود بحصار بني قينقاع ، بعد أن أظهروا عداوتهم للإسلام ، ثم بين كيف فرض الحصار الاقتصادي على قريش بعديد من الغزوات ، وفي نهاية الفصل بين الدروس المستفادة من حركات التطهير هذه التي كانت « **حرباً باردة** » كما تسمى في المصطلح العسكري الحديث ، وبها تم للمسلمين جعل المدينة « **قاعدة أمينة** » للإسلام ، فتم لهم بعدئذ الفوز والنصر المبين .

وكم سيصبح عمل المؤلف جليلاً بالغ القيمة لو استطاع — من أجل طبعة قادمة — القيام بزيارة الأماكن التي جرت فيها معارك المسلمين الهامة ، ثمّ وصفها لنا بدقة القائد الخبير بأرض المعركة ، على أنه يجدر به — على الأقل — القيام بتحقيق مواضع وأسماء الأماكن التي وردت في أبحاثه دون الاكتفاء في تحديد مواقعها بما ورد في معجم البلدان أو في كتاب الطبقات

لابن سعد ، أو في غيرها من المعاجم غير الموثوقة في المعلومات الجغرافية ، خاصة في مثل هذا العصر الذي تغيّرت فيه معالم كثير من البلدان والأماكن أو تبدلت أسماؤهـا ، أو اختلفت تبعيتها السياسية ، ولنضرب أمثلة على بعض أسماء الأماكن الواردة في ثنايا الكتاب نقتطفها من هذا الفصل ومن غيره من الفصول :

أ — في الصفحة ١٤٣ ورد ذكر بني قَيْنُقاع ، الذين تركوا المدينة وساروا نحو بلاد الشام حتى بلغوا « **أذريعات** » وفي هامش الصفحة قال المؤلف : « أذريعات : موضع كائن في منطقة شرقي الأردن حالياً بين أجنادين والشام » وفي الصفحة ٢٣٦ في معرض الكلام على غزوة بني قُرَيْظة ورد أن اليهود عرضوا على النبي ﷺ الخروج إلى « **أذْرِعات** » وفي هامش الصفحة قال المؤلف : « أذرعات : بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان : انظر معجم البلدان » .

إن البلدتين المذكورتين في العبارتين السابقتين مقصود بها مدينة واحدة والصياغة الثانية أصح ، على ما ورد في أمهات العربية [1] ، وأذرعات ، بكسر الراء وقد تفتح ، **مدينة سوريّة اليوم** ، وهي مركز إحدى محافظات الجمهورية العربية السورية المجاورة للملكة الأردنية ، واسمها المشهور الآن هو « دَرْعا » بتسكين الراء .

ب — في الصفحة ٢٤٣ ورد ذكر سريّة زيد بن حارثة إلى « **حِسْمَى** » وعلق المؤلف في الهامش قائلاً : « حسمى : أرض بادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان وبين وادي القرى والمدينة ست ليال : انظر التفاصيل

(١) في تاج العروس : أذرعات بلد بالشام قرب البلقاء من أرض عمان تنسب إليه الخمر .. وقال يعقوب في البدل : يذرعات :

معجم البلدان » . وأرض حسمى واضحة على خريطة المملكة العربية السعودية اليوم ، وهي واقعة غربيّ تبوك بينها وبين مدين على ساحل البحر الأحمر ، وقد أثبت اسمها على الخريطة بصيغة « **حسما** »(١) .

هـ — في الصفحة ٢٩٥ عند الكلام على غزوة « **مُؤْتة** » قال المؤلف في الهامش : « **مؤتة** قرية من قرى البلقاء في حدود الشام . انظر التفاصيل في معجم البلدان . وهي بأدى ـ أدنى ـ البلقاء ، والبلقاء دون دمشق . انظر طبقات ابن سعد » . ومؤتة : موضع في الجنوب الشرقيّ من البحر الميت ، وهو اليوم في **المملكة الأردنية الهاشمية** .

ز — في الصفحة ٣٨٧ ورد ذكر غزوة **تَبُوك** فعلق المؤلف في الهامش قائلاً : « تَبوك : موضع بين وادي القرى والشام ، وهو حصن به عين ونخل . أنظر التفاصيل في معجم البلدان » وكان من حق هذا الموضع الهام أن يشار إلى أن مدينة هامة تقوم فيه اليوم ، وهي من البلدان المعروفة في الشمال الغربيّ من **المملكة العربية السعودية** ، واقعة على الخط الحديديّ الذي كان يصل دمشق بالمدينة .

ح — في الصفحة ٣٩٢ ورد ذكر **البَلْقاء** فنقل المؤلف عن معجم البلدان تعريفها قائلاً : « كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عمان » والبلقاء اليوم أهم محافظات **المملكة الاردنية الهاشمية** ، وأهم مدنها عاصمة المملكة « **عمان** » . تليها السلط ثم مأدبا .

---

(١) هذه الخريطة من أحدث وأدق المصورات للمملكة العربية السعودية وقد طبعتها حديثاً « شركة الزيت العربية السعودية » وفي تاج العروس : حسمى بالكسر مقصورة : أرض بالبادية بها جبال شواهق ملس الجوانب لا يكاد القتام يفارقها ... وإليها كانت سرية زيد بن حارثة .

ط — في الصفحة ٣٩٣ ورد ذكر مصالحة المسلمين لصاحب « أيْلَة » ونقل المؤلف في الهامش عن معجم البلدان تعريف هـــذه المدينة فقال : « أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام وهي آخر الحجاز وأول الشام » وكان من الواجب بيان أن هذه المدينة تقع في شماليّ ما يسمى اليوم بخليج **العقبة** وهي ميناء في **أرض فلسطين** المحتلة جنوبيّ النقب ، وكُتّاب العصر أصبحوا يرسمون اسمها تقليداً بصيغة « **إيلات** » .

ج — في الصفحة ٢٩٠ ورد ذكر يهود **تَيْماء** ، وعرّف المؤلف هذه البلدة قائلاً : « تيماء : بلد في أطراف الشام ، بين الشام ووادي القرى . انظر التفاصيل في معجم البلدان » وبلدة تيماء معروفة اليوم في جنوبيّ الحفرة في الشمال الغربيّ من **المملكة العربية السعودية** ، وهي واقعـــة على الطريق الرئيسة بين المدينة وتبوك .

د — في الصفحة ٢٩١ عند الكلام على سريّة أبي بكر الصديق إلى بني كلاب في نجد ورد ذكر ناحية ضَرِيّة » فعرّفها المؤلف قائلاً : « ضرية : قرية في نجد عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة . انظر التفاصيل في معجم البلدان » القرية المذكورة من قرى نجد المعروفة حتى اليوم وهي واضحة في خريطة **المملكة العربية السعودية** وتقع في الجنوب الغربيّ للقصيم شماليّ الطريق الكبرى التي تصل الرياض بمكة .

و — في الصفحة ٢٩٦ عند الكلام على غزوة مُؤْتَة ذُكر وصول قوات المسلمين مَعَان من أرض الشام ، وعرّف المؤلف هذه البلدة قائلاً : « معان : مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء ، انظر التفاصيل في معجم البلدان » ومعان اليوم مدينة أردنية وهي مركز إحدى محافظات

المملكة الأردنية الهامة ، وتقع على الطريق الرئيسة الواصلة بين عمان وتبوك من جهة ، وبين عمان والعقبة من جهة ثانية .

٦ — **النصر المغلوب** : خصَّ المؤلف هذا الفصل بغزوة أُحُد ، فتكلم فيه عن الموقف العام الذي كان عليه المسلمون والمشركون على السواء ، ثم تحدث عن سير القتال ونهاية المعركة مع بيان دقيق عن خسائر الطرفين ، وأسباب نكبة المسلمين ، والدروس المستفادة من هذه المعركة مع دراسة عميقة لنتائجها ، وهل كانت في حقيقتها انتصاراً للمشركين واندحاراً للمسلمين ، أم أنها كانت شيئاً آخر ؟ وأعلن المؤلف رأيه صريحاً بقوله : أنا لا أتفق مع المؤرخين في اعتبار نتيجة (**أحد**) **نصراً للمشركين واندحاراً للمسلمين** ، لأن مناقشة المعركة عسكرياً ، تظهر انتصار المسلمين على الرغم من خسائرهم الفادحة في المعركة » ثم ناقش هذا الرأي مناقشة عسكرية رائعة . انتهى فيها إلى اثبات أن معركة أحد وإن كانت « **نصراً تَعْبَوياً** » للمشركين فإنها كانت « **فشلا سَوْقياً** » لهم ، قائلاً : « **ولا يُعَدُّ النصر التعبويّ شيئاً يذكر إلى جانب الفشل السَوْقيّ** » .

٧ — إعادة النظام : في هذا الفصل تكلم المؤلف عن التطهير الجديد الذي اضطر المسلمون إليه بعد معركة أُحد ، لكي يستعيدوا سمعتهم الممتازة لدى مختلف القبائل العربية ، وذلك بعد أن تكشفت لهم عيوب وعقبات ومشاكل داخلية وخارجية بسبب وجود منافقين بينهم وقيام يهود بالقرب منهم ، وبسبب ما قامت به قريش من تأليب العرب عليهم ، وقد بين المؤلف الغزوات التي قام بها المسلمون في سبيل إعادة النظام إلى صفوفهم ، مع تعداد الدروس المستفادة من تلك الغزوات ، وفي أولها ما أسماه « **الابداع** » المتمثل بسرعة الخاطر في إعطاء القرار الحازم الصحيح في المواقف الحرجة ، وذلك من أجل سبق العدو في العمل وإرغامه على تبديل الخطة التي رسمها لنفسه ، وهو الأمر

الذي قام به الرسول ﷺ في هذه الفترة التي خصّ المؤلف هذا الفصل بها ، مما يدل **مزية من أعظم مزايا القائد الكفؤ** .

٨ ـ **هازم الأحزاب** : خصّ المؤلف هذا الفصل بـ « **غزوة الخندق** » وسير القتال فيها وأسباب فشل الأحزاب ، والدروس العسكرية المستفادة من هذه الغزوة ، وكيف انتقل المسلمون ، في اليوم الذي انتهت فيه ، من دور الدفاع إلى دور الهجوم ، مصداقاً لما قاله الرسول ﷺ يومئذ لأصحابه : « **الآن نغزوهم ولا يغزوننا** » .

٩ ـ **القصاص العادل** : وهذا فصل خصّه المؤلف بمحاسبة الغادرين من يهود ومشركين ، فتكلم فيه عن « **غزوة بني قُرَيْظَة** » وغيرها من الغزوات ، والسرايا التي أمر بها الرسول ﷺ من أجل توطيد الأمن وتشديد الحصار الاقتصادي على المشركين ، ثم بيّن المؤلف الدروس المستفادة من كل تلك الغزوات والسرايا ومن أهمها ما يسمى بالمصطلح العسكري « المباغتة » وهي من « أهم مبادىء الحرب قديماً وحديثاً ، وقد حرص المسلمون على تطبيق هذا المبدأ في أكثر غزواتهم ، مما ساعدهم على النصر » .

١٠ ـ **الفتح القريب** : وفي هذا الفصل تكلم المؤلف عن « **غزوة الحديبية** » وعن الموقف الحربي العام بين المسلمين والمشركين ، وعن المفاوضات التي جرت بين هؤلاء وبين النبي ﷺ وانتهت بهدنة انبثق عنها « **عهد الحديبية** » ثم بيّن الدروس المستفادة من تلك الهدنة ، ومن أهمها ما أسماه في المصطلح العسكري « **الضَبْط** » وعنى به انجاز العمل المطلوب على أحسن وجه مع حبس الانفعالات الناجمة عن أي ظرف أو حالة من الحالات الصعبة التي تواجهها القوات المحاربة ، وأوضح المؤلف بعدئذ المزايا القيادية التي تحلى بها الرسول ﷺ ، والتي مهدت للفتح المظيم ومن ثم لانتشار الإسلام بالسرعة العظيمة التي انتشر بها .

١١ — **فترة المدنة** : تكلم المؤلف في هذا الفصل عن الثمرات التي جناها المسلمون من « **عهد الحُدَيْبِيَة** » ، وعن « غزوة خَيْبَر » التي أثمرت نهاية يهود من الجزيرة العربية ، كما تكلم عن سرايا تأديب الأعراب الذين كانوا يعيثون بالأمن فساداً ، يغيرون على المدن ويغدرون بالناس ؛ وأخيراً تكلم المؤلف عن الغزوات والسرايا التي قام بها المسلمون في هذه الفترة والدروس التي يمكن استخلاصها من كل واحدة منها ، ومن أهم ما تم في الفترة المذكورة قيام النبي عليه الصلاة والسلام بتوجيه **كتب إلى ملوك الدول المجاورة** يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام ، ومنها أيضاً شروق شمس الإسلام على جميع أرجاء الجزيرة العربية .

١٢ — **عودة المستضعفين** : في هذا الفصل حدثنا المؤلف عن أولئك المسلمين الذين نزلت بحقهم الآية الكريمة : « ونريدُ أن نَمُنَّ على الذينَ استضعِفُوا في الأرضِ ونجعلَهُم أئمةً ونجعلَهمُ الوارثين » كيف منَّ الله عليهم بفتح مكة ، وكيف دخلوها أعزة بالإسلام بعد أن أخرجهم قومهم منها أذلة ، ثم بيّن لنا الدروس المستفادة من معركة الفتح التي وصفها بقوله أنها كانت « **معركة معنويات وتخطيط سليم** » أكثر منها « **معركة ميدان وقتال** » ، معركة انتهت بانتصار عقيدة التوحيد وبتحطيم الأصنام التي كانت تعبد من دون الله .

١٣ — **استثمار الفوز** : وخصَّ المؤلف هذا الفصل بالحديث عن « **غزوة حنين** » وبحصار الطائف وسرايا الدعوة ، والدروس المستفادة من كل ذلك .

١٤ — **مولد امبراطورية** : خصَّ المؤلف الفصل الرابع عشر من كتابه بالكلام على « **غزوة تبوك** » ، الغزوة التي انتصر فيها المسلمون على جيوش

الروم وأذنت بقيام « **دولة الاسلام** » وقد عالج المؤلف الأسباب المباشرة للغزوة وأسبابها غير المباشرة ، مبيناً أهمية الإستعدادات العسكرية والمصالحات التي قام بها الرسول ﷺ في سبيلها ، ثم تكلم عن « **سرايا الدعوة** » التي بعث بها إلى اليمن والشام ، وعن الدروس المستفادة من كل ذلك ، وفي طليعتها تطبيق مبدأ من أهم مبادىء الحرب الحديثة والمسمى « **الحروب الجماعية** » ، ذلك المبدأ الذي أوضحه قائد ألماني كبير من المعاصرين بقوله عن الحروب الحديثة : « إنها تقوم على حرب الأمم ضد الأمم ، ولهذا يجب أن تضع الأمة كل قواها الفعلية والأدبية والمادية في خدمة الحرب ، وأن تكون هذه القوة مخصصة للحرب التالية » .

١٥ — **التطبيق العملي** : واختتم اللواء خطاب كتابه « القائد الرسول » ببحث مقارن عن المبادىء المثالية التي جاء بها القرآن الكريم والخاصة بأغراض وأهداف وتنظيم ما يسمى بعصرنا الحديث بـ « **الحروب العادلة** » .

لقد ردّ المؤلف جميع الانتصارات العظيمة التي حققتها جيوش المسلمين بقيادة الرسول ﷺ إلى عوامل عسكرية محضة ، وهي إلى جانب تأييد الله عز وجل لمن اتبع دينه القويم ، تتلخص في الأسباب الأربعة التالية :

أ — قيادة عبقرية .

ب — جنود ممتازون .

ج — حرب عادلة .

د — تردي الموقف العسكري لدى أعداء الإسلام .

وقد شرح المؤلف الكريم كل سبب من هذه الأسباب شرحاً وافياً ، مقارناً كل العوامل التي رافقت معارك الرسول ﷺ بأحدث الأساليب العسكرية، مبيناً معنى كل مصطلح عسكري حديث استعمله في بحثه كالمباغتة ، والاقتصاد

بالجهود ، وتوفير الأمن ، والمرونة ، وسبق النظر ، والتمرّض ، وإدامة المنويات ، وحسن الإدارة وغيرهـا ، وكل ذلك بلغة مبسطة سهلة جديرة بالإعجاب والتقدير .

وهكذا انتهى اللواء خطـاب إلى القول بأن الأرض **إنما يرثها عباد الله الصالحون** .



يوم بدأت في قراءة كتاب « **الرسول القائد** » وقفت طويلاً عند قول المؤلف في مقدمته للطبعة الثانية : « .. وسيجد القراء الكرام ، **أن الحرب في الاسلام حرب دفاعية بكل ما في الكلمة من معنى** ، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحد .. » وتَدَاعَتْ عليَّ الأفكار أمام هذه الجملة التي اعتدنا قراءة ما تضمنته من معنى ، في كثير من الكتب والمقالات ، أو سماع مثلها في كثير من الخطب والمحاضرات ، وهي ترد عادة في **معرض الدفاع عن سمعة الاسلام** ونفي ما يزعمه أعداؤه من أنه دين قام على الإكراه وإجبار الناس على الدخول فيه ، أو ترد في معرض الرد على من يزعم بأن دولة الاسلام ما قامت إلا على سواعد رجال بُداة أتقنوا صناعة الموت فحملوا السيف واجتاحوا البلاد المجاورة لهم ، فلما خضعت لقوتهم بعض الشعوب والدول ، أقاموا دولتهم على أنقاض ما هدموه من ممالك .



إن فكرة « **القتال في الاسلام حرب دفاعية لا هجوم فيها** » فكرة تهزّ مشاعر المسلمين وتطرب لها نفوسهم وتسكن إليها ، كلما سمعوها أو قرأوها رداً على هجمات أعداء الاسلام وخصومه ، إذ أن فيها تأكيداً على أن الدولة الاسلامية دولة إنسانية ، لا تحارب إلا **حرباً عادلة دفاعاً عن نفسها** ،

كما أن فيها إظهاراً لحقيقة الاسلام ، وأنه **دين الرحمة والسلام** ، لا إكراه فيه ولا اعتداء على أحد ، والله عزَّ وجلَّ يقول في محكم كتابه : « لا إكْرَاهَ في الدِّين » كما يقول : « وقاتِلوا الذينَ يُقاتِلونَكُم ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِين » .

ولكن هل الآيتان المذكورتان وآيات كثيرة ورد فيها النهي عن الاعتداء أو الأمر بالجُنُوح للسِّلْم ما جنح أعداء الإسلام إليها ، **توقف حكم** آيات أخرى تأمر بـ « **الجهاد** » وتحث المسلمين عليه كقوله وهو أعز قائل : « إنَّ اللهَ اشترى من المُؤْمِنين أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ ، بأنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ فيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وَعْداً عليهِ حقّاً في التَّوْراةِ والإنجيلِ والقرآن ، ومنْ أوفى بعهدِهِ منَ اللهِ ؟ فاستَبْشِرُوا ببَيعِكُمْ الذي بايَعْتُمْ بهِ وذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيم » وقوله تعالى : « يا أيُّها الذينَ آمَنُوا قاتِلوا الذينَ يَلُونَكُمْ منَ الكُفَّارِ ولْيَجِدُوا فيكُمْ غِلْظَةً واعْلَمُوا أنَّ اللهَ معَ المُتَّقِين » ؟ وهل حكم ـ الجهاد ـ الذي يدعو الإسلام إليه **منسوخ بحكم الآيات التي تحرِّم الاعتداء** ؟ أو هل أنَّ الجهاد في الاسلام **يتمثل في دفع المعتدين** فقط ، ولا يشمل **هجوماً** على عدو لم يبدأ المسلمين بقتال أو ما في حكمه ؟

يكاد الاتفاق بين علماء المسلمين يكون تاماً على أن آيات الجهاد والقتال في القرآن الكريم ليس فيها حكم منسوخ ، بل **كلها محكم يجب العمل به** ، خاصة وأن أكثر آيات الجهاد وردت في سورة التَّوبة وهي من آخر سور القرآن نزولاً ، كما أنه ليس في أسباب نزول أو في نصوص آيات الأمر بالامتناع عن الاعتداء أو الإكراه في الدين ، ما يستفاد منه **أي تخصيص أو تقييد لعموم وإطلاق** تلك الآيات ، أي لا يمكن الاستدلال من النصوص بأن آيات الجهاد في القرآن الكريم مخصصة أو مقيدة بآيات أخرى ، وبالتالي

لا يمكن القول اعتماداً على النصوص بأن القتال في الاسلام لا يكون إلا دفاعاً لردّ اعتداء بُدئ فيه ، أو بتعبير آخر لا يمكن القول اعتماداً على النصوص القرآنية بأن **الحرب الهجومية محرمة في الاسلام** .

حقاً إن الإسلام — كما هو صريح النصوص القرآنية — يدعو للسلام ويأمر بالجنوح للسلم كلما جنح الأعداء لها ، وحقاً إن الإسلام يحرم الاعتداء ويأمر بعدم مقاتلة غير المقاتلين ، كما أنه ينهى عن تجاوز حدود القتال بقتل غير المحاربين أطفالاً كانوا أو نساءً أو شيوخاً أو رجال دين ، ولكن هل **الجهاد في سبيل الله** الذي وصفه الرسول ﷺ : بأنه إحدى شعب الإيمان الثلاث ، ينحصر في **دفع الاعتداء** فقط ، ولا يباح فيه قتال من لم يبدأ القتال الفعلي ؟

يرى فريق كبير من علماء المسلمين ، الذين عالجوا هذا الموضوع في هذا العصر ، أن الجهاد هو الدعوة إلى الاسلام **والقتال في سبيل هذه الدعوة** حتى تنزل الأمم والشعوب على حكم الاسلام ، فإذا نزلت ، فالناس لا يكرهون على الدخول في الاسلام ولكل امرئ عندئذ الدين الذي يرتضيه ، وبعبارة أخرى : الجهاد لا يكون لإكراه الناس على أن يكونوا مسلمين ، بل هو **إعلاء لكلمة الله ودعم لدولة الاسلام** ، لذلك فالجهاد كما يكون حرباً دفاعية يكون **حرباً وقائية** ، وقد يكون **حرباً هجومية** يبدأ المسلمون فيها بالقتال كلما اضطروا لها أو وجدوا مصلحة للاسلام فيها .

كما يرى هؤلاء العلماء أنفسهم ، أن فكرة « **الحرب الدفاعية** » وصفاً للقتال الذي شرعه الاسلام ، **ليست فكرة إسلامية أصيلة** ، بل هي فكرة حديثة طارئة نجمت عن احتكاك المسلمين بالإفرنج ، بعد عصور طويلة من الانحطاط والضعف ، فلما بدأ المسلمون نهضتهم الحديثة في القرن

الماضي ، وأخذوا يقرأون ما كتبه الأوربيون عنهم ورأوا المستشرقين منهم خاصة يخوضون في أحكام الجهاد في الاسلام ، وبعضهم ينعي على الاسلام تلك الأحكام ، ويصمه بالوحشية مفترياً عليه بأنه قام على إكراه الناس حتى يكونوا مسلمين ، قام المتنورون من علماء المسلمين يدافعون عن دينهم **بتنزيه الجهاد عن أن يكون غير حروب دفاعية** لا هجوم فيها ولا اعتداء ، غافلين عما قد ينجم عن هذا الدفاع من إضعاف لمنى الجهاد وحط من شأنه في دعم دولة الاسلام .

وقد وصل الشك بالمستشرقين ، عند بعض أولئك العلماء ، إلى اتهامهم بدس فكرة « **الجهاد حروب دفاعية** » على المسلمين ليقولوا بها ، حتى يفقدوا الجهاد سلطانه على المسلمين ويبطل سحره في جماهيرهم ، لأن بعض ملوك المسلمين بعد أن تجزأت دولة الإسلام إلى ممالك وإمارات لا تجمع بين شعوبها إلا رابطة الدين ، كانوا يحتمون بسلاح التهديد بـ « **إعلان الجهاد** » تجاه مطامع الدول الأوربيّة في بلادهم ، كما كان بعضهم يلجأ إلى إعلان هذا الجهاد كلما اشتبك بحرب مع دولة من الدول الأجنبية . والشاكّون بكون المستشرقين أول من قال بالفكرة المذكورة ، لا يفرقون بين أن يكون أول من جرت على قلمه الفكرة ، إن كان من المستشرقين ، **حسن النية** كتبها وهو يعتقد بأنه ينصف الإسلام بها تجاه افتراء علماء قومه ، أو أنه كان « **سيء النية** » دس الفكرة لتنتشر بين المسلمين فينفل سلاح ملوكهم ويفقدوا قوة كامنة في العالم الإسلامي كانت ترهب أصحاب المطامع الصليبية .

لقد كان من حق التأريخ أن يتفرغ متخصص لدراسة حقيقة منشأ الفكرة المشار إليها ، لنعرف وجه الصواب في الدافع اليها ، غير أن أكثر العلماء المسلمين المعاصرين الذين تعرّضوا لدراسة موضوع الجهاد في الإسلام ،

أخذوا فكرة « القتال في الإسلام حرب دفاعية » وكأنها فكرة مسلم بها ، استناداً إلى الآيات القرآنية التي تحرم الاعتداء ، وتنهى عن قتال من لم يبدأ المسلمين بالقتال ، حتى إذا ما صدر الجزء الأول من أضخم كتاب في الفقه الإسلامي يبحث فيما يسمى « العلاقات الدولية » تأليف الإمام محمد بن الحسن الشيباني(١) ، قام الأستاذ الكبير محمد أبو زهرة ، الذي كتب مقدمة قيمة لهذا الكتاب ، بترديد فكرة « الحرب الدفاعية » محاولاً تفسيرها بتوسيع مفهومها حتى يتلاءم مع مفهوم « الجهاد » فقال(٢) : [.. ومن أجل ذلك شرع القتال في الإسلام ، فقد شرع على أنه أساس لدفع الاعتداء ، قال تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِين » ونرى في هذا النص الكريم دلالة على أمرين جليلين : أحدهما — أن القتال في الاسلام إنما أبيح لردّ الاعتداء بمثله ، فهو لا يقاتل إلا الذين يعتدون على أهله ويقاتلونهم . الأمر الثاني — أن يلاحظ من رد الاعتداء أنه أبيح له القدر الضروري للدفاع ، فلا يصح له أن يعتدي فلا يتجاوز حدّ الدفاع . . .] ومن ثم يستقري الأستاذ أبو زهرة حروب النبي ﷺ فيجدها كانت لأحد أمرين :

---

(١) كتاب « السير الكبير » للامام الشيباني المتوفى سنة ١٨٩ هـ بشرح الإمام السرخسي المتوفى سنة ٤٩٠ هـ . وقد بدأت جامعة القاهرة بطبعه بطلب من « الجمعية الشيبانية » التي ألفت في أوربة لإحياء ذكرى الإمام الشيباني باعتباره أول من خص القانون الدوَلي العام بكتاب مستقل ، وقد مهد لطبعة جامعة القاهرة وعلق عليها الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة وحقق نصوصه الأستاذ مصطفى زيد ، وقد صدر الجزء الأول من الكتاب سنة ١٩٥٨ م . هذا وإن معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية قام أيضاً بنشر ثلاثة أجزاء من الكتاب نفسه بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

(٢) انظر الصفحات ٤٤ ــ ٦١ من طبعة جامعة القاهرة من الجزء الأول لكتاب « السير الكبير » .

[أولها : اعتداء بالفعل من الذين قاتلهم ... وليس من اللازم أن يقع الاعتداء بالفعل ، بل قــــد يكون السبب هو العمل على الاعتداء ... الأمر الثاني : .. أن يقف الملوك والأمراء محاجزين دون الدعوة الاسلامية ، فإنه لا بد للحق من دعاية إليه وأن يكون الناس أحراراً في اعتناقه ..] إلى أن يقول : [يقرر الجمهور الأعظم من الفقهـاء أن القتال في الاسلام ما أبيح للغلبة ولا للمخالفة في الدين ، إنما أبيح لدفع الاعتداء ...] على أن الأستاذ أبا زهرة ينتهي في كلامه على مفهوم القتال في الاسلام ؛ إلى القول : [وإنه بمقتضى القواعد المقررة في الاسلام : لا يمكن أن تكون الحرب فيه لغير الدفاع وإن لبس الدفاع لبوس الهجوم ..] .



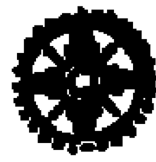
كانت كل هذه الأفكار حول فكرة « القتـــال في الإسلام لا يكون إلا دفاعا » تدور في ذهني وأنا أقرأ مقدمة الطبعة الثانية من كتاب « الرسول القائد » ورجوت في نفسي أن يكون المؤلف موفقاً في معالجة الفكرة المذكورة ، فينتهي بنا إلى ما يتفق وحقيقة أحكام الجهاد في الاسلام .

إن اللواء خطاب ، وهو العسكري الذي يدون تاريخ الحرب في الإسلام ، تبنى في مقدمة كتابه المذكور فكرة « القتال في الاسلام حرب دفاعية » من وجهة عسكرية بحتة ، موضحاً إياها بقوله إن المسلمين لا يبدأون في حروبهم « بالإعتداء على أحد ، ولا يريدون من ورائها إلا حماية نشر الدعوة » وبعد أن درس « أهداف القتال في الاسلام » ردّ على الغلاة الذين يرون أن من غايات الجهاد في الاسلام نشر الدعوة قائلاً : « إن القول بأن غرض القتال في الاسلام هو نشر الدعوة هراء لا يستند إلى الواقع ، ولكن غرض القتال

هو حمـــاية حرية نشر الدعوة ، وشتان بين الفرضين ! ومع أن الحرب الاسـلامية دفاعية ، لأنها بعيدة عن الظلم والعدوان ، إلا أن هــــذا الدفاع غير مُسْتَكِن ، بل هو دفاع تعرّضي ، كما يسمى في المصطلحات العسكرية الحديثة ، ومعناه أن المسلمين لا يبـــدأون بالاعتداء ، ولكنهم يدافعون عن أنفسهم ضد كل اعتداء بالهجوم لسحق قوات المعتدين [1] » .

وهكذا يكون اللواء خطاب ، في تفسيره معنى « الحرب الدفاعية » أول من يعطي هذه الحرب أقرب معاني « الجهاد في الاسـلام » فإنها كما عرّفهـــا تشمل الغايات التي شرع القتال في الاسـلام من أجلهـا ، وإن ظلت في ظاهرها دون « الجهاد » في حقيقته .

(يتبع) عدنان الخطيب



(١) انظر ص ٤٧١ من الكتاب .

Discription de l'Afrique Septentrional

Traduite par Mac Guckin de Slane

Édition revue et corrigée

Paris 1965

كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب : تأليف أبي عبيد عبد الله ابن عبد العزيز البكري الأندلسي ، المتوفى سنة ٤٨٧ هـ . طبع في باريز طبعة ثانية منقحة سنة ١٩٦٥ مع ترجمة افرنسية .

هذا الكتاب هو قطعة من كتاب المسالك والممالك للبكري جمع فيه المؤلف أخبار بلاد افريقية الإسلامية المعروفة في زمنه . والمؤلف هو شاعر وأديب ، ومؤرخ ثقة وجغرافي نابغ جمع فيه من أوثق مصادر زمانه أخبار بلاد افريقية الاسلامية المعروفة في زمنه ، وله كتب جليلة ومنزلة علمية محترمة . كان ملوك الأندلس يتهادون كتبه ويتنازعون صحبته . وأهم مؤلفاته كتاب (المسالك والممالك) الذي أفرد منه هذا الجزء . وصف فيه بلاد طرابلس وتونس والجزائر والمغرب والسودان وغانة ، ذكر مدنها المشهورة ، والمسافات فيما بينها ، وأتى على ذكر سيرة أهلها وعاداتهم ، ودون كل طريف عن أحوال هذه البلاد .

وكان المستشرق الفرنسي كترمير (Quatremère) أول من فطن إلى قيمة هذا الكتاب العلمية واهتدى إلى مؤلفه ، ونبه إليه أنظار المستشرقين والجغرافيين إلى أهمية المعلومات والأخبار التي تضمنها الكتاب عن البلاد التي وصفها .

نشر المستشرق المذكور في سنة ١٨٣١ ترجمـــة موجزة لهذا الجزء ، فاشتهر بعدها الكتاب وتطلعت اليه الأنظار . ثم قام دوسلان de Slane بترجمة ثانية كاملة لهذا الجزء ، بعد أن ظفر بعدة نسخ مخطوطة من هذا الكتاب واهتدى إلى مراجع ساعدته على تصحيح الأخطاء وتدارك النقص فيها وتوضيح غوامضها ، وقد وفق في محاولته على الوجه الأكمل واستحق على ذلك الثناء والتقدير .

ج ٠ ح ٠



الشهداء الحميريون العرب ، في الوثائق السريانية

تأليف أغناطيوس يعقوب الثالث

بطريرك انطاكية وسائر المشرق ، طبع سنة ١٩٦٦ م

هذا الكتاب يحتوي تاريخ الألوف من الرجال والنساء والأطفال الذين استشهدوا في سبيل العقيدة والمحافظة عليها والدفاع عنها ، وبذل الأرواح دونها وقد حقق فيه المؤلف العلامة أرثوذكسية النصارى الحميريين ورد على الأب أنطون صالحاني اليسوعي (ناشر تاريخ مختصر الدول لابن العبرى) القائل ان نصارى نجران لذلك العصر ، كانوا مستمسكين بعروة الايمان الكاثوليكي منتهى الاستمساك ، ناقلاً تحقيقه هـــذا عن كتابه (تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية (ج ٢ ص ١٩٥) وعن غيره من المؤلفين .

وقد ذكر المؤلف في الفصل الرابع من الباب الأول (ص ١٣) وفي غيره من فصول الكتاب ، الحوار المدني دواوين الشهداء من رجال ونساء ، وبين مسروق اليهودي الذي تملك على اليمن فقد كان يضطهد مسيحيي تلك البلاد ويضيق عليهم ليكفروا بألوهية المسيح ويقولوا انه إنسان لا إله ، قائلاً : إنكم إنما تسجدون لشخص مائت ، ادعى أنه ابن الله الرحمن في حين انه إنسان . . . ها ان الروم قد أدركوا الآن ان المسيح كان إنسانا بحتاً ، فما بالكم أنتم الآن تضلون وراءه ؟ ألعلكم أفضل من الروم ؟ إننا لسنا نسألكم أن تكفروا بالله خالق السماء والأرض ، ولا أن تسجدوا للشمس والقمر وباقي النيرات ، أو لإحدى المخلوقات ، بل أن تكفروا بالمسيح الذي حسب نفسه إلٓهاً ، وتقولوا انه إنسان فقط ، لا إلٓه ، ولم يريدوا أن يكفرو بالمسيح وأن يقولوا انه إنسان ولكنهم قالوا في جنونهم انه الإلٓه وابن الرحمن (ص ١٣) .

وإن من يقرأ بتدبر وإمعان قول مسروق الملك اليهودي ، ومخالفة النصارى له ، يعلم أن لا خلاف في الحقيقة بينهم ، إذ ان مسروقاً لم يدعهم إلى عبادة نفسه ولا عبادة غيره من المخلوقات ، بل دعاهم إلى عبادة خالق الأرض والسموات رب العالمين ، حيث ان نسطور السرياني الذي جلس على كرسي بطريركية القسطنطينية في سنة ٤٢٨ ز وما عتم أن صرح — خلافاً للتقليد الكنسي بأن العذراء مريم لن تلد كلة الله ، بل إنساناً بحتاً هو المسيح ، لذلك لا يجوز أن تدعى والدة الإلٓه ، أما المسيح فلم يكن إلٓهاً ولا ابن الإلٓه ، بل إنساناً (ه ص ١٠) .

وقد كان عدد الأحباش الذين قتلهم الملك اليهودي نحو خمسمائة رجل دعاهم إلى الكفر بألوهية الإنسان فلم يقبلوا .

وقد أحرق الملك اليهودي في نجران الكنيسة ومن دخلها من النصارى وكانوا نحو الألفين ، وأحرقوا النساء ، كما فعل بالأشياع من الرجال (ص٢٦) منه ثم قتل الراهبات والشابات المتزوجات بعد قتل الرجال ، وكان ذلك كله في سبيل دعوى ألوهية المسيح وصلبه ، لا في سبيل المسيح نفسه . وقد دعا مسروق أحد قواده ذا يزن ، وأمره بجمع نساء نجران اللائي قتل أزواجهن فبلغن (١٧٧) امرأة ، وأخذ ذو يزن ينصحهن ويحذرهن وينذرهن لكيلا يقمن بالعصيان كأزواجهن فيكون مصيرهن كمصيرهم ، فأجبن بصوت واحد قائلات : حاشا لنا أن نكفر بربنا وإلهنا يسوع المسيح لأنه الإله والخالق الكل وعقيدة الاسلام بالسيد المسيح معروفة .

ولغبطة البطريرك الشكر على هديته وعلى الوثائق التاريخية التي عالج محتوياتها في كفاية .

محمد بهجة البيطار



أعلام العرب في العلوم والفنون

تأليف : عبد الصاحب عمران الدجيلي

الجزء الأول — عدد صفحاته ٣١٦

الطبعة الثانية – مطبعة النعمان – النجف ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦ م

هذا كتاب في التراجم ، مرتب على التأريخ الزمني ، فقد بدأ المؤلف بحثه بمقدمة ، ذكر فيها لمحة عن العرب قبل الإسلام ، والجاهلية والإسلام ، فتدوين القرآن والحديث فالفقه والكلام والتفسير ، فاللغة العربية ، فالآداب والفنون ، فالأنساب والتاريخ والجغرافية والموسوعات ، فالعلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية .

ثم ترجم لمئة وستة وثلاثين من الأعلام العرب ، المختلفة الثقافات ، والمتشعبة النواحي والاختصاصات ، مرتبة على قدم الوفاة ، فبدأ بأبي الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ ، وانتهى بمحمد بن عبد الملك بن طفيل الأندلسي المتوفى سنة ٥٨١ هـ .

والمطالع لهؤلاء المترجمين يجد كثيراً منهم مشاركين في أنواع من العلوم والمعارف التي كانت معروفة في عصورهم ، ومنهم من برز في ناحية معينة من المعارف بالرغم من مشاركتهم في كثير من فروع العلم .

فتجد من هؤلاء في هـــذا الجزء المؤرخ والجغرافي والنسابة واللغوي والفقيه والمتكلم والمحدث والمفسر والحكيم والرياضي والفلكي والطبيعي والكيماوي والطبيب الخ ...

والطريقة التي اتبعها المصنف في ترجمة العَلَم ، فقد ذكر في صدر الترجمة اسم العلم أو لقبه أو كنيته بحسب ما اشتهر به ، مع تأريخي ولادته ووفاته

بالتاريخ الهجري ، ثم أورد مصنفاته المطبوعة والمخطوطة ، وأبان بعض ما غمض من البحث ، فشرحه في حواشي الكتاب ، ثم أورد المصادر والمراجع التي اعتمدها في طلب الترجمة .

وقد اعتذر المؤلف على اقتصاره على ذكر الأعلام العرب المصنفين بقوله : وإذا كان الكتاب قد اقتصر على العرب ، فليس معنى ذلك تجاهل الآخرين أو الغض منهم ، ذلك لأننا ننظر بإكبار إلى كل من خدم العلم والفكر أو اللغة .

ونرى من الفائدة قبل أن نختم هذه الكلمة أن نبدي بعض الملاحظات على هذا الكتاب فنقول : ان عنوان الكتاب « أعلام العرب في العلوم والفنون » لا ينطبق تمام الانطباق على ما حواه من أبحاث ، فلو استبدل ذلك بعنوان « من أعلام العرب في الشريعة والعلوم والآداب » لكان أقرب مطابقة لموضوعه .

وأما ترتيب المؤلف كتابه على التأريخ الزمني حرصاً على ما ظهر فيه من رجالات ومؤلفات بحسب أعصارها وأدوارها ، فهذا ينطبق على التراجم ذات الموضوع الواحد كتراجم رجال الطب أو الفلك أو الفقه الخ ..... فنستطيع بترتيب التراجم على التأريخ الزمني أن نلمس تطور العلم الذي نريد تأريخه وبحثه ، وأما موضوع كالموضوع الذي نحن في صدده ، متشعب النواحي ، متباين الاختصاصات ، فأحسن ترتيب له هو الترتيب المعجمي .

كما نستحسن أن يضاف إلى التأريخ الهجري التاريخ الميلادي تسهيلاً للباحث .

وبالختام نشكر الأستاذ المصنف على ما بذل من جهود في تأليف ونشر هذا الكتاب القيم .

دمشق : عمر رضا كحالة



تاريخ المغرب

تأليف : عبد العزيز بنعبد الله

الجزء الثاني : عدد صفحاته ١٣٦ — ٨٠

نشر : مكتبة السلام ومكتبة المعارف بالمغرب

يتألف هذا الجزء من ١٦ فصلاً وهي :

(١) قيام الدولة العلوية (١) وتجديد وحدة المغرب .

(٢) تطور المغرب في العهد الإسماعيلي (٢) ، وقد ذكر المؤلف فيه الجيش ومحاربة الأجانب ، وبدء حركة التحرير ، ووحدة المغرب وجمع أشتاته ، وظل هذا الملك يكافح في سبيل ذلك أكثر من ربع قرن (١٠٨٣-١١١١هـ) فكان من أبرز الملوك الذين حظي بهم المغرب .

٣ — عهد الفترة وفيه ظهرت القلاقل والاضطرابات فقد تولى فيه ثلاثة من الأمراء على العرش الذي اعتلاه المولى عبد الله ست مرات (٣) .

(٤) عهد الاستقرار والازدهار (١١٧١ — ١٢٠٤ هـ) وفي هذا العهد عرف المغرب شيئاً غير يسير من الاستقرار والازدهار ، فقد تمكنت البلاد من تثبيت وحدتها وتحرير عدد من المراكز الأجنبية في ربوعها ، وأضحت

---

(١) هي من أصل حسني من ينبع النخل بالحجاز ، وأول من دخل منهم الى المغرب هو حسن بن قاسم ، أواخر القرن السابع الهجري ، وأول قائد سياسي من حفدة الحسن المذكور هو مولاي علي الشريف الذي أقام بفاس وجاهد في منتصف القرن الحادي عشر الهجري .

(٢) نسبة لمولاي اسماعيل أحد ملوك هذه الدولة .

(٣) انظر تاريخ المغرب ٢ : ٢٥ — ٣٢ .

جيوشها وأساطيلها حاجزاً منيعاً في وجـــه الغزو الأجنبي ، ونظمت الدولة والجيش وساد الأمن ، وانتشر العمران .

(٥) ثورة العبيد وأزمة ولاية العهد [١] ، فلم يكن يبزغ فجر سنة ١١٨٩ هـ حتى تمرد العبيد ضد السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبايعوا ابنه المولى يزيد ، وقد استمرت هذه الفتنة سبع سنوات (١١٩٠ — ١١٩٦ هـ) ضعفت خلالها المحاصيل وانتشرت المجاعة .

(٦) المغرب والاستعمار الفرنسي بالجزائر .

(٧) محمد الرابع فذكر سياسته الخارجية والداخلية .

(٨) الحسن الأول الذي بويع بمراكش في رجب ١٢٩٠ هـ ، وذكر اعتناءه بالجيش وسياسته الخارجية .

(٩) النظام السياسي والإداري قبل الحماية الفرنسية ، فذكر العمالات والهيئة الوزارية والحكام والقضاة والحسبة .

(١٠) الصحراء المغربية ، ذكر حدودها ، وتاريخها القديم والحديث .

(١١) الثقافة والفن ، ذكر المدارس والتعليم والأبنية المدنية والعسكرية .

(١٢) أسباب الحماية الفرنسية .

(١٣) المقاومة المسلحة . ذكر تلك المقاومة في الأطلس والصحراء والشمال والجنوب وفي الريف المغربي الخ ...

(١٤) الحماية الفرنسية (١٩١٢ — ١٩٣٥ م) ذكر في هـــذا العهد التنظيم البلدي وموارد الدولة والعملة والعدلية والقضاء الأوربي والتعليم والصحة العمومية والتطور الاقتصادي .

---

(١) انظر تاريخ المغرب ٢ : ٤٢ ـ ٥١ .

(١٥) الكفاح السياسي ، ذكر تأسيس بعض الأحزاب السياسية كحزب الكتلة الوطنية الذي كان يؤجج الحماس في الشعب كما ينور الفكر العام في أوربا والشرق عن طريق طلبة فرنسا ، ولجنة الدفاع عن المغرب بالقاهرة .

(١٦) ثورة الملك والشعب .. وختمه بقوله : وانصاعت باريز إلى مطامح الملك (محمد الخامس) والشعب فاعترفت بالواقع وعاد الملك الظافر يوم ١٦ يونية (حزيران) ١٩٥٥ م إلى الرباط ليحمل لشعبه وثيقة الاستقلال في خضم من الأفراح كللت ثورة الملك والشعب .

وقد ألحق الأستاذ المصنف كتابه تاريخ المغرب ، بمعجم تاريخي في ٨٠ صفحة ذكر فيه أهم الأحداث والأعلام والأماكن مرتبة على حروف المعجم ، وهي معلومات إضافية لم تذكر في كتابيه « معطيات الحضارة المغربية ، وتاريخ المغرب» ، وبذلك قد قدم خدمة جلى للعاملين في التاريخ جزاه الله كل خير .

ع . ك .



رحلة الشتاء والصيف

تأليف : محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي الشهير بـ « بكبريت »

حققه وقدمه وفهرسه الأستاذ محمد سعيد الطنطاوي

كتاب من القطع المتوسط في « ٣٦٢ » صفحة نشره المكتب الاسلامي للطباعة والنشر بدمشق سنة ١٣٨٥ هـ

الأستاذ الجليل الشيخ محمد نصيف من كرام العلماء الحجازيين وهو من خيرة رجال العرب هذه الأيام لكثرة ما أتحف العالم العربي من خدمات علمية جليلة في طباعة الكتب ونشرها والإنفاق عليها ؛ وهذا الكتاب مأثرة من مآثر هذا الرجل الكبير ، وقد كتب مقدمة الكتاب الأستاذ الأديب محمد سعيد الطنطاوي الذي قال في وصفه « وهذا الكتاب الذي بين يديك من هذا النمط يصلح للعلماء ويسهل على العامة يستسيغه ابن الخامسة عشرة ويحتاج اليه خريج الجامعة » ، وهو يقصد بهذا الرأي إلى أن الكتاب يتضمن العلم ، إلى جانب اللذة والإيناس ، فهو من الكتب النادرة التي تعين القارىء على إنجازه بلذة وهدوء دونما ملل أو إرهاق ، وهو في الحقيقة من كتب الرحلات التي تنتقل بالقارىء من مكان إلى آخر بحث لا يجد الملل اليه سبيلاً ، لتنوع مناظر الكتاب واختلاف ألوانه وفصوله . فأنت تسير بين صفحاته من شعر إلى نثر إلى قصة إلى وصف ، والكتاب في رأيي أشبه بالقصص لأن ما فيه من حوادث توحي إليك ببعدها عن الواقع والحقيقة مما يجعلنا نعتقد بأن الخيال قد عمل عمله في السرد ، وأن الاختراع قد تدخل في الموضوع ، كما رأينا في قصة روبنسن كروزو وغيرها من القصص التي يقصد فيها إلى اللذة

والحقيقة في آن واحد . وقد كتبها في وصف رحلة قام بها إلى بلاد الروم وذكر فيها ماوقع له في سفرته هذه من العجائب كما قال صاحب المقدمة .

ويلي المقدمة ترجمة للمؤلف منقولة من كتاب « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمحبي الدمشقي وفيها يصل نسب المؤلف إلى علي ابن أبي طالب « رض » كما أورد فيها طائفة من شعر المؤلف ونثره ، وينتهي الكتاب بعدد من الفهارس : للآيات والأحاديث والكتب والأمكنة والأعلام وأبجدي للشعر وأبجدي عام لمراحل الرحلة .

ولكن الذي لفت نظرنا حقاً هو الشروح التي وردت في ذيل كل صفحة من الكتاب فهي شروح وافية دقيقة تستحق الإعجاب والاطمئنان إلى ماورد فيها من معلومات وهي بقلم المحقق الأستاذ محمد سعيد الطنطاوي .

وإنا لنشارك صاحب المقدمة الرأي بجدوى قراءة هذا الكتاب الطريف لما فيه من معرفة ولذة قد لاتوجدان إلا مصادفة ، وفي عدد نادر من الكتب المطبوعة هذه الأيام .

أحمد الجندي



ديوان الناصري

« الجزء الثاني »

جمعه وعلق عليه : هلال ناجي وعبد الله الجبوري

عدد صفحاته (٣١٠) من القطع المتوسط
من مطبوعات مطبعة العاني — بغداد عام ١٩٦٦

هذا هو الجزء الثاني من ديوان الشاعر العراقي الشاب المرحوم عبد القادر رشيد الناصري ، ولقد سبق أن صدّر الجزء الأول من الديوان صديق الشاعر الأديب السيد كامل خميس ، وهو يشتمل على نصف شعر الشاعر ، أما هذا الجزء الثاني فأنيق الشكل والطباعة وقد زين بصورة الشاعر وبنموذج من خطه مما يجمّل الديوان ويضيف إليه ما يغري باقتنائه وقراءته . وقد كتب المقدمة أحد الناشرين الأستاذ هلال ناجي وهي كلمة جمع فيها آراء الأدباء العرب بالشاعر ، كما تعرض فيها لنقد طريقة الأستاذ كامل خميس في جمع وإصدار الجزء الأول من الديوان ، وبين منهجه الجديد في ترتيب هذا الجزء الثاني . ولقد كنا نتمنى أن لا تكتب الملاحظات النقدية التي وردت في هذه المقدمة ، والتي يمكن أن تؤذي سمعة الشاعر في هدأته الأبدية ، من مثل تحويره القصائد ونقل الموضوع من وصف البصرة إلى وصف دمشق . والسرقات التي اتهم بها الشاعر في هجومه على شعر السيد سالم أحمد الأعظمي فقد كان أولى لكاتب المقدمة أن يؤجل هذه الملاحظات ليثبتها في دراسة خاصة يترجم فيها الشاعر ويدرس أدبه دراسة وافية تاريخية يمكن أن يقال فيها كل شيء وبصراحة تفيد التاريخ الأدبي بدل أن تكون نقداً في مقدمة ديوانه خاصة وان كاتب المقدمة قد ساهم في اتهام الشاعر بالسرقة الشعرية كما جاء في الصفحة (١٢) من المقدمة .

والشاعر الناصري من شعراء الشباب الذين حافظوا على طريقة النظم العربية كما نقلت عن القدماء فهو محافظ على الوزن والأسلوب العربيين وهو ينظم شعره مضبوطاً من ناحية اللغة والنحو على قدر ما يستطيع ، ويعني هذا أن تجديده ، إن كان له جديد ، قد استقر على المعاني التي تناسب العصر ولم يصــــل رأيه في التجديد إلى محاولة تحوير القوالب والقواعد اللغوية والصرفية والنحوية والعَروضية ، وقد رأى كاتب المقدمــة أن الشاعر قد تأثر بالأدب الغربي عن طريق شعراء مصر المجددين كالدكتور ناجي وعلي محمود طه وبعض الشعراء اللبنانيين المستغربين — من الغرب — كالياس أبي شبكة ولكنّي لا أعتقد بصحة التأثير بالواسطة ، والشاعر الذي يتأثر حقيقة هو الذي يقرأ الأدب « المؤثر » بلغته الأصلية ، ولا بد أن يكون ذا قابلية للتأثير فإن من الشعراء من لايتأثرون إلا بذاتهم ، والتأثر الذي عناه صاحب المقدمة أقرب عندي إلى ما يسمى بالتقليد . ولعل هذا التقليد لم يتجــاوز العناوين كما في : نهم ، والهيكل المستبــاح ، إشتهاء ، والشباب الدامي ، وغير هذه من القصائد . ولم ينس الشاعر الناحية السياسية فقد تحدث في الاجتماع والسياسة وبخاصة فلسطين والجزائر .

على أن شعر الناصري يتحلى بصفة السهولة والموسيقى اللفظية ، وربما وجد فيه قارئه لذة فنية قد لايجد منها كثيراً في الشعر العربي الحديث .

أ . ج .



المنتخب من شعر ابن زاكور

عمل عبد الله كنون الحسني

طبع دار المعارف بمصر من سلسلة « ذخائر العرب » عام ١٩٦٦
عدد صفحاته (١٤٦)

الأستاذ عبد الله كنون الحسني عضو مجمع اللغة العربية بدمشق عالم كبير وعلامة شهير خدم اللغة العربية خدمات لاتنسى ، وقد جمع ، حفظه الله ، إلى العلم الغزير ، دقة النظر والقدرة على التمحيص والتثبت مما يقرأ ويكتب ومن أعماله الكثيرة الأخيرة إصداره هذا الكتاب الذي جمع طائفة من شعر ابن زاكور الشاعر المغربي المعروف ، وقد أوضح في المقدمة التي وضعها لهذه المنتخبات الشعرية أن سبب طبع الكتاب هو المشاركة في إحياء الآداب المغربية التي « ظلت منسية طيلة الثلاثة عشر قرناً الماضية » على حد قوله .

وقد قدم لنا العلامة ترجمة مفيدة للشاعر ابن زاكور ، وصفه فيها بأنه « مفخرة عصره وجيله ، ونابغة بلده وقبيله » وأنه « كان كاتباً وشاعراً ولغوياً ومؤلفاً » وينتهي الكتاب بخاتمة صغيرة ثم بفهرس للموضوعات وآخر للقصائد والأبيات .

وابن زاكور فاسيّ المولد والنشأة أخــــذ العلم عن مشايخها ومشايخ مراكش وتطوان والجزائر ، وقد بدأت حياته في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة فكان تاريخ ولادته بعام ١٠٧٥ هـ تقديراً ، كما كانت وفاته عام ١١٢٠ هـ فهو كما ترى لم يعش طويلاً بل مات في عنفوان شبابه .

وقد كان كثير الرحلات في طلب العلم والثقافة مما كان له الأثر الأكبر في اتساع ثقافته واكتمال معارفه . وترك رغم اختصار حياته ، ستة عشر

مؤلفاً في الأدب والشعر واللغة نثراً وشعراً ، وقد قسم واضع الكتاب نثر ابن زاكور إلى نثر علمي ونثر فني حسب الموضوعات التي طرقها في كتاباته ، كما كان شعره على قسمين : الموشح والقصائد هذا من حيث الشكل ، وأما من حيث القيمة الفنية فشعر الشاعر نوعان أيضاً : (الرقيق الجميل السلس العذب) ومنه (البدائي الساذج الشبيه بالأنظام العالية والقريب من أشعار الفقهاء) .

ورتب هذا المنتخب حسب الموضوعات الشعرية : المديح والربيعيَّات والزهريات ، والغزل والرثاء والنصائح والاخوانيات .

ويشير الأستاذ كنون إلى أنه « تخيَّر » من هذا الشعر ، وربما في القصيدة الواحدة بعض الأبيات وترك بعضها الآخر « حرصاً على ما في بعض الأبيات من سحر وجمال يكونان مغمورين بنشائة بعض الأبيات الأخرى وفسولتها » ، وهذا ما جعل اسم الكتاب « المنتخب » وكنــا نتمنى لو اطلعنا على الديوان كاملاً كيلا تكون صورة الشاعر ناقصة إذا عرضت على الدرس والبحث ، وهذا رأينا في جمع آثار الشعراء ، فان من الواجب أن يستقصى كل ما قاله الشاعر فيما إذا أريد وضع ديوانه دون اختيار أو اصطفاء .

وقد قدم ابن زاكور نفسه لديوانه هذا بخطبة مسجوعة افتتحها بحمد الله تعالى والصلاة على نبيه ﷺ وتدل الخطبة على إيثار ابن زاكور التكلف في نثره على طريقة أهل عصره في القرن الحادي عشر للهجرة .

أما شعر الشاعر فأول ما يلفت النظر فيه أن العلم قد جنى عليه ولعل القارىء يجد غرابة في هذا القول ، وأقصد بقولي هذا أن الشاعر إذا لجأ إلى الاصطلاحات العلمية والتعبيرات الفقهية ، أو النحوية ، أو الطبيعية ، فان الشعر يصبح أقرب إلى البحث العلمي وهذا مما يعوق خيال الشاعر عن السمو والتحليق ، أو يكون قيداً لهذا الخيال يقعد به عن الارتفاع للوصول إلى المعاني الشعرية والصور الفنية ، وقد لجأ ابن زاكور إلى كثير من

القوافي التي تجنبها الشعراء الكبار من قبله وكأنه أراد بذلك أن يدلنا على كثرة محصوله اللغويّ ، على حين ان الشاعر إنما يحتاج للألفاظ التي تكفيه للتعبير عما يعتلج في صدره من نوازع وعواطف وأحاسيس ، ولا يحتاج إلى ما في المعاجم كلها من ألفاظ قد لا تفيده إلا قليلاً . فالشاعر يأتينا بقصائد من قافية « الزاي » كقوله :

تعززت بذي العزّ من الشيطان ذي الأزّ
ومما ينسبن فكري إلى الشخز أو الأز

ولا أرى فائدة في مثل هذا الشعر إلا إذا قصد فيه إلى طرح هذه القوافي أمام القارئ ليحفظها وليعرف بعض معانيها وهو قصد لا يمت إلى الفن بصلة ؛ أو يأتينا بقصيدة من قافية « الصاد » يقول فيها :

أما رضاك عمومه وخصوصه فمناخة بذرى المنيب قلوصه
وهداك جل هداك يلزم كلّ من لزمَ الضلال محيصه وحبوصه
وجداك منسجم الغمائم عندَ مَن لزم اصفراراً من جلالك بوصه

ومما لا شك فيه أن القارىء محتاج إلى المعجم عند قراءة هذه الأبيات ، مهما تكن قدرته اللغوية كبيرة وحصيلته في الألفاظ الغريبة وافرة .

ومما يلفت النظر عنه الشاعر أيضاً أنه لا يتوقى العيوب المعروفة التي يتوقاها الشعراء ويهربون منها ولا يلجئون إليها إلا في الضرورة المبرمة ، وفي القصيدة الأولى من باب المديح ، وهي همزية ، أخطاء عروضية يمكن أن نعتبرها من باب « الزحاف » ولكنا في يومنا هذا نعتبرها كسراً لا يجوز لشاعر أن يأتي به أبداً فمطلع القصيدة هو :

ديوان حبك بالتوفيق مبتدأ ..

والبيت كما تُرى من البحر البسيط ، وقد جاءت في هـــذه المقطوعة الأبيات التالية .

وبهداك جذى الأفهام موقدة يا من به غضب الجبار منطفىء
رقّت سجايا بنات الفكر وانتعشت مذ علّها من ثُدِيّ مجدكم لبأ
ومنذ حليتهـا بدر مدحكم لم يبق في القلب لا رين ولا صدأ

وقد أشرت إلى الكلمات التي ورد فيها الخطأ العروضي ليطلع عليها القارىء .

ومن الغريب أيضاً أن يخطىء هذا الشاعر في القوافي فقد وضع كلمة « منطفىء » وهي مكسورة الفاء قبل الهمزة ، على حين أن قوافي القصيدة كلها مفتوحة ما قبل الهمزة كما هو ظاهر .

ولكن ما مرّ كله لا يمنعنا من القول أن ابن زاكور يملك شاعرية لم تواتها الأيام والظروف وطبيعة العصر لتتفتح وتتكشف فيظهر ما وراءها من نبوغ وسموّ ، فالشاعر لم يستطع التخلص من مستلزمات عصره المتكلف الذي انحط فيه الفن الأدبي كله كما لا يمنعنا ما مرّ من تذوق مثل هذه الأبيات الجميلة :

بروحي من أودى بعقلي حبه ولم تُسلني عنه كئوس رحيق
يواصلني حتى أفيق من الجوى ويهجرني حتى أغصّ بريقي
غدوت به من وصله وصدوده بدار نعيم أو عذاب حريق



آراء وأنباء

أمثلة

من الأغلاط الواقعة في لسان العرب

— ٩ —

(١١٥)

مادّة ج م ع : الجُمْعة .

قال : وزعم ثعلب أن أوّل من سمّى يومَ العَروبة يومَ الجُمعة كعب ابن لؤيّ جدّ الرسول [لا يعني أبا أبيه بل أحد الجدود] وذكر السهيلي أنّ كعب بن لؤي أوّل من جمّع يومَ العروبة . ولم تسمّ العروبة الجمعة إلاّ مُذ جاءَ الإسلام وهو (كعب) أوّل من سمّاه الجمعة فكانت قريش تجتمع إليه فيخطبهم ويذكرهم ببعث النبيّ ويأمرهم باتباعه وينشد :

يا ليتني شاهد فحواءَ دعوتِهِ   إذا قريشٌ تُبَغّي الحقَّ خِذْلانا

فما هذا التناقض ؟ البيت يفهم منه أن كعب بن لؤي لم يعش إلى زمان الرسول وقول المعجم يفيد أنه مرّ أكثر من مئه سنة من جمع كعب للناس وتسميته العروبة الجمعة إلى مجيء الإسلام فكيف يوافق هذا قوله ولم تسمّ العروبة الجمعة إلا مُذْ جاءَ الإسلام ؟ وبعد هذا أيّد التناقض بنقيضٍ لا حاجة إلى علم الحساب فيه ـ قال : « وقال ثعلب إنما سمّي يوم الجمعة لأنّ قريشاً كانت تجتمع إلى قصيّ في دار النَّدوة » . أفكعبٌ أمْ قصيّ ؟ ولولا اعتقاد البعض أن جدالاً كهذا من الأصلَغيّات (الفيلولوجيا) لقلنا أن

لا محلّ له في المعاجم . [الأصلغيات منحوتة من علم أصول اللغات كما سمّاه جلال الدين السيوطي ـ والأصلغي هو الفيلولوجي والتسمية العربية أصحّ لأن معنى اليونانية الحرفيّ « محبة الألفاظ أو الكلمات »] ولفظة تبغيّ التي في البيت لا يذكرها في ب غ ى .

★ ★ ★

(١١٦)

مادّة جمع :

أورد بيتاً للضبّي :

في فتيـــةٍ كلّما تجمَّعتِ البيداء لم يهلعوا ولم يخِمُوا

وعلّق على إخطـــاء الشاعر تعليق من يميل إلى غضّ النظر ـ قال « ولم يحفَلْ [بفتح الفاء والفعل من باب ضرب فقط وهو يقول هذا أيضاً في ح ف ل — أمن الذين طبعوا الخطأ ؟ ولكن الضرر واحد] بالحركة (ضمّة الميم في يخِمُوا) التي من شأنها أن ترد المحذوف ـ وهذا لا يوجبُه القياس إنّما هو شاذّ » [ولكن على الرحب والسّعة فنثبته في قاموسنـا » ! !]

التعبير غير صالح لأنّ الذي أوجب حذف الياء في لم يخِمْ هو التقاء الساكنين . ولكن في لم يخيموا لم يجتمع ساكنان فلم يكن داعٍ إلى الحذف . فليست الضمّة على الميم التي أرجعت الياء المحذوفة ـ الياء محذوفة في الفرد وأما كلمة الشاعر يخيمون لجمع ولا علاقة بين هذه وتلك . تدخل لم فتجزم بحذف النون . وسائر الكلمة يبقى كما كان فلم يحدث حذف وردّ محذوف .

ثم قال « وهذا لا يوجبُه القياس » . فماذا يعني بكلمة « هـــذا » ؟ ما هو الذي لا يوجبُه القياس ؟ أردّ المحذوف أم عدم ردّه كما فعل الشاعر ؟ على أننا نستنتج من قوله إنما هو شاذّ أنه يعني عدم الردّ لأن الشاعر لم يردّ الياء . ولكن المعجم يجب أن يكون واضحاً من غير استنتاج ممّا يلي :

★ ★ ★

(١١٧)

مادّة ق ف ف .

قال : القفّان معرَّب قبان الذي يوزن به ... قال الأصمعي قفّان قپان (مثلثة تحتية) بالپاء التي بين الباء والفاء أُعربت بإخلاصها فاء وقد يجوز إخلاصها باء لأن سيبويه قد أطلق ذلك في الپاء التي بين الفاء والباء .

هذا مظهر من عبادة الفرد . وعبادة الفرد مثل عبادة الأوثان . أَلأنّ سيبويه أطلقها (الپاء (P) الأعجمية) إلى فاء أو باء ؟ أم لأن P متوسطة بين صوتيْ B و F قلنا الخيار في تحويلها إلى إحداهما . هذا المبدأ هو الذي حمل سيبويه على إطلاقها ولا شكّ لأنه كان مفكراً . ولكنّ الأمة العربية أطلقتها فقالت مال القبان (بالموحدة) ليس لأنّ سيبويه أطلقها بل لأن المبدأ الذي عمل في سيبويه لم يُلْغَ بل عمل في الأمّة كما عمل في سيبويه .

★ ★ ★

(١١٨)

مادّة س ف ر – سفير .

قال : « قال أوس بن حَجَر :

وفارقت وهي لم تجرب وباعَ لها من الفصافص بالنُّمِّيِّ سِفْسيرُ »

وفي مادّة ق ر ف يقول : « قال النابغة :

وقارفت وهي لم تجرب وباعَ لها من الفصافص بالنُّمِّيِّ سِفْسير »

فلمن البيت ؟ ألأوس قائله أم النابغة ؟ وما هو الفعل في أوّل البيت ، فارقت بمعنى رحلت أو قارفت بمعنى أوشكت أن ؟

شارح ديوان الذبياني ، « أحد أفاضل العصر مستعيناً بكتب اللغة » أثبته في ديوان النابغة ولكنه رواه « وفارقت » لكي يصير البيت بلا معنى ولم يشرح .

★ ★ ★

(١١٩)

مادّة ر ك ن ـ يركُنُ ـ يركَنُ .

قال « ركَنَ يركُنُ وركِنَ يركَنُ ـ « ولا تَركَنوا إلى الذين ظلموا » ـ قُرِئ بفتح الكاف من ركِن (بكسر الكاف) يركَنُ رُكوناً » .

هذا صحيح ففعل ركن يأتي من باب نصَر وعلِم ـ وهو كافٍ تفسيراً وهداية . ولكنّه لم يكتفِ بل شوّه ما قاله بدخوله في تماحلات المماحكين فقال : « وقال بعضهم ركَن يركَن بفتح الكاف في الماضي والمضارع وهو نادر » . فمن هو ذلك « البعض » أو من هم الذين قالوا مخالفين المبدأ الأساسيّ « المفتوح العين في الماضي الصحيح إن لم تكن عينُه أو لامُه حرفاً حلقياً لا تُفتح عين مضارعه » .

قال « وهو نادر » ـ كان عليه أن يقول « وهو خطأ ـ وهو قول فاسد » . ثم امتدّ إلى قول كراع : « ركِن يركُن » وهو نادر أيضاً ـ كَسْرُ العين في الماضي وضمّها في المضارع ليس من أبواب اللغة ـ فقال الذين ادّعوا صحّة الرواية إنه من « تداخل اللغتين » وهذا معناه خلط باب في باب ـ فالادّعاء والمخالفة والتخليط وقبول الشواذّ لأنه هكذا رُوي أمور نفّرت الطلّاب من لغةٍ لا تدانيها لغة أخرى في سلامة النظام القائم على أحكام العقل ولا في اتساق المنطق . ومتى ساد النظام طاب الدَّرسُ .

(١٢٠)

مادّة ن و ز ـ نيروز

قال : « والنَّيْروز والنَّوروز أصلُه بالفارسيّة نيع روز وتفسيرُه « جديد يوم » .

وقال المصحّح على الهامش « وقد عرضناه على « مُتْقِن » من علماء اللغة الفارسية فلم يعرفْهُ » [لم يعرف « نيع » . هذا مقبول ولكن من هو ذلك المتقن الذي لم يعرف « نيروز »] والغريب أن صاحب اللسان بعد تفسيرهِ نيع روز بجديد يوم (وفاتَه أن النعت في الفارسية يتقدم على المنعوت فلم يقل يوم جديد على الترتيب العربي) لم يذكر معنى النيروز .

قال الفيروزابادي « النيروز أوّل يوم من السّنة مُعرَّب نوروز » . روز معناها يوم ، ونُو جديد مثل Neu - neuf - néos - new - Novo ، لأن الفارسيّة آريّة في قِوامها . ولأنهم كانوا يبتدئون السنة في « نيسان » صار النيروز عندنا نزهة أوّل الربيع (طلعوا إلى النيروز — عملوا نيروزاً) .

★ ★ ★

(١٢١)

مادّة أ ر ق :

كتب طالبٌ في مثالة مطلوبة منهُ : « وما بين حديث لطيف وموسيقى وطعام وشرابٍ أرقنا في بيت فلان إلى نصف الليل » . فلما سُئِل عن أرقنا قال « هكذا وجدتها للأستاذ فلان في الكتاب الذي جمعَهُ وفسَّرَ ألفاظَهُ لتلاميذِهِ ففيه أرق أو سَهِرَ » . وصدق في قولِهِ لأنّ ذلك الأستاذ نقل

عن محيط المحيط : أرق سهر بالليل (تمييزاً عن سهر بالنهار) ومحيط المحيط نقل عن القاموس والفيروزابادي يقول الأرق السهر بالليل . ولسان العرب يقول الأرق السهر . وإذا أنصفنا فعلينا أن نصحّح ونقول إن الأستاذ أخذ عن اللسان ، ولا يُفهَم لماذا قال اللسان الأرق السهر وبعد قليل روى عن الأزهري « ذهاب النوم بالليل [هنا بالليل كلام صحيح لأنه لا يُقال أرق لمن لم يستطع النوم في النهار] وروى أيضاً عن ابن سيده « ذهاب النوم لِعلّة » .

★ ★ ★

(١٢٢)

مادة فرش : فرّاش .

لا يذكر كلمة فرّاش – وذلك على ما يجب أن يُرجّح لأنها لم ترد في ما نقل عنْهُ . ولكنها وردت في كتب الأدب . جاء في الأغاني « وخرج الأخطل فلقي فرّاشاً لعبد الملك » . وورد أيضاً : قال ابن عبّاس تغدّينا يوماً عند الوليد بن عتبة فأقبل الفرّاش بصحفةٍ الخ ...

★ ★ ★

(١٢٣)

عرّف أبو البقاء التفسيرَ بقولِهِ : هو العبارة عن الشيء بلفظ أسهل وأيسر من لفظ الأصل . أما ابن منظور ففسّرَ « المِفرَش » بقولِهِ شيء كالشاذكونه . فأيّ الكلمتين أكثر وضوحاً لمن يجهلها ؟ قد يحزر المفرش حزْراً وأما الشاذكونه وما أدراك ما الشاذكونه ، فلنبحث عن تفسيرها في اللسان .

في شذن ، شكن ، ذكن ، شوذ ـ غير موجودة ، على أن الطالب العربي يجدها في المعجم الفارسي شادگونه (بالدال المهملة والكاف الفارسية) ومعناها الدثار أو اللحاف أو (في اللغة الدارجة) المضرب أو الجودلة أو الطراحة .

★ ★ ★

(١٢٤)

مادة غمس — الغموس .

قال : « اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار ، وهي اليمين الكاذبة الفاجرة ، هي أن يحلف الرجل وهو يعلم أنه كاذب » والفيروزابادي قال القول ذاته — وكل ما قالاه مغاير للحقيقة — أما الزمخشري فإنه أصاب رغم الاختصار . قال اليمين الغموس لشدتها . وقال المتنبي :

أو حلفوا بالغموس واجتهدوا فقولهم خاب سائلي القسمُ

فهل مدحهم بأنهم يكذبون في اليمين ؟ والذي عرض نفسه لنقمة المنصور برفضه تسليم من أجاره وقال : « إني حلفت يميناً غموساً فاحتمل ليميني يا أمير المؤمنين » هل تعمد الكذب لما أقسم ؟ فاليمين الغموس هي اليمين المؤكدة المغلظة التي تغمس صاحبها في الإثم إن حنث فيها .

★ ★ ★

(١٢٥)

مادة درع .

قال « الدرع لبوس الحديد تذكر وتؤنث — حكى اللحياني درع سابغة ودرع سابغ ، وقال أبو الأخزر مقلصاً بالدرع ذي التغضّن (أكد

قولَه' انها تذكّر) وتصغير درع دُريع بغير هاء على غير قياس لأن قياسَه' بالهاء وهو أحد ما شذّ من هذا الضرب .

ولكن لماذا على غير قياس ؟ إذا كان درع مذكراً كما قال فتصغيرُه' دُريع على القياس!.

★ ★ ★

(١٢٦)

مادّة و س ع .

تقرأ المادّة كلها — وهي تملأ صفحتين فلا تعثر على جمع للصفات المشتقة من وسع : فلا جمع واسع ولا جمع وسيع ، وضبط الجمع في المنزلة الأولى مثل ضبط التفسير!.

★ ★ ★

(١٢٧)

قال : « الغَلْص قطع الغلصمة ، والغلصمة رأس الحلقوم » ومع هـذا وضع لفظة غلصمة في مادّة غلِمَ أي هاجت شهوتُه' الجِنسية أي الانسانيّه .

وسبب هذا الحُيود عن المعقول أنّه تصوّر أن الحرف الزائد في الرباعي إنما هو الحرف الثالث ، مع أن الزائد قد يكون الأول مثل ترمس (من رَمسَ) أو الثاني مثل جرثم (من جثم) أو الثالث مثل قمور (من قمر) او الرابع مثل برهن (من بره) . وإذا كان الأصل والزيادة غير محققين فالأفضل أن تورَد الكلمة على ترتيب أحرفها كما فعل غيرُه' .

★ ★ ★

(١٢٨)

نظرة إلى اختلاط الضمائر وعدم الضبط في التعبير :

في و ث ر قال : وفي الحديث أنهُ نهى عن ميثَره الأُرجوان وهي وِطاء محشوٌ يترك على رحل البعير تحت الراكب والميثرة مِفعلة من الوثارة والأرجوان صبغ أحمر يُتخذ كالفراش الصغير ويُحشى بقطن أو صوف يجعلها الراكب تحتَهُ على الرّحال فوق الجمال [على كم من الجمال يركب ؟] .

* * *

(١٢٩)

مادّة ت ق ن .

قال : « أتقن الشيء أحكمه ، وإتقانُهُ إحكامُهُ والاتقان الإحكام للأشياء » . [هذا تكريرٌ لا فائدة منه] ورجل تِقْنٌ وَتقِنٌ متقِن للأشياء ـ حاذق ـ وتِقْنٌ لسم رجل كان جيدَ الرمي يُضرب به المثل . وابن تِقْن (كعب بن تِقْن) اسم رجل يحسن الرماية ـ أرمى من ابن تقن ـ » انتهى تفسير الألفاظ ، وما يأتي تعليل « أصلغي » : قال : « قال أبو منصور (الأزهري في تهذيب اللغة) : الأصل في التّقْن ابن تِقْن هذا ثم قيل لكل حاذق بالأشياء تِقْنٌ ومنهُ يُقال أتقن فلان عملَهُ إذا أحكمهُ وأنشد شمّر لسليمان بن ربيعة بن دبّاب (وفي نسخة ابن ريّان) .

أهلكنَ طسماً وبعدَهمُ غَذِيٌّ بهم وذا جُدُون

وأهل جاشٍ وأهل مأربٍ وحيٌّ لقن والتُّقُون

واليُسر كالعُسْر والغنى كالعدم والحياة كالمنون

(قال المصحح : « كذا في الأصل وحرّر الوزن » وأما نحن فلا نفهمون !) .

فجمَعَه على تقون لأنه أراد تِقناً ومن انتسب إليه والتِقون من بني تِقْن بن عاد منهم كعب بن تِقْن وبه ضُرب المثل فقيل أرمى من ابن تقن . انتهى التعليل ؛ هذا تفظيع : جعل الأزهري اسم الرجل أصلاً [من غير استناد بل لإمكان التصوّر] وجعلَ الصفة والفعل مُخرَّجين منه . أي أنّ عاد سمّى ابنَه تِقْناً وتِقْنُ سمّى ابنه كعباً فبرع في الرمايه فقالوا أرمى من ابن تِقْن ثم توسّعوا فقالوا لكل حاذقٍ تقناً ثم أخرجوا فعل أتقن [من باب دحرج أي بالزيادة المطلقة لا بالاشتقاق النظامي مثل أكرم لأنّه لا ثلاثي منه] بمعنى عمله بحذق كحذق ابن تِقْن في الرماية .

خيالُ أبي منصور رَسَم صورة بديعة كبداعة الأسطورة التي اخترعها الفرنسي الذي أراد أن يبيّن علّة تسمية الجبل القريب من مكّة جبل الفرخ (جبل قُزَح بالمزدلِفة ـ قرأ الفرنسي اسمَه من غير نقط فأخذ يتردد بين فرح وَفرَج وَفرْج وفرخ وقزح فرجَّح الفرخ) ولكن جمال التصور لا يثبت الصحَّة ، والأبيات التي استشهد بها أبو منصور ونقلها ابن منظور « لكسَّار َنظْمٍ » ليس من أهل الثقة شهادة على من رضي بها .

في العربية واليونانية ألفاظ لم يأخذها اليونان عن العرب ولا العرب أخذوها عن اليونان ـ هي ألفاظ (على ما نرجّح) ورثتها العربية من الأم الشامية ودخلت في أصول لغة الإغريق وفق امتزاجهم بالمهاجرين الفينيقيين واليونانية في طور التكوّن : مثل آفة ، أفمي وأوفس ؛ وَقرْن وخرونش ، وجاَمعَ وغاميِّا الخ ـ ومن ذلك َتخْني (تَكني) وتقن ـ فاللفظة العربية مثل مُدّ وأب وبنو (ابن) وأخو وأخت وأمَة وبيت ودن وديّان وأدَّى وشمَّت وأفيل الخ موروثة ، والذي يفضل عدم التنقيب الدقيق يقول ان تقن مأخوذة عن اليونانية ، وعلاقة اليونان بالعرب قبل الإسلام كانت قوية

فبلاد الشام كانت لغتها الغالبة اليونانية وتجار اليونان كانوا يرتادون مرافئ البحر الأحمر وكانت لهم مستعمرة عامرة في سقطرة من أيام المكدوني ، وكان اليمنيون يقولون للمفتاح إقليد وهو في اليونانية كليدي وقس عليه (هذا بحث طويل ليس هنا موضعه) ، وورود لفظة أتقن في الآية « صُنْعَ الله الذي أتقن كل شيء » لا ينفي شيئاً مما تقدم .

* * *

(١٣٠)

مادّة ق ر ش .

قال : « قال عديّ بن الرِّقَاع » .

وإذا تَشَبَّرْتَ لَهُ الثناءَ وجدتَهُ   ورث المكارمَ طُرْفَها وتِلادَها

(طُرْف جمع طريف) أراد طُرُفَها بضمّ الراء فأَسْكَنَ الرّاء تخفيفاً وإقامةً للوزن ». أخطأ في قولهِ تخفيفاً ـ فالشاعر سكَّنَ الرّاء محافظة على الوزن فقط ـ وأيّ ثِقَلٍ في قولنا وأنَّى شئتِ يا طُرُقي فكوني ؟ وفي قولنا ليس من يقطع طرقاً بطلاً أتخفيف أم إقامة وزن ؟

* * *

(١٣١)

مادّة ر و ح .

في تفسيره الرّوح قال : الرُّوح إنّما هو النَّفَس الذي يتنفّسهُ ... وهو بالفارسية جان (جيم بثلاث نقط) .

هذه حذلقة إذْ لامسوّغ للتفسير بمرادف فارسي ـ وعلاوة على هـذا أخطأ ـ فالكلمة الفارسية مغلوط فيهـا وقد يكون الغلط من المصنّف أو من الناشر ـ روح بالفارسية جان (بنقطة واحدة) ولفظها دْجَان ـ أما چان بثلاث نقط فلفظها تْشان ولم أرَ في القاموس الفارسي بهذا الحرف إلا چانَه ومعناهُ الفكّ الأسفل .

* * *

(١٣٢)

مادّة أ خ و .

قال : « وجائز أن يكون أحد الأنبياء أخاهم سنهُ من قومهم فيكون أفهمَ لهم بأن يأخذوهُ عن رجلٍ منهم » هذه العبارة للزّجّـــاج نقلها واضع المعجم ولم يعترض على استعمالِهِ التفضيل أفهم من الرباعي أو من المفعول والباء في بأن ؟

★ ★ ★

(١٣٣)

مادّة أ خ و .

قال : والأخت أنثى الأخ ، صيغةٌ على غير بناء المذكّر والتاء بدل من الواو وزنُها (وزن أخت لا التاء) فَعَلَة فنقلوها إلى فُعْل وأَلحَقَتْها التاء المبدَلة من لامها بوزن فُعْل فقالوا أخت [لايذكر موجباً ولا مسوّغاً فليتأمّل القارىء في قولهِ] وليست التاء علامة التأنيث كما ظنّ من لاخبرة لهُ بهذا الشأن .... قال الخليل تأنيث الأخ أُخت وتاؤها هاء . انتهى

التعليل الذي لا أساس لهُ ولا معنى فاللفظة موروثة مثل أخو وأبو وبنو والموروث لا تعليل ولا جدال في أصلهِ إلاَّ عند الذين وضعوه من ألوف السنين ونحن لم نقف بعد على أحوال السلف القديم .

★ ★ ★

(١٣٤)

مادّة خ ر ش ـ ب ص ر ـ أ ب س .

يروي بيتاً لابن مرداس على ثلاث صور :

إنْ تَكُ جُلمود بِصْرٍ لا أُؤَبِّسُهُ أُوقِدْ عليـهِ فأُحميهِ فينصَدِعُ
إنْ تَكُ جُلمودَ بَصْرٍ لا أُوَبِّسُهُ أُوقِدْ عليـهِ فأُحميهِ فينصـدعُ
إنْ تَكُ جُلمود صخْرٍ لاأُؤَبِّسُهُ أُوقِدْ عليـهِ فأَحميهِ فينصـدعُ

(١) بصر بفتح الباء وبكسرهـا (بمعنىً واحد) وصخر . ولكن ما الذي قالهُ الشاعر ؟

(٢) في أبس حيث يقول « صخر » قال : ورواها ابن برّي « بصر » فلماذا لم يذكر الراويَ في خرش وبصر ؟

(٣) في بصر قال أوَبِّسُهُ بفتح الواو بلا همزة ـ فحوّل الفعل من أبس إلى وبس وفعل وبس غير وارد في اللسان ـ

(٤) في خ ر ش قال أُحميهِ بضمّ الهمزة أي أن الماضي أحمى (رباعي) .
وفي بصر وأبس قال أَحميهِ بفتح الهمزة أي أن الماضي حمى (ثلاثي) .
وهو القائل في ح م ي أحمى الحديدة في النار ولا تقولُ حَمَيْتُها .

وكم دعوتُ إلى الله أن يغلط المنضّد (عند إعادة الطبع) في تنضيد الغلط فيعود تنضيدهُ صحيحاً .

★ ★ ★

(١٣٥)

مادّة ث غ و .

نقل مثلاً ورد على صورة واحدة عند الجميع أي حيث وثبت القرارة الأولى وثب القـرار كلّهُ . قال « مالَهُ ثاغية ولا راغية الثاغية الشاة والراغية الناقة » وهذا مثل قولنا لامَعهُ دينار ولا مئة دينار وقول أحدهم « عندنا من كرم المولى مايضمن لنا رفاهيـة العيش ويَسُدّ الرمق » في النفي يُقدّمُ الكثير وفي الإيجاب يقدّم القليل ـ لاراغية ولا ثاغية .

★ ★ ★

(١٣٦)

مادّة ص ب ع .

قال : « الأُصْبَع واحـدة الأصابع تذكّر وتؤنّث وفيه لُغات : إصبَعْ إصبَع إصْبِع أُصْبُع أصبَع أصبِع أَصبُع أَصْبَع أُصْبِع أُصْبُـوع [كان يكفيهِ القول حَرِّكها كما تشاء] الأنملة » ـ أطـال الشرح في اللغات العشر وحرّكها كلّها وفسّرها بأنملة ولم يحرّك أنملةِ وأخطأ في تفسيره فالأنملة ليست الأصبع إنما هي المفصل المتطرف الذي فيه الظفر وهو أيضاً قال هذا في ن م ل .

يتبع : (سنپولو) توفيق داود قربان



نسخة ثالثة من كتاب
(ما بنته العرب على فعالِ)
لأبي الفضائل الحسن بن محمد الصغاني

نشر المجمع العلمي العربي بدمشق هذا الكتاب في سلسلة مطبوعاته سنة ١٩٦٤ وكنت قد قمت بتحقيقه عن نسختين مخطوطتين له وقفت عليهما ، هما نسخة دار الكتب الظاهرية بدمشق ، ونسخة خزانة (أولو جامع) في بروسه بتركية . وقد وصفت النسختين في المقدمة التي قدمت بها للكتاب .

وفي رحلتي إلى استانبول في صيف سنة ١٩٦٥ اطلعت على نسخة مخطوطة ثالثة للكتاب ما كنت رأيتها قبل طبعه . وقد دلني عليها الأخ السيد رمضان ششن من قسم اللغة العربية بكلية الآداب في استانبول . فله الشكر والفضل .

هذه النسخة محفوظة في خزانة الشهيد علي باشا ضمن مجموعة برقم ٢٧١٩ ، في الأوراق [١٠٨ ا — ١٢٤ ب] منها . وهي نسخة قيمة مقروءة على المؤلف ، ومقابلة على أصله المكتوب بخطه ، بسماع عبد المؤمن ابن خلف بن أبي الحسن الدمياطي . وقد صحح المؤلف ذلك وكتب بخطه في آخر السماع . وتساوي هذه النسخة بذلك النسخة الظاهرية في قيمتها وجلالة قدرها . ولكنها لاتختلف عنها في شيء يذكر . وقد ثبت لي ذلك بمقابلة الكتاب المطبوع بها .

الدكتور عزة حسن



وفاة عالم جليل

نعى مجمع اللغة العربية بالقاهرة المغفور له الأستاذ الكبير حامد عبد القادر وهو أحد أعضائه العاملين الذين شاركوا بنصيب وافر في أعماله وأبحاثه . والفقيد ركن من أركان اللغة العربية وعلومها المتوارثة ، كان عالماً باللغات السامية وعلاقتها بالعربية بالإضافة إلى تمكنه في علوم التربية والتدريس . خلف مؤلفات عديدة في اللغة والتربية والأدب والتاريخ ، وكانت حياته طرازاً رفيعاً لجهد الأستاذ المربي والباحث المجلّي . حصنه الله بنفس زكية أوتيت الدماثة والتواضع اللذين يتحلّى بها العلماء الأصلاء .

وإن مجمع اللغة العربية بدمشق ليعرب بهذه الكلمة عن عميق حزنه لهذا المصاب الأليم ويقدم إلى مجمع القاهرة وإلى زملائه وعائلة الفقيد أصدق التعازي ويسأل المولى تعالى أن يتغمده برحمته وأن يجزيه عن خدماته للغته وعروبته أوفى الجزاء .



شكر

ورد إلى رئاسة مجمع اللغة العربية عدد كبير من البرقيات والرسائل من المجامع العلمية واللغوية والأعضاء المجمعيين في مختلف الأقطار الشقيقة وغيرها وهي تتضمن التعزية بالفقيد الكبير المرحوم الأستاذ عز الدين التنوخي نائب رئيس المجمع، والمجمع الذي كان الفقيد عضواً من أبرز أعضائه حقبة طويلة من الزمن ثم نائباً لرئيسه، يشكر السادة الذين تفضلوا بمواساتنا وتعزيتنا بالفقيد الكبير، سائلين الله تعالى أن يعوض الأمة العربية عنه خير العوض.



تصويبات الجزء الثاني من المجلد (٤١)

ص	س	الخطأ	الصواب
٢٥٠	٩	ينظر	تنظر
٢٥٠	١٤	الكناني	الكتاني
٢٥١	١٤	احيت	احبت
٢٥٢	٨	الشمس	النفس
٢٥٥	٢١	لَيْلِي	لَيْلَى



فهرس المجلد الأربعين

الجزء الأول

صفحة

التعريف والنقد

آراء وأنباء

الجزء الثاني

صفحة

التعريف والنقد

آراء وأنباء

الجزء الثالث

صفحة

التعريف والنقد

آراء وأنباء

الجزء الرابع

صفحة

التعريف والنقد

آراء وأنباء